العتبة العلوية المقدسة

قسم الشؤون الفكرية والثقافية

٣٩

الإمام علي عليه السلام

نبراس ومتراس

الكتاب الذي أحرز الجائزة الأولى في مسابقة التأليف عن الإمام علي ﷺ

تأليف

سليمان كتاني

تحقيق

هاشم محمد الباججي

المجمع الأشرف لعاصمة الثقافة الإسلامية

عام ٢٠١٢

www.haydarya.com

الإمام علي عليه السلام

نبراس ومتراس

العتبة العلوية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
(٣٩)

الإمام علي عليه السلام

نبراس ومتراس

الكتاب الذي أحرز الجائزة الأولى في مسابقة التأليف عن الإمام علي عليه السلام

تأليف
سليمان كتاني

تحقيق
هاشم محمد الباجي

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ١٠١٠١٠
التاريخ / ١/٣/ ١١-ـ
M ٦٥٣٥

النجف الاشرف

هوية الكتاب

- الإمام علي نبراس ومتراس.
- المؤلف: سليمان كتاني
- تحقيق: هاشم محمد الباجي.
- الناشر: العتبة العلوية المقدسة ـ قسم الشؤون الفكرية والثقافية.
- التنضيد والإخراج الفني: عبد الحسن هادي الشافعي.
- مراجعة: قسم الشؤون الفكرية والثقافية.
- الطبعة: الثانية.
- تاريخ الطبع: ، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١٠م

تنفيذ طباعي: دار الرافدين – بيروت

www.imamali-a.com
info@imamali-a.com

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون، ولايحصي نعمائه العادون، ولا يؤدي حقه المجتهدون الذي لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن الذي ليس لصفته حد محدود ولا نعت موجود ولا وقت معدود ولا أجل ممدود وصلى الله على رسوله المصطفى الذي بعثه لانجاز عدته وتمام نبوته وخلف في الأمة ما خلفت الأنبياء في أممها إذ لم يتركوهم هملا غير طريق واضح ولا علم قائم وعلى آله الطاهرين اساس الدين وعماد اليقين.

اطلع الله سبحانه وتعالى اطلاعة على الأرض فاختار منها رسوله الكريم واطلع ثانية فاختار منها عليا وصي رسوله ﷺ[1] ... ولد ﷺ في جوف الكعبة ففتح عينيه في بيت الله عز وجل وأول ما مست قدميه البقعة المقدسة من هذا البيت الطاهر فكان ايذانا بعهد جديد لهذا البيت العتيق الذي اشرق بنور محمد ﷺ ووصيه الوليد ليعلن للدنيا بدء الدعوة الإلهية السماوية الإسلامية ..

وقد منحه الله تعالى من المزايا النفيسة والخصائص الشريفة والملكات الروحية .. فصار للمسلمين وغيرهم كضوء النهار الباهر والقمر الزاهر.. فصار طريق الله المستقيم .. وحبله القويم .. والطريق الواضح .. وراية الهدى .. وعلم التقى .. والدال الى الله تعالى.

---

١ . تاريخ مدينة مدشق، ابن عساكر: ٤٢/ ١٣.

كيف لا وهو ربيب الرسول ﷺ الذي يقول أدبني ربي فأحسن تأديبي حتى وصفه الله سبحانه في كتابه الكريم (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)(القلم/٤).

ما سر ابن ابي طالب! .. عمل واحد .. ضربة واحدة .. افضل من عبادة الثقلين الى يوم القيامة.

ما سر ابن ابي طالب! .. هو الإيمان كله؟.

ما سر ابن ابي طالب!.. قسيم الجنة والنار؟.

ما سر ابن ابي طالب!.. لو ان البحار مداد والأشجار أقلام وجميع الخلائق كتاب فما استطاعوا ان يجمعوا إلا النزر اليسير من صفاته، ولكلّوا عن الاتيان ببعض وصف معجزاته[١].

ما سر ابن ابي طالب ....؟؟؟

يناجي ربه: الهي كفا بي عزاً ان اكون لك عبدا وكفى بي فخرا ان تكون لي ربا انت كما احب اجعلني كما تحب[٢]..

عالمي مطلق .. الناس صنفان: إما أخ لك في الدين أو نضير لك في الخلق[٣].

علي .. عبد الله وأخي رسوله .. وكتاب الله الناطق .. وقلب الله الواعي وذاته من شدة الاقتراب .. محسوس في ذات الله..

فأينما يذهب علي .. يذهب الحق وراءه .. وايمنا يدور علي يدور الحق معه .. فلا تستوحش الطريق وان قل سالكيه .. فطريق علي هو طريق الحق

---

١ . فضل الصلاة على النبي وآله صلى الله عليه (أمالي الطوسي: ٤٢٤).

٢ . روضة الواعظين، الفتال النيسابوري: ١٠٩.

٣ . نهج البلاغة، من خطب الإمام علي ﷺ: ٨٤/٣.

والصدق، والمستمسك بعلي فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله واسع عليم.

❖ ❖ ❖

من أجل اعادة بعض الكتابات المتميز ة بحق إمام الإنسانية الخالد امير المؤمنين ﷺ واستعداداً للنجف عاصمة للثقافة الإسلامية كانت فكرة اعاة طبع كتاب (علي نبراس ومتراس) لمؤلفه اللبناني المسيحي سليمان كتاني، هذا الكتاب الحائز على الجائزة الأولى لأفضل تأليف أقامته مدينة النجف الأشرف، فباشرنا في قسم الشؤون الفكرية والثقافية للعتبة العلوية المقدسة باعادة تنضيده واخراجه لأن الكتاب لم يطبع منذ عقد الستينات، وقد قمت بتخريج الأحاديث والحوادث الواردة فيه وترجمة بسيطة للشخصيات المذكورة في الكتاب، وقد اضفنا عنواناً آخر للكتاب (تمهيد) لنعيد للذاكرة سيرة أولئك الرجال الذين أقاموا مسابقة افضل تأليف في تلك الفترة، حيث قمنا بترجمة سطور من حياتهم وسيرتهم، وقد تم انجاز العمل بجهود منتسبي العتبة العلوية المقدسة ـ قسم الشؤون الفكرية والثقافية في شهر الله المبارك شهر الطاعة شهر رمضان، اعلاءً لكلمة لا إله الا الله من خلال نشر الحق والفضيلة والله من وراء القصد..

تمهيد

المؤلف في سطور ..

سليمان كتاني .. أديب ومفكر ومؤرخ مسيحي .. علم من أعلام الفكر والأدب العربي، فهو الأستاذ القدير، وصاحب الذوق العربي الأصيل. والخيال المبدع .. راح قلمه يصدح بعدما اندمج وامتزج بحب علي ﷺ ولاءً وأدبا بحب أهل بيته وأولاده وذريته ﷺ..

ولد الأستاذ سليمان كتاني في الولايات المتحدة في ولاية ما ين في التاسع والعشرين من شباط سنة ١٩١٢ حمله والده يوسف وأمه دليلة الى بلدتهما بسكننا في لبنان وهو في الثانية من عمره حين درس الابتدائية فيها ثم انتقل الى معهد عينطورة ثم معهد الحكمة في بيروت ونال شهادة الفلسفة بامتياز سنة ١٩٣٢م.

من أبرز اساتذة الأستاذ كتاني العلامة الحوزي روفائيل البستاني والأب فيليب السمراني والأستاذ طانيوس ملحمة.

بعد تخرجه انخرط في سلك التعليم ليدرس الأدب العربي، وراح يصدر بين فترة وأخرى كتبه المزدانة بأدب أنيق وفكر عميق ومعالجات وفيرة الصدق وكانت باكورة مؤلفاته تمثيلية (أمل ويأس) فتكون من (٢٨) صفحة طبعت سنة ١٩٣٢ وبعدها كتب الكثير من المسرحيات وغيرها في عام ١٩٦٤ صدر له كتاب (لبنان على نزيف خواصره)، وفي عام عام ١٩٦٧ طبع له كتاب (علي نبراس ومتراس) الذي حصل على الجائزة الأولى التي اطلقتها جماعة العلماء

في النجف الأشرف، ثم اصدر كتاب (فاطمة الزهراء وتر في غمد)، وفي عام ١٩٧٠ اصدر كتاب (محمد شاطئ وسحاب) وهو كتاب جسد السيرة النبوية ثم كتاب (يسوع أبد الإنسان) عام ١٩٧٩ ، ثم كتاب جبران خليل جبران بمداره الواسع عام ١٩٧٩ ، وكتاب (مي زيادة في بحر من ضمأ) في سنة ١٩٨٤ ، وكتاب (الجذور) عام ١٩٨٥ ، (الإمام الحسن الكوثر المهدوي) عام ١٩٨٩ ، كتاب (ميخائيل نعيمة بيدر مفطوم) ١٩٩٠ وكتاب (الإمام الحسين في حلة البرنيد) عام ١٩٩٠ وله اعمال تلفزيونية عديدة ومسرحيات مخطوطة مثل محاكمة هارون الرشيد، طابع السم أكله، المهلب بن ابي صفرة، اضافة الى مقالاته ودراساته الادبية وقصصه الرشيقة.

التحق بالرفيق الأعلى الأستاذ سليمان كتاني صاحب اشهر المؤلفات المسيحية في آل البيت ﷺ في اليوم نفسه الذي ولد فيه في التاسع والعشرين من شباط عام ٢٠٠٤ في لبنان .. وظلت كلماته ترن في ذاكرة الأجيال:

محبتي للرسول وآله محبة خالصة.. وهي لعلي لا يوازيه حب آخر في الحياة.. علي .. عالمي مطلق.

علي هو الصدق ذاته في الفكر الإنساني .. وهو مصدر كل الانطلاقات الرسالية العظيمة على صفحة الأرض ..

ليس لدى غير علي فكر صحيح .. ولذا لا يجوز ان يتشيع في الحياة غيره .. التشيع هو التعلق بالحقيقة التي يمثلها الفكر الإسلامي العالي ..

أراني أخيرا قد وجدت أهل البيت دائما في الحقيقة..

مسابقة في التأليف:

في عام ١٩٦٦ اطلقت مدينة النجف الأشرف مسابقة التأليف في الإمام علي بن ابي طالب ﷺ ، فهي السباقة كعادتها في المشاريع الفكرية والثقافية فقد انبرى ابناؤها البررة بتبني مشروع اسلامي ثقافي علمي تاريخي جديد في مضمونه وطرحه وهي اطلاق مسابقة في التاليف وقد كان صاحب هذه الفكرة سماحة السيد جواد شبر الخطيب الحسيني المعروف رحمه الله ، وتبنى الدعم المادي لهذه المسابقة الوجيه السيد هاشم شبر وهو من تجار النجف المعروفين وابن عم السيد جواد شبر الذي تبرع من ماله الخاص لكل الجوائز الثلاث.

وكان لجماعة العلماء دور في تنظيم هذه المسابقة من خلال تشكيل لجنة تحكيم تضم : سماحة آية الله الشيخ مرتضى آل ياسين قدس سره وسماحة آية الله السيد محمد باقر الصدر، وسماحة حجة الإسلام والمسلمين السيد موسى بحر العلوم بطلب السيد جواد شبر امين سر اللجنة وسكرتيرها وقد وجه نداء الى الكتاب المحققين والمثقفين في العالم العربي والإسلامي للتنافس في الكتابة عن الإمام ﷺ.

أصداء وآراء:

كان لهذه المسابقة التاريخية اصداء كبيرة في الأوساط العلمية والاجتماعية حين ساهمت في خلق آفاق ومحاور جديدة في الكتاب والتأليف خاصة في الإمام علي عليه السلام والذي يعتبر شخصية عالمية بكل المعايير لذا ان الكتاب

المسيحيين خاصة بالرغم من ديانتهم قد ابدعوا في الكتابة عن هذه الشخصية العظيمة فيقول :

الكاتب المسيحي شبلي الشميل :

الضمير العملاق الإمام علي بن ابي طالب ﷺ عظيم العظماء نسخة مفردة لم ير الشرق ولا الغرب صورة طبق الأصل لا قديما ولا حديثا.

أما الكاتب القدير جورج جرداق فيصفه قائلاً :

إن علي بن ابي طالب من الأفذاذ النادرين الذين عرفتهم على حقيقتهم بعيدا عن الصعيد التقليدي الذي روضنا على اساسه ندرس رجالنا وتاريخنا ، عرفت ان محور عظمتهم إنما هو الإيمان المطلق بكرامة الإنسان وحقه المقدس في الحياة الحرة الشريفة وإن هذا الإنسان منضوم أبدا بان الجمود والتقهقر والتوقف عن حال من أحوال الماضين أو الحاضر ليس إلا نذير موت ودليل فناء.

وقد صور جبران خليل جبران صورة رائعة للإمام علي ﷺ بالرغم من وصفه لحالة شهادته إذ يقول :

مات علي بن ابي طالب شهيد عظمته ، مات والصلاة بين شفتيه مات وفي قلبه الشوق الى ربه .. الى ان يقول انني اتمثله مبتسما قبل ان يغمض عينه عن هذه الأرض.

وقد وصفه الشاعرالكبير بولس سلامة قال في ملحمته الخالدة عن امير المؤمنين ﷺ :

يا سماء اشهدي و يا ارض قري واخشعي انني ذكرت عليا

وله ايضاً :

هو فخر التاريخ لا فخر شعب يدعيه ويصطفيه وليا

لاتقـــل شـــيعة هـــواة علـــي ان في منـــــصف شـــــيعيا

أما الكتب الفائزة بهذه المسابقة فقد طبعت طبعة أولى وثانية بأكثر من عشرين ألف نسخة ونفذت جميعها واصبح الحصول عليها عزيز المنال.

وكان للعلماء دور كبير في التشجيع على طباعة هذه الكتب واقتنائها فقد دعما العلمين السيدين الجليلين اية الله العظمى السيد محسن الحكيم (قدس) وآية الله العظمى السيد ابو القاسم الخوئي الكتاب الفائز وشجعا على طبعه.

واتماماً للفائدة نعرض بصورة موجزة حياة الشخصيات الخمسة التي كان لها الدور الكبير في اقامة هذه المسابقة :

صاحب الفكرة .. الخطيب السيد جواد شبر (رحمه الله):

ولد في النجف الأشرف في ١٣ جمادى الآخرة سنة ١٣٣٢هـ من أسرة علمية درس في الحوزة العلمية في النجف الأشرف الى جانب دراسته التقليدية ودرس في مدارس منتدى النشر وتفوق حتى اصبح من أساتذتها ثم شكل سكرتارية المجمع الثقافي للمتندى اتجه الى خدمة المنبر الحسيني فكان من الخطباء المتميزين لأنه امتاز بالموهبة والاستعداد الفطري والكفاءة العلمية والثقافية إضافة الى حفظه الكثير من الشعر والأدب العربي.

يعتبر السيد جواد شبر من تلامذة الخطيب القدير المرحوم الشيخ محمد حسين الفخيراني الحسيني حيث أخذ منه الكثير واصبحت له مجالس عامرة كما في مجلس الفقيه المقدس السيد حسن الخرسان ومجلس العالم الورع السيد نصر الله المستنبط، وكانت له مواقف مشهورة ومشهودة في مدينة النجف الأشرف حيث قام بتأبين بعض الشخصيات العلمية مثل الشيخ عبد الحسين الأميني

صاحب كتاب الغدير، وآية الله العظمى السيد محسن الحكيم (قدس) وشيخ الباحثين اغا بزرك الطهراني وكان رحمه الله متواضعاً مخلصا في القاء الخطبة المنبرية في النجف وكثير من محافظات العراق بالإضافة الى بلدان الخليج ولبنان.

للسيد جواد شبر مؤلفات عدة ابرزها موسوعة ادب الطف وهي في عشر مجلدات، وكتاب الى ولدي، وكتاب قبس من حياة امير المؤمنين، اشعة من حياة الصادق ﷺ، وعبرة المؤمنين، كتاب شواهد الأدب في ثلاث أجزاء، كتاب المقتطفات وسوانح الأفكار في منتخب الأشعار وغيرها الكثير .. وله مساهمات كبيرة على المستوى الثقافي والعلمي كانت احداها هذه المباراة الثقافية الدولية في التأليف كما له اسهامات في الشعر الشعبي.

في عام ١٩٨٤ اعتقل السيد جواد شبر من قبل الزمرة البعثية الاعتقال الثالث اضافة الى اعتقال اولاده زيد وحامد واللذين اعدمهما صدام لاحقاً ولم يخرج من السجن الى اعلان سقوط النظام، وقد غيب جسده الشريف في السجون ولم يعثر عليه حتى الآن.

الداعم المالي .. السيد هاشم شبر:

من أُسرة ال شبر تلك الأسرة العلمية المعروفة في النجف الأشرف الذي انجبت الكثير من العلماء والأدباء، فهو ابن عم السيد جواد وهو من التجار المعروفين في المدينة وله اهتمامات واسعة في العلم والأدب لذا كانت جوائز هذه المسابقة قد تبرع بها من ماله الخاص دعماً منه للحركة العلمية والفكرية والثقافية.

اللجنة التحكيمية.. سماحة اية الله الشيخ مرتضى ال ياسين (قدس)

هو الشيخ مرتضى بن الشيخ عبد الحسين بن الشيخ باقر بن محمد حسن ال ياسين الكاظمي، ولد في الخامس والعشرين من ذي الحجة سنة ١٣١١هـ بمدينة الكاظمية ثم انتقل الى النجف الأشرف ليبدأ دراسته الحوزوية هنالك ومن ابرز أساتذته السيد ابو الحسن الموسوي الأصفهاني(قدس)، أخوه الشيخ محمد رضا آل ياسين (قدس)، والشيخ محمد حسين الغروي النائيني (قدس)، وكانت له حلقة درس تخرج منها العديد من العلماء والأفاضل مثل الشيخ محمد حسن آل ياسين (قدس) والسيد محمد باقر الحكيم (قدس)، والسيد محمد رضا شرف الدين(قدس)، والشيخ حسين الخليفة وغرهم، له جملة مؤلفات منها تعليقة على العروة الوثقى، وتعليقة على بلغة الراغبين، البكاء على سيد الشهداء، النظرة الدامغة ونهضة مباركة وديوان شعر.

توفي الشيخ آل ياسين في شهر ذي القعدة عام ١٣٩٨هـ.

اللجنة التحكيمية .. اية الله الشهيد السيد محمد باقر الصدر (قدس) :

هو السيد محمد باقر السيد حيدر الصدر ولد بمدينة الكاظمية يوم ٢٥ ذي القعدة عام ١٣٥٣ ونشأ يتيما فتكفل به اخوه الأكبر اية الله السيد اسماعيل الصدر الذي اهتم بتعليمه وتدرسيه وقد ظهرت علامات النبوغ والذكاء رغم صغر سنه في عام ١٩٦٥م انتقل مع اخيه السيد اسماعيل الصدر الى مدينة النجف الأشرف للدخول في دروس الحوزة العلمية هناك وفي أوائل السنة الثانية عشرة من عمره درس كتاب معالم الأصول على يد أخيه اسماعيل الصدر وكان لفرط ذكائه يعترض على صاحب المعالم باعتراضات وردت في كتاب

الأصول للخراساني، من ابرز اساتذة السيد محمد باقر الصدر خاله اية الله الشيخ محمد رضا ال ياسين (قدس) الذي درس عنده مرحلة البحث الخارج في صغره، وآية الله الشيخ ملا صدرا البادكوبي (قدس) وقد درس عنده الجزء الثاني من الكفاية والأسفار الأربعة، وآية الله الشيخ عباس الرميثي، وآية الله العظمى السيد ابو القاسم الخوئي (قدس) الذي درس عنده مرحلة البحث الخارج وكان السيد الخوئي أول من أجاز السيد محمد باقر الصدر (قدس) وقد كان يرجع طلابه الى الصدر عند عدم فهمهم لبعض عناصر الدرس، وآية الله محمد تقي الجواهري الذي درس عنده الجزء الأول من الكفاية وجزء من اللمعة، وآية الله حسين اسماعيل الصدر أما ابرز تلامذته اية الله السيد كاظم الحائري، وآية الله السيد محمود الهاشمي الشاهرودي، وآية الله السيد محمد باقر الحكيم (قدس)، كان للسيد الصدر (قدس) مجلسان للتدريس وهما:

بحث الأصول الذي كان يلقيه في مسجد الجواهري بعد اذان المغرب في أيام الدراسة.

بحث الفقه وكان يلقيه في جامع الطوسي في الساعة العاشرة صباح كل يوم من ايام الدراسة.

لسماحة السيد الصدر (قدس) الكثير من المؤلفات الذي اثرت المكتبة الإسلامية بالعلوم والمعارف المختلفة نذكر منها غاية الفكر في علم الأصول، فدك في التاريخ، فلسفتنا، اقتصادنا، المدرسة الإسلامية، الأسس المنطقية للاستقرار، بحوث في شرح العروة الوثقى، دروس في علم الأصول، بحث حول المهدي، أهل البيت تنوع أدوار ووحدة هدف.

كان السيد الصدر (قدس) مفكر وفيلسوف اسلامي كبير ومرجع ديني بارز إذ كان منفتحا فكريا علي باقي المذاهب يدعو الى السمو العقلي والفكري وعدم التعصب والانجرار الى الطائفية المقيتة بل جعل الفكر والعقل هما المحور والأساس والإنطلاق لحياة الإنسان.

في الخامس من نيسان ١٩٨٠ ارتكب صدام جريمة العصر باعتقاله مع اخته العلوية بنت الهدى بحجج واهية وفي اليوم التاسع من نيسان ١٩٨٠ نفذ حكم اعدامه في بغداد وعادوا بجثته خفية الى النجف الأشرف ليدفن فيها.

اللجنة التحكيمية .. سماحة حجة الإسلام والمسلمين السيد موسى بحر العلوم (قدس سره)

السيد موسى بن السيد جعفر بن السيد محمد بن السيد محمد تقي بن رضا بن مهدي بحر العلوم الطباطبائي، عالم أديب وشاعر .. ولد في النجف الأشرف في شهر جمادي الآخرة عام ١٣٢٧ من اسره علمية عريقة عرفت بالتقوى والعلم، ونشأ على والده المتوفي سنة ١٣٣٤هـ دخل المدارس الرسمية وتخرج منها وانصرف لتحصيل العلوم الشرعية، ومنذ صغره دخل الحوزة العلمية واستمر بالدرس والاشتغال وكان من ابرز اساتذته سماحة اية الله العظمى السيد محسن الحكيم، وآية الله الشيخ حسين الحلي، وآية الله السيد ميرزا بجنوردي، ولمكانته العالية والدينية رغب اهالي الكوفة بعامة طبقاتهم ان يقيم صلاة الجماعة لهم في المسجد الأعظم مسجد الكوفة وان يكون لهم مرشداً دينيا واجتماعيا، اضافة الى مكانته العلمية فهو من المتفوقين في العلوم الأدبية، نظم الشعر وأجاد فيه وله شعر راقٍ وهو ممن عني بنظم التاريخ وارخ

به الحوادث والقضايا التاريخية ومواليد ووفيات وغيرها ونشر منه في الصحف العراقية، شارك في تأسيس (جمعية الرابطة الأدبية) كما ساهم بتأسيس فكرة (جمعية منتدى النشر)، وكان مدرسا تتلمذ على يديه بعض الأفاضل، اضافة الى علميته فانه يتمتع بصفات نفسية كريمة جعلته محبوبا في طبقات المجتمع عامة له خمسة عشر أولاً من الذكور خمسة هم السيد علي، السيد جعفر، السيد حسن، والسيد محمد حسين، والسيد رضا، مؤلفاته: ديوان شعره خ.

توفي بالنجف ٨ صفر سنة ١٣٩٧هـ ودفن بمقبرتهم الخاصة

نتائج مسابقة التأليف:

قررت اللجنة المشكلة من العلماء الأفاضل لتقيم افضل تأليف كالآتي:

١. الفائز الأول بأفضل تأليف للأستاذ اللبناني سليمان كتاني عن كتابه (الإمام علي نبراس ومتراس) ويقع الكتاب في (٢٤٠) صفحة.

٢. الفائز الثاني بأفضل تأليف للدكتور مهدي محبوبه في كتابه (ملامح من عبقرية الإمام علي (ع)) وقع الكتاب في (٢٨٣) صفحة.

٣. الفائز الثالث بأفضل تأليف للأستاذ عبد المجيد لطفي (الإمام علي رجل الإسلام المخلد) ويقع الكتاب في (٢٨٨) صفحة.

وقد حصل الأستاذ (روكس بن زائد العزيزي) على الجائزة الروحية والمعنوية عن كتابه (الإمام علي أسد الإسلام وقديسه).

إقامة الاحتفال:

أُقيم احتفال ومهرجان كبير في مدينة الإمام الحسين مدينة كربلاء بمناسبة ذكرى ولادة الإمام علي ﷺ بطل الإسلام الخالد، وبعد قراءة القصائد

والكلمات اعلنت نتائج مسابقة التأليف ووزعت على الفائزين الجوائز والمبالغ المالية المخصصة وقد دعيت لهذا المهرجان والاحتفالية الكثير من الشخصيات العلمية والأدبية والفكرية وقد استضاف السيد جواد شبر في بيته الأستاذ سليمان كتاني مع زوجه كان الاحتفاء بهم وتكريمهم بشكل لائق وما هو معروف عن ضيافة اهل النجف الكرام.

جائزة الإمام علي عليه السلام العالمية للإبداع الفكري:

وعلى المنوال نفسه اطلقت الأمانة العامة للعتبة العلوية المقدسة جائزة الإمام علي عليه السلام العالمية للإبداع الفكري يوم ١٨ ذي الحجة سنة ١٤٣١ بمناسبة عيد الغدير الأغر واستعداداً واحتفاءً بالنجف عاصمة للثقافة الإسلامية عام ٢٠١٢، تعد هذه الجائزة مشروعاً علمياً قائماً على الإبداع في فن الكتابة والتأليف محوره شخصية الإمام علي بن ابي طالب عليه السلام لامتداد هذه الشخصية الفذة في الماضي، وآثارها في الحاضر والمستقبل، وقد خصصت لهذا المشروع هدايا نقدية وعينية قيّمة للفائزين الثلاثة مع تبني العتبة طباعة بحوثهم وسيعلن عن نتائجها في يوم ذكرى ميلاد الإمام علي عليه السلام في ١٣ رجب لسنة ١٤٣٣ الموافق سنة ٢٠١٢هـ[1].

هاشم محمد محمد باقر الباججي

١ محرم ١٤٣٢هـ

---

١ . يمكنك الدخول على موقع العتبة العلوية المقدسة للاطلاع على المواضيع والتفاصيل. www.imamali-a.com info@imamali-a.com

تفضل سماحة الشيخ مرتضى آل ياسين رئيس جماعة العلماء في النجف الأشرف، ورئيس لجنة المباراة الكتابية، بإلقاء هذه الكلمة المباركة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلى على محمد وآله..

وبعد فقد شاء الله جل شأنه الذي أخرج هذا الكتاب من حيز القلب إلى حيز القلم أن يفتح له الطريق الى المطبعة في يسر وسهولة ليخرج إلى الناس كتابا صادعاً بالحق وناطقاً بالصدق فيفيد منه الجاهل علماً والعالم اسلوباً ونظماً، وحسبه ميزة ان يبرز بهذا الأسلوب الرائق الذي أقل ما يقال فيه أنه اسلوب بياني بديع له من مقومات اللفظ وخصائص المعنى ما يجعله جديراً بكل اعجاب وتقدير، ولعله في اسلوبه البلاغي أول كتاب في موضوعه جاء منسجما مع شخصية لها مثل نهج البلاغة، فشكراً لمؤلفه الأستاذ الألمعي من كل وليّ للإمام علي عليه السلام، ثم شكراً لتلك الذوات الخيرة التي مهدت السبيل على انجاز مثل هذا الكتاب الفذ وغيره من الكتب المشاركة له في الموضوع، واخص بالذكر منهم السيدين الشريفين فضيلة الخطيب البارع السيد جواد شبر الذي كان لجهوده المشكورة اكبر الأثر في نجاح هذا المشروع والماجد الكريم السيد هاشم شبر الذي تبرع من ماله الخاص بكل الجوائز الثلاث التي وزعت على الفائزين الثلاثة وعسى أن تفتح هذه المباراة الفكرية القلمية التي

اسفرت عن مثل هذا النتاج القيم بابا لمباريات أخرى تتحف المكتبة الإسلامية بنفائس كهذه النفائس أو اثقل وزناً وما ذاك عن ارباب الفكر والقلم بعيد والله المستعان وهو ولي التوفيق

مرتضى آل ياسين

المقدمات

منذ أربعة عشر قرنا واسم الإمام علي ﷺ يحتل الصدارة في بيوت المؤرخين والمتتبعين، والباحثين، حين يجئ ذكر الإيمان، والاستقامة، والعدل والشجاعة والجهاد في سبيل الله، والصبر على المكاره، أو حين يجئ ذكر المعرفة والحكمة، والأدب والشعر والخطابة، فتمر سيرته في صور مزدانة بألوان من الصفات التي لم تجتمع في شخصية انسان عبقري موهوب كما اجتمعت في هذه الشخصية الفذة العجيبة التي خلبت العقول، وحيرت الألباب، وكانت من القوة والرسوخ ـ من حيث هذه المزايا مزايا العلم والحكمة والمعرفة وسمو الخلق والإنسانية الحقة ـ بحيث تمردت على العوامل الفعالة التي من شأنها إبادة أي شيء ـ مهما عظم ـ إذا ما وقف أمامها.

يقول ضرار بن ضمرة الكناني وهو من معاصري علي حين ارغمه معاويه على ان يقول عن علي ما يرى فقال: (كان والله بعيد المدى، شديد القوى، ويقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويأنس بالليل ووحشته، وكان غزير الدمعة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشب، وكان فينا كأحدنا، يدنينا إذا أتيناه، ويجيبنا إذا سألناه، ونحن والله مع تقريبه إيانا، وقربه منا، لا تكاد هيبة له، يعظم أهل الدين، ويقرب المساكين، لا يطمع القوي من باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله)[1].

---

١ ـ شرح نهج البلاغة، شرح ابن ابي الحديد: ١٨/٢٢٦.

كان علي أمة مستقلة بذاتها، تحكى عقيلة الدهر، وتغبر عن نضج الزمان، وتصور نهاية المراحل من سمو البشرية، وقمة المجد، فليس من الصحيح أن يقاس علي بالأفراد فهو نسيج وحده، ومن الخطأ أن يقال عن علي: أنه كان أورعهم، واتقاهم، وأنبلهم، واسخاهم وأنت تعرض لسيرة العظماء والمزايا الإنسانية، فكما أنك لا تستطيع ان تقرن الأرض بالقمر بهاءً، وتقرن معدن الراديوم بالمعادن الأخرى جواهرا وتقيس عليه، فإنك لا تستطيع ان تقرن اسم علي بأسماء العظماء ـ باستثناء من خصوا برتبة النبوة وهو غير نبي طبعاً ـ لأن مزايا علي قد تجاوزن الحدود المألوفة، ولأن شخصيته بلغت القمة من الأمجاد والمثل العليا في دنيا البشرية.

وحين يستعرض المرء المبادئ الملكات والمزايا فلا يصح أن يأتي بعلي مثلاً، ذلك لأن علياً ـ كما قلت ـ أمة مستقلة وليس لها بين الأفراد من شبيه، وأنه قد سما بما جاء به من موازين، وما أعرب به من مزايا، وما عبر به عن صفات الإنسان الكامل العديم النظير، حتى صارت كلمة (علي) وحدها تكفي لترسم أمام العين كل الصور الجذابة من معاني الإنسانية.

ولعل كلمة (علي) التي يكتبها البعض فوق مخازنهم، وحوانيتهم، أو يعلقونها في اطار من الألواح الفنية المزخرفة في بيوتهم، او التي ينقضونها على ابواب العمارات والمساجد، والمعاهد، والمؤسسات، أقول: لعل هذه الكلمة ضرب من ضروب (البديع) ورمز من رموز الفن المعروف في علم البديع (بالاكتفاء) وهي صريحة المنطوق، واضحة المفهوم، فلا حاجة لأن يضاف إليها شيء ليفهم الناس: ان عليا يحكي المجموعة الكاملة من فضائل ومزايا.

يقول مهدي الجواهري:

تعـــدد المـــرء يعـــد منقـــصة إذا فاقـت مزايـاه عـن التعـداد

ولقد فاقت مزايا علي حدود التعداد، وتحدثت عوامل الزمن التي تجرف أمامها الماضي والحاضر فتجعله أثراً بعد عين.

لقد تحدت مزايا (علي) عوامل الزمن بقوة لم يعرف لها نظير في تاريخ العظماء حتى اصبحت شخصيته كالشمس التي إذا ما حجبها الضباب أو السحاب أو الغبار، أو حال القمر بينها وبين الأرض مرة فلن يستطع أن يحجبها مرات، ولن يقوى على تغيير جوهرها، ونفوذ عملها واثرها في الأرض وفي الطبيعة.

(١)

وانا اقصد بعوامل الزمن، والعوامل الفعالة: (الترغيب) الذي يتضمن أساليب (الدعاية) واستمالة النفوس بالوعود، والمنح والعطاء مما استخدمه اعداء (علي) بكل صوره وألوانه لاسدال الستار على فضائله وحجبها عن العيون، ومحو اسمه من دفتر الوجود.

وأقصد بعوامل الزمن والعوامل الفعالة: (الترهيب الذي يتضمن الوعيد والتهديد، والسجن، والتنكيل، والتقتيل بأبشع صوره للقضاء على أية بقية لعلي وأولاده ومحبيه، ممن لا يزالون يرون لعلي بن ابي طالب وذريته الصالحين شيئاً من الحرمة والمحبة في نفوسهم.

وإذا ما تم الجمع بين الترغيب والترهيب بكل وسائلهما وطرقهما الجهنمية هان على من بيده القوتان الفعالتان أن يغير اتجاه الأفكار، وأن يبدل العقيدة وأن يسدل ستاراً كثيفاً على الماضي بجميع مزاياه وحسناته، وما قد يشد المرء إليه من ايمان به، وتمسك بمبادئه.

والترغيب وحده يعتبر اليوم من اشد أسلحة الحرب مضاء، وأكثرها فتكاً، فكيف لو انضمت إليه عناصر الترهيب؟ ولقد اضاعت (الدعاية) الواسعة اليوم على الباحثين والمؤرخين حقيقة الأمور فلم يدروا ـ مثلاً ـ أحقا كانت المانيا هي المسبب الأكبر في الحرب العظمى الأولى والثانية أم كانت انكلترا التي تريد أن لا يمس أحد طرفاً من حقوقها في المستعمرات؟

ولكن شاهدنا فيما قرأنا كيف فعل الجمع بين الترغيب والترهيب، وكيف بدل سجايا أصيلة في أمم اصيلة، وكيف غير اتجاهات شعوب وعقائد شعوب إلى ما يعاكس اتجاهاتها وعقائدها، وكان من بعض ذلك أن استطاع الأيوبيون أن يحولوا مصر الشيعية بعقيدتها الأصيلة إلى مصر السنية، واستطاع الصفويون أن يحولوا ايران السنية النشأة والعقيدة إلى إيران الشيعية، لأن كلا الطرفين ـ الأيوبيين والصفويين ـ قد استخدما وسائل (الترغيب والترهيب) استخداما ما ضمن لهما اجتثاث العقيدة من اصلها، وغرس عقيدة معاكسة لها تماما في محلها.

وقصة إدوارد الثامن ليست بعيدة عن الأذهان وهي تكفي لتكون شاهداً لكيفية تخلي الشعب عنه ونسيانه بالمرة بين عشية وضحاها بمجرد أن انزلت الحكومة صوره من أعالي الجدران وامتنعت الصحف من ترديد اسمه، وذكر أخباره، وبعد ان كان ملء الأذهان، وملء القلوب محبة وولاء، ولم يعرف ـ إلا القليل ـ أن يقيم اليوم، هذا الملك المحبوب والمعبود بالأمس؟ وكيف يعيش؟ هذا (والدعاية) لم تتجاوز الحدود البسيطة الأولية.

يقول ابن ابي الحديد: (روى عطاء عن عبد الله بن شداد بن الهادي قال: ان الأحاديث الواردة في فضل علي لو لم تكن في الشهرة والاستفاضة وكثرة

النقل إلى غاية بعيدة لا نقطع نقلها للخوف والتقية من بني مروان مع طوال المدة، وشدة العداوة، ولولا ان الله تعالى في هذا الرجل - يعني علياً - سراً يعلمه من يعلمه لم يرو في فضله حديث، ولا عرفت له منقبة، ألا ترى ان رئيس قرية لو سخط على واحد من أهلها، ومنع الناس أن يذكروه بخير أو اصلاح، لخمل ذكره، ونسي اسمه، وصار وهو موجود معدوما، وهو حي ميتاً)[1].

(٣)

الترغيب

وقد استخدمت تلك العوامل والوسائل، وسائل الترغيب والترهيب بمختلف صورها ووجوهها ضد علي وأولاده من بعده حتى ظلت هذه العداوة تماشي الزمن الى هذا التاريخ بالرغم من تقدم العلوم، وانتشار الثقافة، واتساع الأذهان للمناقشة، والتتبع والاستقصاء ونبذ التعصب، فلم يزل حتى هذا اليوم من يكره عليا ويسبه ويلعنه، ولقد مر أكثر من ثلاثة عشر قرناً على استشهاد علي ووفاته ونحن لم نسمع صوت عمران بن حطان الرقاشي[2] وهو

---

١ . شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد: ٤/٧٣.

٢ . عمران بن حطان السدوسي البصري المتوفي سنة ٨٤هـ الخارجي الملعون الذي مدح المجرم عبد الرحمن بن ملجم المرادي .. أفجهل قوله (ص): يا علي أتدري من أشقى الآخرين؟ فقال علي: الله ورسوله أعلم، فقال (ص): قاتلك يا علي (مستدرك الوسائل، الميرزا النوري: ١/١٨)، وروى عنه البخاري وقد أكثر علماء الرجال من الطعن فيه (السقيفة، محمد رضا المظفر: ١٨٦)، وهذا معاصره القاضي ابو الطيب طاهر بن عبد الله الشافعي يقول في عمران ومذهبه:

انـي لأبـرأ ممـا أنـت قائلـه	عـن ابـن ملجـم الملعـون بهتانـا
يـا ضـربة مـن شـقي مـا اراد بهـا	إلاليهـدم للإسـلام أركانـا
أنـي لأذكـره يومـا فألعنـه	دنيـا وألعـن عمرانـا وحطانـا
عليـه ثـم عليـه الـدهر متـصلاً	لعـائن الله اسـرارا واعلانـا

يبجل عبد الرحمن بن ملجم ويثني على تلك الضربة التي شج بها ابن ملجم رأس الإمام علي إذ يقول:

يا ضربة من تقي ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

أني لأذكره يوماً فأحسبه ... أو في البرية عند الله ميزانا[1]

فحين زار ابن بلة الزعيم الجزائري[2] العراق كان أول ما سأل عنه، سأل عن قبر عبد الرحمن بن ملجم أو محل مقتله، وأبدى رغبته في زيارته وقراءة

فأنتما من كلاب النار جاء به ... نص الشريعة برهانا وتبيانا

(الغدير، الأميني: ٣٢٦).

قال الدار قطني: إنه متروك الحديث وخبيث في مذهبه (دراسات في الحديث والمحدثين، هاشم معروف الحسيني: ١٩٠)، عمران بن حطان أحد رؤوس الخوارج الخبيثة ولو أهل البدع بلغ الأمر مبلغا من المتفق عليه، (شرح معاني الآثار أحمد بن محمد بن سلمة ٤٠٨/٤)، غضب الله تعالى عليه (تفسير الآلوسي، الألوسي: ١٦٨/٨).

١ ـ الكامل، المبرد: ٤٩/٣ ط محمد بن صبيح ـ القاهرة.

٢ ـ ولد الرئيس أحمد بن بلة يوم ٢٥ ديسمبر ١٩١٦ بمدينة مغنية، واصل تعليمه الثانوي بمدينة تلمسان وقد أدى الخدمة العسكرية سنة ١٩٣٧، تأثر بعمق بأحداث ٨ مايو ١٩٤٥، فانظم إلى الحركة الوطنية باشتراكه في حزب الشعب الجزائري وحركة انتصار الحريات الديمقراطية حيث انتخب سنة ١٩٤٧ مستشارا لبلدية مغنية، اصبح بعدها مسؤولا على المنظمة الخاصة حيث شارك في عملية مهاجمة مكتب بريد وهران عام ١٩٤٩ بمعية السيدين حسين آيت أحمد و رابح بطاط، ألقي عليه القبض سنة ١٩٥٠ بالعاصمة و حكم عليه بعد سنتين بسبع سنوات سجن. هرب من السجن سنة ١٩٥٢ ليلتحق في القاهرة بآيت أحمد و محمد خيذر حيث يكون فيما بعد الوفد الخارجيّ لجبهة التحرير الوطني. قبض عليه مرة أخرى سنة ١٩٥٦ خلال عملية القرصنة الجوية التي نفذها الطيران العسكري الفرنسي ضد الطائرة التي كانت تنقله من المغرب نحو تونس رفقة أربع قادة آخرين لجبهة التحرير الوطني (بوضياف، بطاط، آيت أحمد، لشرف)، أطلق سراحه سنة ١٩٦٢ حيث شارك في مؤتمر طرابلس الذي تمخض عنه خلاف بينه و بين الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، في ١٥ سبتمبر ١٩٦٣ انتخب أول رئيس للجمهورية الجزائرية، في ١٩ جوان ١٩٦٥ عزل من طرف مجلس الثورة، ظل معتقلا إلى غاية ١٩٨٠، و بعد إطلاق سراحه أنشأ بفرنسا الحركة الديمقراطية بالجزائر، التحق نهائيا بالجزائر بتاريخ ٢٩ سبتمبر ١٩٩٠.

الفاتحة له..! وقد حصل من صرفه بلباقة عن مثل هذا السؤال وأشار عليه بما يقتضي ان يراعيه في هذا المقام مما تقتضيه السياسة، فإذا لم تصح هذه الرواية عن ابن بلة فهي صحيحة في عدد غير قليل من قوم لا يزالون حتى اليوم يسبون عليا ويترحمون على قاتله عبد الرحمن بن ملجم.

نقول لقد استخدمت كل الوسائل من الترغيب والترهيب لطمس أسم علي وفضائله ولم تترك طريقة ذات جدوى كبيرة كانت أم صغيرة إلا اتخذت للوصول إلى هذه الغاية، ولكن هذه الوسائل على ما فيها من حول وقوة ونفوذ، واعدادها باتقان وإحكام على ايدي اعداء مهرة ذوي خبرة وحنكة، فأنها لم تكن بأكثر من خيوط واهنة أشبه بخيوط العنكبوت اين لها ان تشد على رقاب الأسود وتجرها حيث تشاء، لذلك خرجت ذكرى علي وأولاده الصالحين بعد تلك المحاولات ـ التي قد يعجز عن حبكها حتى الشيطان في جميع ضروب (الترغيب والترهيب) ـ أكثر صفاء، وأوضح بياناً وأجلى واقعاً.

صحيح ان الاضطهاد قد يساعد على التمسك بالرأي المعاكس، وبالعقيدة المخالفة لعقيدة المضطهد (بكسر الهاء) ويجعلها أكثر رسوخاً في النفس، ولكن الاضطهاد المصحوب بالترغيب وحسن الدعاوة لن يجعل رد الفعل بمثل هذه القوة التي صاحب رد فعل المضطهدين لعلي وأولاده، وشيعته، والتي كان من آثارها ظهور الغلاة، والمؤلهين لعلي، والمحلقين به كل معجزة لم يستسغ العقل نسبتها إلى الأنبياء فكيف نسبتها للخلفاء، وجعلت اسم (علي) يذكر في أذان الشيعة وإقامة صلاتهم كرد فعل للسباب، واللعن الذي أوجبه اعداء علي على أنفسهم قبل الصلاة وبعد الصلاة، وعند التوجه

الى الله بالدعاء، فقد جاء في الأخبار، وعلى ما أورد ابن ابي الحديد: (إن معاوية، وعمرو، والمغيرة، والوليد بن عقبة، وأبا الأعور، والضحاك بن قيس، وبسر بن ارطأة، وحبيب بن مسلمة، وأبا موسى الأشعري، ومروان بن الحكم، كانوا يقنتون ويلعنون علياً)[1].

وهذا هو دليل عظمة علي، العظمة التي كان من آثارها أن تظل شخصية علي اربعة عشر قرنا، وستظل عشرات القرون بل ومئات القرون كما لو كانت شخصية عظيمة جديدة لا عهد للمؤلفين، والمؤرخين، ومستعرضي السير بمثيل لها في تاريخ البشرية.

ولقد اتقن اعداء علي سبك (الدعاية) ووسيلة الترغيب ضد علي حتى آمن بأقوالهم الكثير، وإن الكثير من الناس سوقة جهلاء لا يكلف تغيير رأيهم وتضليلهم شيئا من المجهود للذين يعرفون طرق الدعاوة واساليبها والذين يوصفون بمعرفة (من اين تؤكل الكتف)، وإن الذي يتعمق في التاريخ الإسلامي يرى ان حظ القادة من أعداء علي في فهم الدعاوة ووسائل الترغيب وطرقها، وضمان فعلها في النفوس كان كبيرا وكبيرا جدا خصوصاً وأن عدد السذج من الشعب، والشعب الذي لم يختلط بالمدن ولم يعرف شيئاً من الحضارة لم يكن في جميع الظروف والأحوال قليلاً، ففعلت هذه (الدعاية) وعملية الترغيب في مثل تلك النفوس التي يسودها الجهل فعلها العجيب.

ويسوق المسعودي شاهدا على غباوة طائفة من أولئك السذج الذين استغلتهم (الدعاية) الأموية فيقول:

---

١ ـ طرائف المقال، السيد علي البروجردي: ١٤١/٢.

(بلغ في إحكامه (أي من احكام معاوية) للسياسة، واتقانه لها، واجتذابه قلوب خواصه وعوامه، وأن رجلاً من اهل الكوفة دخل على بعير له الى دمشق في حال منصرفهم عن (صفين) فتعلق به رجل من (دمشق) فقال: هذه ناقتي أخذت مني (بصفين) فارتفع أمرهما الى معاوية، وأقام الدمشقي خمسين رجلاً بينة يشهدون أنها ناقته، فقضى معاوية على الكوفي وأمره بتسليم البعير إليه! فقال الكوفي:

- اصلحك الله أنه جمل وليس بناقة.

فقال معاوية ـ هذا حكم قد مضى.

ودس إلى الكوفي بعد تفرقهم فاحضره، وسأله عن ثمن بعيره، ودفع اليه ضعفه، وبره، وأحسن إليه وقال له:

ـ أبلغ علياً: إني أقابله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل)[1].

وإذا كانت هذه القصة مما تستوجب المناقشة في صحتها فليس هنالك من شك أنها وليدة ظروف وبيئة ونهج اختص به معاوية وأعداء علي والكثير من الناس بحيث جاز ان يوضع مثل هذه القصص على السنتهم.

وقد استطاع اعداء علي وأولاده، وهم (أي الأعداء) مصدر القوة والسلطة وبيدهم القدرة على التعبئة العامة لجميع وسائل الدعاوة أن يثيروا في نفوس الرعية ـ ومعظمهم من السذج والجهلة ـ السخط العام على علي وأولاده، وأن السخط العام هو غير الرأي العام كما يحدده علماء الاجتماع.

يقول الدكتور عبد اللطيف حمزة: (هنا ينبغي للباحث ان يفرق تفرقة واضحة بين طبقتين ـ على الأقل ـ من طبقات المجتمع:

---

١ ـ مروج الذهب، ٢/٧٢ ط البهية المصرية.

طبقة المستنيرين أو المثقفين الذين يستطيعون أن يدرسوا الأمور، وطبقة السوقة أو الدهماء أو المنقادين الذين ينقادون انقيادا اعمى لرأي من الآراء، أو فكرة من الأفكار، لأنهم عاجزون تماما عن مناقشتها لمعرفة مقدار الخطأ أو الصواب فيها)[1].

(٤)

وعلى هذا فلم يكن السخط العام بأي وجه من الوجوه معبراً عن الرأي العام المستنير، وقد حدثنا التاريخ عن ان جماعة (علي) في عصره وفي العصور الأخيرة كانوا في الطليعة من حيث السيرة، والطيبة، والفهم، والعلم، والأدب، والإيمان بالحق، وليس فيهم من يجوز اتصافه بالغوغائية فقلد كان عدد من شهد (بدراً) مع رسول الله ﷺ ٣١٣ من المهاجرين والأنصار، وقد اشترك من هؤلاء الى جانب علي في حرب صفين كل من بقي حيا وكان عددهم ١٧٨ بدريا، وقد استشهد منهم ٦٣ نفراً، كما اشترك مع علي في معركة صفين ٨٠٠ رجل ممن بايع النبي ﷺ بيعة (الرضوان) تحت الشجرة[2] ومن بقي حيا حتى ذلك اليوم.

وكل هؤلاء من الطبقة المؤمنة، ومن أئمة الإسلام، وأعلام الهدى، وهم الذين يؤلفون الرأي العام المنطقي الواقعي الذي يمثل جانب الخير والحق والصلاح لو ترك الأمر لشأنه ولم يستعمل اعداء علي الأساليب الشيطانية ويثيروا الغوغائية، ويحاولوا استخدام وسائل الترغيب لاجتثاث اسم علي وأولاده من الجذور، كيف لا ومن اصحاب علي وانصاره في عصره امثال ابي

---

١ . المدخل في فن التحرير الصحفي: ٢٤٠ ط٣.

٢ . المصدر نفسه: ٣٤٨.

ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، وعمار بن ياسر، والمقداد، وحذيفة بن اليمان، وخزيمة بن ثابت الأنصاري، وجابر الأنصاري، وهاشم المرقال، ومحمد بن ابي بكر، ومالك الأشتر، وعبد الله بن مسعود، والحارث ابن النعمان، ومئات غيرهم.

أما الذين شاركوا معاوية في حرب علي (فكلهم من مسلمي الفتح الذين اسلموا مقهورين، والطلقاء والمؤلفة قلوبهم، وعلى رأسهم عمرو بن العاص، وابو العلاء الأعور السلمي، وبسر بن ارطأة، ومسلم بن عقبة وغيرهم)[1] ممن صال بهم معاوية في الفتك والترهيب واثارة السخط العام والغوغائية.

وإن الوعي والإدراك في البلدان والشعوب إنما يقاس بالرأي العام الخاضع للمناقشة والمنطق، ولايقاس مطلقا بالغوغائية والسخط العام (وذلك لسبب واحد فقط، وهو ان الناس في حالة (الرأي العام) يتمتع كل منهم بمفرديته، ويستطيع ان يظهر شخصيته، وأن يظفر بالحرية الكافية لشرح وجهة نظره التي يقتنع بها ويريد أن يقنع غيره بما فيها صواب، ولكن الناس في حالة (السخط العام) تنعدم فرديتهم وذاتيتهم أو تكاد، ففي الزحام والتجمع تنمحي هذه الصفات ويفكر الناس بالصور والخيالات ويكون المجال واسعا أمام الزعماء والقادة ـ من غير العقلاء ـ وهم المعروفون عند الأوربيين باسم (الديماجوج) ممن يثيرون الجماعات، ويستغلون سذاجتها، وانعدام الفردية أو الذاتية بين افرادها).

أن الشعب في حالة (السخط العام) يكون اشبه شيء بالنظارة في المسرح يتأثرون بالمسرحية وتحت مشاهدتهم لها، فلا يستطيعون الجمع وقتئذ بين

---

١ . المدخل في فن التحرير الصحفي: ٣٩٣

المشاهدة والنقد، ولا يستطيعون التمييز بين شتى المواقف المسرحية المعروضة عليهم في ذلك الوقت)[١].

وهذا ما حدث فعلا في وقعة كربلاء حين أغار القوم على الحسين وأصحابه ولم يكتفوا بل حزوا رؤوسهم ، وداسوا بسنابك الخيول صدورهم، وأحرقوا مخيم حريمهم، وردعوا أطفالهم ونساءهم، وساروا بأهليهم سبابا وأمامهم رؤوس قتلاهم مرفوعة فوق الرماح يطوفون بهم المدن دون ان يكون هنالك ذنب او أي شيء يستوجب بعض هذا..

(٥)

ويظهر ان استغلال السذج من الناس لتوليد السخط العام والغوغائية من قبل اعداء علي وأعداء أولاده في جميع الأدوار قد جرى بشكل غاية في الاتقان بناء على الجهل المتفشي بين الشعوب، فقد كانت الأغلبية من السذاجة وعدم الإدراك ما سهل توجيهها نحو الغاية المنشودة : وهي كره علي وأولاده أو تناسيه وتناسي فضائله على الأقل.

فقد روي أنه بلغ من امر طاعة أهل الشام لمعاوية : أنه صلى بهم عند مسيرهم إلى صفين صلاة (الجمعة) في يوم الأربعاء[٢] ..!! وأنهم ادركوا إلى قول عمرو بن العاص أن عليا هو الذي قتل عمار بن ياسر الذي كان يقول فيه النبي (عمار جلدة ما بين عيني)[٣] ويقول فيه : (من عادى عمارا عاداه الله

---

١ . المدخل في فن التحرير الصحفي : ٢٦ ط٣.

٢ . مستدرك سفين البحار ، الشيخ علي النمازي : ٣٥٧/٣.

٣ . المسترشد ، محمد بن جرير الطبري : ٦٥٨.

ومن ابغض عمارا ابغضه الله)[١] فلو لم يخرجه علي من حرب صفين ـ على ما يقول عمرو بن العاص ـ لما قتل عمار، لذلك كانت اللعنة المفروضة على قاتلي (عمار) إنما تعني عليا بصفته المسبب للقتل، ولا تعني القاتل الحقيقي وهو معاوية أو جنود معاوية.

ويقول المسعودي:

(ثم ارتقى بهم الأمر في طاعته ـ أي في طاعة معاوية ـ إلى أن جعلوا لعن علي سنّة ينشأ عليها الصغار، ويهلك عليها الكبار).

ثم اضاف قائلاً: (وذكر بعض الإخباريين أنه قال لرجل من أهل الشام من زعمائهم، وأهل الرأي والعقل منهم:

من (ابو تراب) هذا الذي يعلنه الإمام على المنبر؟

قال: أراه لصا من لصوص الفتن!!)[٢].

وكان عبد الله بن علي حين خرج في طلب مروان الى الشام وقتله لمروان وجه الى ابي العباس السفاح اشياخا من اهل الشام من ارباب النعم والرياسة فحلفوا لأبي العباس السفاح انهم ما علموا لرسول الله ﷺ قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بني أمية!.

وكان المدركون من أعداء علي يعرفون لعلي فضله وشأنه ولذاك يسعون بك ما أوتوا من قوة لطمس هذا الفضل ومحوه من الوجود.

يقول عمر بن عبد العزيز: (وكان أبي إذا خطب فنال من علي ـ رضي الله عنه ـ تلجلج.

---

١ ـ الغدير، الأميني: ١/٣٣١.

٢ ـ مروج الذهب: ٢/٧٢

فقلت: يا أبه: أنك تمضي في خطبتك فإذا أتيت على ذكر علي عرفت منك تقصيراً.

قال: أوفطنت لذلك؟

قلت: نعم!

فقال: يا بني ان الذين حولنا لو يعلمون من علي ما نعلم تفرقوا عنا الى أولاده)[1].

(٦)

وتفنن أعداء علي في أساليب (الترغيب) والدعاية، وخلق الأكاذيب، والتلفيق والطعن في على طعنا كان من الصعب على أحد أن يعتقد أو يتصور ان يكون بالإمكان بعث اسم (علي) من جديد في تاريخ الإسلام بعد تلك الحملات والأباطيل التي الصقوها بالإمام علي، كما تفننوا في وضع القواعد الرصينة الثابتة، والخطط التي تقضي على ذكر علي وذكر محامده ومزاياه، فتم لهم أن يقولوا عنه ما لم يقل حتى في الأشرار المجرمين، فقد جاء عن أبي جعفر: (أن معاوية وضع قوماً من الصحابة، وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي ﷺ تقتضي الطعن فيه، والبراءة منه، وجعل لهم على ذلك جعلاً يرغب في مثله، فاختلقوا ما أرضاه، منهم ابو هريرة، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، ومن التابعين عروة بن الزبير).

---

١ . الكامل في التاريخ: ٤٢/٥ مطبعة صادر ودار بيروت، شرح نهج البلاغة: ٣٥٧/١.

وروى الزهري: ان عروة بن الزبير حدثه قال: حدثتني عائشة قالت: كنت عند رسول الله إذ أقبل العباس وعلي فقال يا عائشة (إن هذين - يشير الى العباس وعلي - يموتان على غير ملتي، أو قال على (غير) ديني!!)[١].

وروي ان معاوية بذل لسمرة بن جندب مائة ألف درهم حتى يروي ان الآية (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ❖ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ)(البقرة: ٢٠٤-٢٠٥)قد انزلت في علي عليه السلام.

وإن الآية الكريمة: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ)(البقرة:٢٠٧) قد نزلت في عبد الرحمن بن ملجم!! فلم يقبل سمرة بذلك، فبذل له مائتي ألف درهم فلم يقبل، فبذل له اربعمائة ألف درهم فقبل[٢].

قال محفوظ: قلت ليحيى بن صالح الوحاظي[٣]: قد رويت عن مشايخ من نظراء حريز فما بالك لم تحمل عن حريز؟

قال: أني اتيته فناولني كتابا فإذا فيه: (حدثني فلان عن فلان: ان النبي صلى الله عليه وآله لما حضرته الوفاة اوصى ان تقطع يد علي بن ابي طالب عليه السلام)[٤].

---

١. شرح نهج البلاغة: ١/٣٥٨.

٢. المصدر نفسه.

٣. يحيى بن صالح الوحاضي الحمصي من شيوخ البخاري وثقه يحيى بن معين وأبو اليمان وابن عدي ونمه أحمد لأنه نسبه إلى شئ من رأى جهم وقال إسحاق بن منصور كان مرجئا وقال الساجي هو من أهل الصدق والأمانة وقال أبو حاتم صدوق وقال أحمد بن صالح حدثنا بأحاديث عن مالك ما وجدناها عند غيره وقال الخليلي روى عن مالك عن الزهري عن سالم عن أبيه في المشي أمام الجنازة ولم يتابع عليه وإنما هذا حديث سفيان ويقال إن سفيان أخطأ فيه. (مقدمة فتح الباري، ابن حجر: ٤٥٢)

٤. المصدر نفسه: ١/٢٦٠.

(٧)

وكما وضعوا الروايات والأخبار والأحاديث في ذم علي وفسروا الآيات القرآنية كما شاؤوا فأنهم شجعوا الشعراء على هجاء علي وأولاده، ولا يبعد أن يؤلف هذا الشعر عدة دواوين لو لم يتحاش تسجيله المؤرخين، ولم يصلنا منه إلا بعض الشواهد ومن هذه الشواهد قصيدة كعب بن جعيل، التي يقول فيها:

وقالوا[1] علي إمام لنا ... قلنا رضينا ابن هند رضينا

وقالوا نرى ان تدينوا له ... فقلنا ألا لا نرى أن ندينا

ومن دون ذلك خرط القتاد ... وضرب وطعن يقر العيونا

وقال ابو العباس المبرد: (وفي آخر هذا الشعر ذم لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه أمسكنا عن ذكره)[2].

وكان المتوكل شديد الانحراف والكره لعلي وأولاده حتى قام بحرث قبر الحسين وغمره بالماء ليطمس آثاره، وليضيع معالمه، وقد جرأت عداوته لعلي واولاده طائفة ومنهم الشاعر علي بن الجهم أن يذكروا عليا عنده بالسوء والاستهزاء وإن ينالوا من علي بن ابي طالب بما وسعهم.

وما أصدق البيتين اللذين قالهما علي بن الجهم في مروان بن حفصة على علي بن الجهم نفسه لو أراد العلويون ان يقولوهما في ابن الجهم فقد قال ابن الجهم في مروان:

---

١. ويقصد الشاعر بقوله: (وقالوا) أهل العراق.

٢. الكامل، المبرد: ١/٢٢٣.

بـــلاء لـــيس يعدلـــه بـــلاء عـداوة غـير ذي حـسب وديـن
يبيحـك منـه عرضـا لم يـصنه ويرتـع منـك في عـرض مـصون

والترغيب والطمع في المثوبة وحسن الجزاء والصلات هي التي كانت تدفع بالشعراء وواضعي الأخبار، وملفقي الأحاديث إلى أن يتخذوا من سب علي وسيلة ارتزاق وبلوغ جاه إذا لم تكن (الدعاية) فقد فعلت فعلها في نفوسهم فكرهوا عليا عن جهل وعدم ادراك، ثم تحول هذا الكره الى ايمان بعد ذلك.

قال الحجاج يوما: من كان له بلاء فليقم فنعطيه على بلائه، فقام رجل فقال:

اعطني على بلائي.

قال: وما بلاؤك؟

قال: قتلت الحسين.

قال: فكيف قتلته؟

قال: دسرته بالرمح دسراً، وهبرته بالسيف هبراً، وما اشركت معي في قتله أحداً.!!

قال فإنك لا تجتمع أنت وهو في مكان واحد، وقال: اخرج، ولم يعطه شيئاً[1].

وقال الحجاج يوما لعبد الله بن هانئ، وهو رجل من بني أودحي من قحطان وكان شريفا في قومه، وقد شهد مع الحجاج مشاهده كلها، وكان من

١. الكامل في التاريخ: ٤/٥٨٥.

أنصاره وشيعته، وقد أراد الحجاج أن يجزيه على ما قدم له، وأن يحسن الى صنيعه فقال له:

والله ما كلفتك بعد.

ثم أكره الحجاج اسماء بن خارجه (سيد بني فزارة)، وسعيد بن القيس الهمداني (رئيس اليمانية) وحملهما قسراً على تزويج ابنتيهما لابن هانئ مهدداً إياهما بالقتل بعد أن رأى منهما امتناعا، وقال الحجاج لابن هانئ:

انظر .. لقد زوجتك بنت سيد فزارة، وبنت سيد همدان، وعظيم كهلان.

فقال ابن هانئ: لا تقل ـ اصلح الله الأمير ـ ذاك فإن لنا مناقب ليست لأحد من العرب.

قال الحجاج: وما هي؟

قال: ما سبّ امير المؤمنين عبد الملك في ناد لنا قط.

قال: منقبة والله..

قال: وشهد معنا صفين مع أمير المؤمنين معاوية سبعون رجلاً، ما شهد منا مع أبي تراب إلا رجل واحد، وكان ـ ذلك الرجل ـ والله (على) ما علمته: امرأ سوء.

قال الحجاج: منقبة والله.

قال: ومنا نسوة نذرن إنْ قتل الحسين بن علي: ان تنحر كل واحدة عشرة قلائص ففعلن..

قال: منقبة والله.

قال: وما منا رجل عرض عليه شتم ابي تراب ولعنه إلا فعل وزاد ابنيه حسنا وحسينا، وأمهما فاطمة!!

قال الحجاج : منقبة والله[١].

فإلى أي مدى هذه الدعاية، واستمالة الناس بالمال والعطاء والمناصب والإكراه والإشراف على تزويج بناتهم لمن هم دونهم شرفا ومحتداً، خروجاً على سنن العرب وتقاليدهم حتى يحملوا الشخص على ان يباهي في كره رجل إذا لم يعرف فضله ومقامه فليس له منه ما يستوجب ان يحمل له ولأولاده مثل هذا الكره، وهذه العداوة.

ويكثر طلاب الجوائز والعطاء بسبب ما يحملون لعلي وأولاده من العداء وكم بين هؤلاء من لا يجهل قدر علي وأولاده ومكانتهم في الدنيا والآخرة، ولكنه يعاديهم طمعاً بصلات اعدائهم وتوقعاً لما يغدقه الأعداء عليه من الهبات والعطايا، ومن هؤلاء قاتل الحسين بن علي بن ابي طالب، فقد دخل على يزيد بن معاوية بالسبايا من آل الحسين وهو يخاطب يزيد قائلاً :

أوقر ركابي فضه أو ذهبا فقد قتلت الملك المحجبا

قتلت خير الناس أما وأبا وخيرهم - إذ ينسبون - نسبا[٢]

وحين قدم أبو هريرة العراق مع معاوية عام الجماعة، جاء الى مسجد الكوفة، لما رأى كثرة من استقبله من الناس جثا على ركبتيه، ثم ضرب صلعته مرارا وقال :

يا هل العراق، اتزعمون أني أكذب على الله وعلى رسوله؟ واحرق نفسي بالنار، والله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ان لكل نبي حرما وأن

---

١ . ابن ابي الحديد: ١/٣٥٧.

٢ . العقد الفريد: ٤/٣٨١، مروج الذهب: ٢/٦٥ والشريشي: ١/١٩٣(اعلام الزركلي).

حرمي بالمدينة ما بين عير أو ثور (يعني به الجبل) فمن أحدث فيها حدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وأشهد ان عليا احدث فيها).

فلما بلغ معاوية قوله أجازه، وأكرمه وولاه امارة المدينة[1].

وبلغ الأمر بالناس انهم لم يعودوا يصدقون ان بإمكان أعداء علي وأعداء أولاده الصالحين أن ينسوا أو يتناسوا على الأقل بغضهم لعلي وأولاده وإذا اتفق شيء من هذا حتى مع الصالحين تلقوه بالاستغراب والدهشة، فحين منع عمر بن عبد العزيز سب علي استمرت بعض المدن في السب خوفا من أن يكون خبر هذا المنع غير صحيح، وحين كتب عمر بن عبد العزيز الى عامله بالمدينة يأمره بأن يقسم في ولد علي بن ابي طالب عشرة آلاف دينار تلكأ هذا العامل كما لو كان يسمع أمراً يستحيل صدوره، وإن عليه أن يتحقق من صدوره قبل تنفيذه فكتب الى عمر بن عبد العزيز يقول:

(ان عليا قد ولد له في عدة قبائل من قريش ففي أي ولده يقسم هذا المبلغ؟).

فكتب إليه عمر بن عبد العزيز:

(لو كتبت اليك في شاة تذبحها لكتبت الى: سوداء أم بيضاء؟)[2].

(٨)

واسطورة (عبد الله بن سبأ) هذه الشخصية الوهمية التي لا وجود لها بالمرة والتي نسجها سيف بن عمر التميمي المتوفي في عصر هارون الرشيد بعد سنة ١٧٠هـ هي أحد أساليب (الدعاية) ضد علي وشيعته، والتي خفيت

---

١. ابن ابي الحديد: ٣٥٩/١.

٢. مروج الذهب: ١٦٨/٢.

غايتها غير الشريفة على كثير من المؤرخين فتصوروها ـ دون ان يناقشوها ويبحثوا عنها ـ حقيقة غير قابلة للتنفيذ، فقد روي عن سيف بن عمر بما وضع هو من الأسانيد أن (عبد الله بن سبأ) يهودي اسلم في عهد خلافة عثمان، وراح يدس الأخبار الاسرائيلية، والروايات وبما روي عنه من الأكاذيب مما يخالف جوهر الإسلام وحقيقته، فصدق بها شيعة علي وأخذوا بمبادئها وفاتهم اكتشاف هذا الدنس المقصود من عبد الله بن سبأ في الإسلام.

ويبدو ان هذه الاسطورة التي وضعها سيف بن عمر بأسانيده الملفقة لم تجد لها مؤيداً في وقتها حتى جاء الطبري بعدها بقرب من قرن ونصف قرن من وفاة سيف بن عمر فنقلها لأول مرة في كتابه فبدأت من هنا كما لو كانت قصة حقيقية لشخص حقيقي، وحال طول الزمن بين الناس أن يفهموا ان قصة عبد الله بن سبا هي وسيلة من وسائل التشنيع ضد علي وأولاده وشيعته وان سيف بن عمر قد خلقها متعمدا بداع من دواعي التشهير والدعاية، ووجد فيها البعض تحقيقا لرغبته بعد ان نقل ابن جرير الطبري لها فأتخذ منها حجة تنديد، والبسها لباس البراهين واطلق عليها اسم (اسرائيليات) والصقها باتباع علي وشيعته، ولم يحصل من يسأل:

لقد كان من وجود (عبد الله بن سبأ) ـ إذا صح وجوده ـ وبين وجود سيف بن عمر التميمي الذي خلق هذه الشخصية الوهمية نحو قرن ونصف قرن على وجه التقريب، وقد عاش في هذه الحقبة كثير من الرواة والمؤرخين، فلماذا لم يروِ هذه الروية أحد قبل سيف بن عمر ويؤيد وجود عبد الله بن سبأ؟

وقد كانت المسافة بين وجود سيف بن عمر وابن جرير الطبري نحو قرن ونصف القرن، فلماذا لم ينقل رواية (ابن سبأ) الرواون والمحدثون قبل الطبري؟

ولم يسال احد لماذا انصب ما انصب من هذه المختلقات والأكاذيب التي سميت بالاسرائيليات على علي وشيعته، ولماذا نقلت على لسانه ونسبت اليه روايات هي في الظاهر مما ترفع قيمة علي - لاسيما عند السذج من الناس والبعيدين عن الفقه والتفقه والشريعة وفلسفتها - وهي في الباطن تحط من قدره، وتثير الأحقاد عليه، وتطمس حقيقة علمه، وتلبسه اثوابا من الأوهام لكي تحول بين العيون ورؤية الحقيقة حتى إذا ما بدد العلم غشاوة هذه الأوهام لم يبق في شخصية علي لمن ير منها إلا تلك الغشاوة ما يسر ويبهج فيكون مجال الطعن في عظمته وفي أيمان شيعته به من لدن خصومه واسعاً ويسيراً[1].

وإذا ما توسعنا في حقيقة سيف بن عمر الأسدي التميمي سهل علينا ما نقرأ في كتبه ان نتعرف بطبيعته وأن نتوصل الى ان ميوله الى بني أمية قد حملته غير مرة على ان يتفق الأخبار ويختلقها اختلاقا كضرب من ضروب (الدعاية) للأمويين عن طريق الأخبار الدينية والأحاديث والحوادث.

وأمثال سيف بن عمر كثيرون سواء في العصور الإسلامية المتقدمة أو العصور الأخيرة ممن كانوا يضعون الأخبار، ويختلقون الروايات ويكذبون على الله ورسوله والأولياء والتاريخ بقصد الحط من كرامة علي وأولاده، ومن بين هؤلاء كان عدد غير قليل من أئمة العلم والأدب والتاريخ..!!

---

١ ـ اقرأ تفنيدا تاريخيا مهما لهذه الاسطورة الملفقة: اسطورة (ابن سبا) انفرد بتحقيقها العالم الجليل السيد مرتضى العسكري في كتابه (عبد الله بن سبأ).

فهذا ابو حيان التوحيدي أحد علماء اللغة وأعلام الأدب في القرن الرابع الهجري لم يحل بينه وبين بغضه لعلي ما هو عليه من أدب وعلم، ولم يحل مرور أكثر من ثلاثة قرون ونصف قرن بينه وبين وفاة علي من ان يطلع علينا بتلك المراسلات المخزية التي اختلقها، ووضعها على لسان الخليفة ابي بكر، وعمر بن الخطاب، وعلي بن ابي طالب، تلك المراسلات المفعمة بالزراية بعلي، والتحقير لشأنه، وقد اثبتها عدد من المؤرخين كنماذج لمقدرة ابي حيان الفنية في اختلاق الأكاذيب الأدبية ووضعها بذلك القالب البديع.

ولقد فندها المؤرخون وكذبوها منذ أول يوم انتشارها على لسان ابي حيان التوحيدي[1] بل ان ابا حيان نفسه قد اعترف باختلاقه لهذه الكذبة، وافتراءه على الخلفاء بوضعه لها حين آخذه البعض على وضع مثل هذه المراسلة، فقال أنه قد اضطر الى ذلك نكاية بأحد محبي علي وشيعته، وكان هذا يحضر المجلس الذي اعتاد ابو حيان ارتياده فلا يجئ ذكر علي في هذا المجلس حتى يبالغ هذا المتشيع لعلي بمزايا علي ويبدأ بالرواية عنه والتحدث بأفضاله.

ويقول ابو حيان بما معناه: واني اردت ان ارغم انف هذا الرجل فوضعت هذه المراسلة ليكف عن التبجح بذكر علي وافضاله ..[2].

وان مرور القرون الطويلة على وفاة علي كان كافيا لينسى العدو عداوته والحقود حقده، والموتور وتره، ولكن الذين عادوا عليا - على ما يبان - لم يستطع مرور الزمن، ولم تستطع الثقافة والعلم ان تغير ما بأنفسهم.

❖ ❖ ❖

١ . شرح ابن ابي الحديد: ٢/٥٩٣ - ٥٩٧.

٢ . لسان الميزان لابن حجر العسقلاني، في باب الكنى.

إن مثل هذه الوسائل والأساليب من الدعاوة والترغيب وهي بيد أعداء اقوياء واذكياء وأشداء وقد أوتوا من القدرة ما أوتوا، إذا لم تستطع أن تجتث اسم الشخص من الوجود فإنها لتستطيع ان تجعله خبرا من الأخبار، ولكنَّ عظمة علي كانت كالشمس، هكذا وجدت، وهكذا ستبقى، إذا حجبها الضباب أو السحاب أو الغبار مرة فإنها لا بد طالعة، ولن تطيق الحوال ـ وإن عظمت ـ ان تجبها نهائيا عن العيون، والأفكار، والعقول.

على ان الترغيب بمجموع وسائله، والدعاية بمختلف اساليبها لم تكن وحدها السلاح الذي شهر في وجه علي وأولاده واشياعهم واتباعهم، وإنما نال عليا واولاده الصالحين من سلاح (الترهيب) أكثر مما نالهم من سلاح (الترغيب)، ولكن عظمة علي التي لا تجاريها عظمة في التاريخ بعد عظمة النبي صلى الله عليه وآله قد تحدث اساليب الترهيب، كما تحدث أساليب الترغيب بمعجزة لم يروا لنا التاريخ نظيراً لها.

(٩)

الترهيب

يقول المسعودي: وفي سنة ثلاث وخمسين قتل معاوية بن ابي سفيان حجر بن عدي الكندي، وهو أول من قتل صبرا في الإسلام، وكان حجر هذا من الموالين لعلي ابن أبي طالب والمنكرين سبه على المنابر، فحمله زياد من الكوفة ومعه تسعة نفر من اصحابه من أهل الكوفة، وأربعة من غيرها، فأرسل لها معاوية برجل تلقاهم في الطريق فقال لحجر.

(إن أمير المؤمنين ـ يعني معاوية ـ امرني بقتلك يا رأس الضلال، ومعدن الكفر والطغيان والمتولي لأبي تراب، وبقتل اصحابك إلا أن ترجعوا عن كفركم، وتلعنوا صاحبكم، وتتبروا منه)[١].

ففعل البعض وتبرأ خوفا، أما حجر وجماعته ممن كان معه فلم يفعلوا، وقال حجر: (ان الصبر على حد السيف لأيسر علينا مما تدعونا إليه، ثم القدوم على الله وعلى نبيه، وعلى وصيه، أحب إلينا من دخول النار)[٢].

ثم نحر حجر بن عدي كما تنحر النعاج، والحق به من وافقه على قوله من اصحابه ..!! فمن ذا الذي يرى أو يسمع بمثل هذا المشهد ولا يرتهب ولا يتخوف من بطش أعداء علي وأولاده؟

ولقد كان من بعض فظائع الترهيب والتنكيل ان ارسل معاوية بن ابي سفيان بسر ابن ارطأة ـ وهو رجل تجاوز حدود القساوة، وانعدام الشفقة والمروءة ـ إلى الحجاز والى اليمن ليستأصل جذور جميع الموالين لعلي بن ابي طالب، وامره بالفتك فيهم دون رحمة أو شفقة، وقد جاء في شرح النهج عن ذلك ما يلي:

(إن معاوية قد بعث بسر بن ارطأة الى اليمن في جيش كثيف، وأمره ان يقتل كل من كان في طاعة علي ﷺ، فقتل خلقاً كثيراً، وقتل فيمن قتل ابني عبد الله بن العباس بن عبد المطلب)[٣].

---

١ . الأنوار العلوية، جعفر النقدي: ٤٦٨.

٢ . الأنوار العلوية، جعفر النقدي: ٤٦٨.

٣ . شرح النهج: ١١٣ ط دار الكتب العربية.

والمعروف في التاريخ ان ابني عبد الله بن العباس كانا صبيين وقد قتلهما بسر لمحض قرابتهما لعلي بن ابي طالب، فكيف ترى يستطيع أحد أن يجهر بحبه لعلي بعد هذا، وهو يرى أو يسمع بمثل هذا القتل العام الذي يصفه التاريخ (بالخلق الكثير) ثم يرى أو يسمع بصبيين بريئين يقتلان صبراً لا لذنب إلا لأنهما قريبان لعلي بن ابي طالب!؟.

يقول جورج جرداق: وكان شعار معاوية: (أن لله جنودا من عسل)[1]، وهو يعني العسل الذي يداف بالسم فيقضي به على اخصامه.

وبهذا العسل قتل معاوية الحسن بن علي، وبالأموال العامة اشترى الناس، واصطنع الأنصار والمحاربين، فإذا تأفف الناس من يزيد، وأبوا ان يبايعوه (مثلاً) قال لهم متوعدا:

(اعذر من انذر، أني كنت أخطب فيكم فيقوم الى القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس، فأقسم بالله لئن رد عليّ أحدكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع اليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه، فلا يبقين رجل إلا على نفسه)[2].

(١٠)

من ذا الذي يجرأ بعد هذا أن يقول شيئاً ومثل هذا التهديد يصك أذنيه؟ ثم من ذا الذي يستطيع أن يرفع صوته وهو يرى او يسمع منادي بني أمية ينادي بالخروج إلى قتال الحسين في عرصة كربلاء ولا يخرج؟ وأي ترهيب يرهب به أعداء وأعداء أولاده الناس أكثر مما أنزلوا بالحسين وأولاده وأنصاره وعيالاته

---

١ ـ شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد: ١٦٠/٧.

٢ ـ الإمام علي، جورج جرداق: ٢١٥.

من التقتيل والمثلة بالقتلى على ذلك النحو من القساوة والفظاعة التي لم يرو لها التاريخ مثيلاً في جميع أدواره؟

فلقد وقف الحسين يخطب جيش يزيد بن معاوية قبيل المعركة قائلاً:

(.. أما بعد فانسبوني، وانظروا من أنا؟ ثم راجعوا أنفسكم فعاتبوها، فانظروا هل يصلح ويحل لكم قتلي. وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيكم وابن وصيه، وابن عمه؟ أو ليس جعفر الشهيد الطيار في الجنة عمي؟ أو لم يبلغكم قول مستفيض: ان رسول الله ﷺ قال لي ولأخي: (أنتما سيدا شباب اهل الجنة، وقرة عين أهل السنة) فإن صدقتموني بما أقول ـ وما أقول هو الحق ـ والله ما تعمدت كذبا مذ علمت ان الله يمقت عليه، وان كذبتموني فإن فيكم من ان سألتموه عن ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبد الله، أو ابا سعيد الخدري، أو سهل بن سعد أو زيد بن ارقم، يخبروكم أنهم سمعوه من رسول الله ﷺ، أما في هذا حاجز يحجزكم عن سفك دمي)[1].

ثم واصل الحسين خطبته حتى قال:

(.. اخبروني، اتطلبونني بقتيل منكم قتلته؟ أو بمال لكم استهلكته؟ أو بقصاص من جراحه؟)[2].

فكان جواب القوم على تلك الخطبة: ذلك الهجوم الذي سودوا به وجه التاريخ، والذي حملهم على ان يضعوا سيوفهم في رقبة الحسين ورقاب أولاده وأنصاره، وما انجلى نهار ذلك اليوم حتى تساقطت اثنتان وسبعون جثة احتزوا رؤوسها، ومثلوا بها، وداست خيولهم صدورها، وصاح بهم صالحهم:

---

١. الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ٦٢/٤.

٢. بحار الأنوار، المجلسي: ٧/٤٥.

(احرقوا بيوت الظالمين) فإذا بالنيران تلتهم مخيم الحسين ومخيم انصاره، فتفر النساء والأطفال مذعورين لا يعرفون إلى من يلتجئون، وبمن يحتمون وتساق عيالات الحسين سبايا، ويطوفون بها المدن والدساكر، ورأس الحسين ورؤوس أولاده وأصحابه مرفوعة فوق الرماح وبمشهد من السبايا من آل بيت رسول الله ﷺ!!

وحين وضعوا رأس الحسين أمام يزيد بن معاوية في الشام، وضعوه في طشت فجعل يزيد ينكثه على ثناياه بالقضيب وهو يقول:

نفلق هاما من رجال أعزة علينا وهم كانوا اعق وأظلما

من ذا الذي يرى هذه المشاهد أو يسمع بمثل هذا التقتيل والتنكيل والتفظيع بآل علي ولا يأخذ منه الخوف والهلع مأخذه؟ ثم كيف يستطيع اسم علي بن ابي طالب ان يظل لا معاً وهذا بعض ما حورب به وحورب به أولاده من تلك الأسلحة الفتاكة لو لم يكن علي فذاً، ولو لم يكن نسيج وحده بين رجال الدنيا؟

هذا مسلم بن عقبة أحد صنائع يزيد بن معاوية وهو مخلوق مسمم الطبيعة، في مسلاخ إنسان ـ على حد تعبير العقاد ـ وقد بلغ الغاية في التنكيل بأنصار علي وأنصار ابي عبد الله الحسين، وكان على ما وصف المؤرخون: (أعور، أمغر، ثائر الرأس، كأنما يقلع رجليه من وحل إذا مشى).

وقد بلغ من ضراوته بالشر وهو شيخ، فانٍ، مريض: أنه أباح المدينة في حرم النبي ﷺ: (أباحها ثلاثة أيام، واستعرض أهلها بالسيف جزراً كما يجزر القصاب الغنم، حتى ساخت الأقدام من الدم..!! وقتل ابناء المهاجرين،

والأنصار، وذرية أهل بدر، وأخذ البيعة ليزيد بن معاوية على كل من استبقاه من الصحابة والتابعين على أنه عبد قن لأمير المؤمنين..!!)[١].

وانطلق جنده في المدينة الى جوار قبر النبي يأخذون الأموال ويفسقون بالنساء ..!! حتى بلغ القتلى في تقدير (الزهري) سبعمائة من وجوه الناس وعشرة آلاف من الموالي!.

ثم كتب إلى يزيد يصف له ما فعل وصف البطل الظافر المتهلل بعد كلام طويل يقول:

(.. فأدخلنا الخيل عليهم .. فما صليت الظهر ـ أصلح الله أمير المؤمنين ـ إلا في مسجدهم: بعد القتل الذريع، والانتهاب العظيم (كذا) وأوقعنا بهم السيوف، وقتلنا من اشرف لنا منهم، واتبعنا مدبرهم!! واجهزنا على جريحهم (كذا) وانتهبناها ثلاثا كما قال أمير المؤمنين ـ أعز الله نصره ـ وجعلت دور بني الشهيد عثمان بن عفان في حرز وأمان، والحمد لله الذي شفا صدري من قتل أهل الخلاف القديم، والنفاق العظيم، فطالما عتوا، وقديما ما طغوا.

اكتب هذا الى أمير المؤمنين وأنا في منزل سعيد بن العاص مدنفا مريضاً ما أراني إلا لمآبي، فما كنت أبالي متى مت بعد يومي هذا!!؟؟[٢].

(١١)

ويقول العقاد في تعليل هذا الحقد:

---

١. شرح نهج البلاغة: ٢٥٩/٣..

٢. الإرشاد: ٢٢٧، مروج الذهب: ٦٥/٢، أبو الشهداء: ٩٠.

(وكل هذا الحقد المتأجج في هذه الطوية العفنة إنما هو الحقد في طبائع المسخاء الشائهين .. يوهم نفسه انه الحقد من ثأر عثمان أو من خروج قوم على ملك يزيد).

وكان هذا الحقد منصبا على علي بن ابي طالب وأولاده وانصاره، وقد ذهب الكثير منهم ضحية تلك القساوة والضراوة سواء في الحجاز، أو اليمن أو العراق الذي كان نصيب علي وأولاده وأنصاره من التنكيل فيه من أكبر الأنصباء.

وعندما قتل زيد بن علي بن الحسين في الكوفة خشى أصحابه من التمثيل به ـ كما خشي آل علي من التمثيل بجسد الإمام علي من قبل أعداءه أن دفنوه علانية أو عينوا عند دفنه قبره ـ وكان الوقت ليلاً، ولم يعرف بعد القوم بسقوط يزيد بن علي بن الحسين قتيلاً، فدفنوه في (نهر يعقوب) وكانوا قد سكروا النهر، ثم حفروا له في بطنه قبراً، دفنوه في ثيابه، ثم أجروا عليه الماء، ووشى به الواشون فاستخرجه أعداؤه الأمويون، وقطعوا رأسه، وصلبوا جسده، ثم أمروا بحراسته لئلا ينزل، فمكث يحرس زمانا وبعث برأسه الى هشام بن عبد الملك، فأمر به فنصب على باب مدينة دمشق ثم ارسل به الى المدينة، ثم حمل الى مصر فنصب بالجامع، حتى سرقه أهل مصر ودفنوه[1].

وحين ولي الوليد الحكم كتب الى عامله في العراق وكان يوسف بن عمر الثقفي يقول له:

(إذا أتاك كتابي هذا فانظر عجل العراق ـ يعني به جسد زيد بن علي ـ فأحرقه ثم انسفه في أليم نسفاً). وقد نفذ يوسف بن عمر، وأمر خراش بن

---

١ . اعلام الزركلي (زيد بن علي): ٥٩/٣.

خوشب: (فأنزل زيدا من جذعه، وأحرقه بالنار، ثم رضه فجعله في قوصرة، ثم جعله في سفينة ثم ذراه في الفرات)[1].

فأية حادثة من حوادث التاريخ روت فظاعة اشد وأقسى وأنكى من فظائع اعداء علي وأعداء أولاده، ومشايعيه، ومن هم الذين انفردوا في التاريخ بالوان التنكيل وبشاعة الجرائم غير هؤلاء الذين عادوا عليا وعادوا أولاده؟ فهل لو كان قبر الإمام علي معروفاً في أول أمره أكانوا يتجاوزون عنه ويتخلون عن نبشه؟

(١٢)

وكتب هشام إلى عامله بالبصرة وهو القاسم بن محمد الثقفي ان يشخص كل من في العراق من بني هاشم الى المدينة خوفا من خروجهم، وكذلك كتب الى عامله في المدينة بأن يحبس قوما منهم، فقال الفضل بن عبد الرحمن من قصيدة طويلة له نورد بعضها كنظرة عابرة لبعض ما لقي العلويون من أعدائهم من التنكيل فيقول الفضل من بعض ما يقول وقد أوردها ابن ابي الحديد كلها في الشرح:

كلما حدثوا بأرض نقيقاً ... ضمنونا السجون أو سيرونا

اشخصونا إلى المدينة اسرى ... لأكفاهم ربي الذي يحذرونا

قتلونا بغير ذنب اليهم ... قاتل الله أمة قتلونا

جعلونا ادنى عدو إليهم ... فهم في دمائنا يسبحونا

أين قتلى منابغيتم عليهم ... ثم قتلتموهم ظالمينا

---

١. تاريخ الأمم والملوك، الطبري: ٥/٥٣٨.

ارجعـــوا هاشمـــاً وردوا أبـــا اليقظان وابن البديل في آخرينا
وارجعـوا ذا الـشهادتين وقتلـى انـــتم في قتـــالهم فاجرونـــا
ثـم ردوا حجـرا اصـحاب حجـر يـوم انـتم في قلـتهم معتـدونا
ثـــم ردوا أبـــا عمـــير وردوا لـــي رشـــيدا وميثمـــا والـــذينا
قتلـوا بـــالطفوف يـــوم حـــسين من بني هاشم وردوا حسينا[1]

ويستمر الفضل في قصيدته ويذكرهم بقتلى كربلاء، ومسلم بن عقيل، وزيد بن علي وغيره.

والعلويون يترفعون عن الانتقام اذا ظفروا بخصومهم وكانوا يترسمون خطى جدهم علي بن ابي طالب في الحلم والعفو والصفح عن شاتميهم ومضطهديهم، وقاتليهم مما اتصف به علي فكان ذلك من بعض سجاياه الخالدة التي يضرب بها المثل والتي يعود بعض سر خلود علي في الزمان إليه.

لقد قرأت ـ ولا أتذكر أين ـ ان احد خلفاء بني أمية ويغلب على ظني أنه عمر بن عبد العزيز قد بلغه بان هشام بن اسماعيل عامل بني أمية على الحجاز كان يختلق الحجج لإيذاء آل البيت ولاسيما إيذاء علي بن الحسين ﷺ فعزله الخليفة وأمر بأن يوقف فيمر به من كانت له شكوى ليسجلها، ودعي الإمام علي بن الحسين وهو أكثر من لقي من آل البيت من ظلم هذا العامل واضطهاده ـ وطلب منه أن يمر به ويعدد ما اصابه منه فمر بناء على اصرار أوامر الخليفة، لقد مر على هشام بن اسماعيل الظالم القاسي ونظر إليه ولكنه لم يكلمه، ولم يذكره بظلمه، حتى ولم يشر ولا بإشارة صغيرة إلى ما فعل هذا العامل به وبآل

١ . الكنى والألقاب، الشيخ عباس القمي: ١/٢٣٣.

الرسول حتى إذا ابتعد الإمام علي بن الحسين عنه، والعامل واقف وقفة الذليل الصاغر صرخ ورأى اعراضه وعدم الوشاية به صرح بأعلى صوته: (الله اعلم حيث يجعل رسالته).

ومن أحسن من وصف اخلاق العلويين وصور سجاياهم كان دعبل الخزاعي الذي يقول عنه:

ألم تراني منذ ثلاثين حجة ... أروح وأغدو دائم الحسرات

أرى فيأهم في غيرهم متقسماً ... وأيديهم من فيئهم صفرات

إذا وتروا أمدوا إلى أهل وترهم ... أكفا عن الأوتار منقبضات

بنات زياد في القصور مصونة ... وبنت رسول الله في الفلوات

هكذا كان وترهم إذا وتروا يمدون الى واترهم أكفا لا تعرف الحقد والانتقام.

(١٣)

وفعل المنصور بالعلويين ما فعل، وقد روى التاريخ عن بطش المنصور بأولاد علي ابن ابي طالب ما تقشعر له الأبدان لشدة الفتك، وضروب القتل، وأنواع السجون في المطامير وبطون الأرض التي يحبس فيها هؤلاء، يقول محمد علي الطاهر:

(كان المنصور يحبس المتهمين السياسيين من آل البيت النبوي في مطامير، ويقيدهم بالحديد، ويضربهم ويكسر اعضاءهم، ويجلدهم، ويفقأ عيونهم، وكانوا لا يرون النور لا نهارا ولا ليلاً، بل كانوا يعرفون الوقت بمرور زمن قراءتهم أحزاب القرآن ..! وكان المنادي ينادي من حين إلى آخر بين هؤلاء

المساجين: هاتوا أحدكم لنقتله فيتسابقون على الموت، راجع كتاب تاريخ الطبري: ج٩)[١].

وقد فعل المنصور ببني الحسن بن علي خاصة اقسى ما يفعله الوحش الهائج، على ان للوحش الهائج حدودا لهياجه وضراوته، أما المنصور فلم يعرف التاريخ لوحشيته حدودا حتى مات، فقد أخذ من العلويين مشايخهم مثل عبد الله المحض[٢] بن الحسن بن علي بن ابي طالب ـ وكان هذا شيخ الطالبيين في عصره ـ وأخذ بنيه، وأخوته، وبني أخوته سادات بني الحسن وسجنهم، وقتل عدة منهم في الحبس، ومات الآخرون في حبسه[٣] وقد روي أنه خرج حاجب المنصور مرة فقال: من كان على الباب من بني الحسن فليدخل، فدخل مشايخ بني الحسن، فعدل بهم الى مقصورة، ثم ادخل الحدادين، من باب آخر فقيدهم وحملهم إلى السجن وحبسهم حتى ماتوا في حبسه بالكوفة.

ومن غرائب ظلم المنصور: أن رجلا من بني الحسن جاء حتى وقف على المنصور، فقال له المنصور:

ما جاء بك؟

قال: جئت حتى تحبسني عند أهلي فأني لا أريد الدنيا بعدهم.. فحبسه معهم، وكان ذلك الرجل علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب، وكان من أحسن الناس صورة .. كان يسمى (الديباج الأصفر) لحسنه وجماله، فأحضره المنصور وقال له:

---

١. تاريخ الطبري: ج٩.

٢. الأصل المحظى والصواب ما اثبتناه.

٣. مقاتل الطالبيين لابن الفرج الأصفهاني: ١٧٨.

انت الديباج الأصفر؟

قال : كذا يقولون..

قال المنصور : لاقتلنك قتلة لم اقتلها أحدا..!!

ثم امر فبنى عليه اسطوانة وهو حي فمات فيها[1].

هذا مضافا لملاحقة المنصور (للنفس الزكية) وقتله اياه، وملاحقته ابراهيم بن عبد الله، والمئات من مشاهير السادات العلويين الذين لاحقهم بنو العباس وشردوهم في الأصقاع، وقد اضطر الكثير منهم إلى التخفي في القرى النائية والقبائل البعيدة، وتغيير أسمائهم وبزتهم وهيأتهم، وحشر أنفسهم بين الطوائف المسيحية، والتظاهر بدين غير دينهم، إيغالا في التستر حتى لم يبق اليوم من أبناء أولئك المتسترين من يعرف تاريخ أسرته إلا القليل ومن هذا القليل من العلويين ـ على ما علمت ـ الشاعر اللبناني الكبير أمين نخله، ببيروت، ومنهم الأديب الوجيه : بديع هاشم بكفر شيما، أما الذين افقدهم التشريد حفظ لسانهم فلا يبعد أن يكونوا قد تجاوزوا العشرات أصولا للشجرة، والمئات والألوف فروعاً لها.

(١٤)

يقول جورج جرداق وهو يشير إلى أبيات ابي العلاء المعري في (علي والحسين) عليهما السلام حين قال المعري :

وعلى الدهر من دماء الشهيدين علي ونجله شاهان

فهما في أواخر الليل فجران، وفي أولياته شفقان

---

١ . تاريخ الدول الإسلامية : ١٦٤.

ثبتـا في قميـصه ليجـيء الحـشر مـستعديا إلى الـرحمن

يقول جرداق:

(وإنـي لا أرى مـن لوعـة العاطفـة في هـذه الأبيـات الثلاثـة، ومـا يختفـي وراءها من ثورة الفكر والوجدان، ما هو حقيق بأن يجمع القول المتلوع الثائر في امتداد المأساة العلوية إلى مآسي انصار الحق الذين أوذوا، وجلدوا واضطهدوا، وشردوا في المفاوز والفلوات ليموتوا جوعاً، وبرداً، ودفنوا أحياء، وصلبوا، وأحرقوا مع ابنائهم وأخوانهم، أنفة منهم لأن يخونوا ضمائرهم، فيتبرأوا من الإمام علي أسوة بالعبيد، وينكروا شرف الخلق الإنساني الذي استشهد الإمام في سبيله.

ولكـني أحـس ان المأسـاة العلويـة الـتي امتـدت عـصورا طـوالا تحيـا بهـذه الأبيات الثلاثة مادة وروحا)[1].

ويقول السيد أحمد صقر الذي تولى شرح وتحقيق (مقاتل الطالبيين) لأبي الفرج الأصفهاني في مقدمته:

(ولا يعـرف التـاريخ أُسـرة كأسـرة ابـي طالـب بلغـت الغايـة مـن شـرف الأرومة، وطيب النجار، ضل عنها حقهـا ـ إلى ان يقـول ـ وقـد أسـرف خـصوم هـذه الأسـرة الطـاهرة في محاربتهـا، وأذاقوهـا ضـروب النكـال، وصـبوا عليهـا صنوف العذاب، ولم يرقبوا فيها إلا ولا ذمة، ولم يرعوا لهـا حقـا ولا حرمـة، وافرغوا بأسـهم الـشديد علـى النـساء، والأطفـال، الرجـال جميعـا في عنـف لا يشوبه لين، وقسوة لا تمازجها رحمة، حتى غدت مصائب أهل البيـت مـضرب الأمثال في فظاعة النكال، وقد فجرت هذه القسوة البالغة ينابيع الرحمة والمودة

١ . الإمام علي صوت العدالة الإنسانية: ٣٦١، (جورج جرداق).

في قلوب الناس، وأشاعت الأسف الممض في ضمائرهم وملأت عليهم اقطار نفوسهم شجناً، وصارت مصارع هؤلاء الشهداء حديثا يروى، وخبرا يتناقل، وقصصا يجد فيه الناس ارضاء عواطفهم، وإرواء مشاعرهم فتطلبوه وحرصوا عليه)[١].

وقد استجاب الرواة والمؤلفون لنداء هذه الرغبة العارمة، أو لطلب المثالة بين الناس، فشرعوا يؤلفون أخبارهم، ويسطرون فضائلهم، ويدبجون سيرهم، ويؤرخون مقاتلهم.

ومن هؤلاء العلماء: أبو مخنف المتوفى قبل سنة ١٧٠هـ فقد ألف مقتل علي[٢] و(مقتل الحسين)[٣].

وألف نصر بن مزاحم المنقري المتوفى سنة ٢١٢ (مقتل الحسين)[٤].

وألف الهيثم بن عدي المتوفى سنة ٢٠٧ (اخبار الحسن ووفاته)[٥].

وألف الواقدي (مقتل الحسين) و(مقتل الحسين)[٦].

وألف ابن النطاح (مقتل زيد بن علي)[٧].

وألف الغلابي (مقتل علي) و(مقتل الحسين)[٨].

وألف الأشناني (مقتل الحسن) و(مقتل زيد بن علي)[١].

---

١ . مقاتل الطالبيين، ابو الفرج الأصفهاني، تحقيق أحمد صقر: ١٣.

٢ . فهرست ابن النديم: ١٢٦.

٣ . المصدر نفسه: ١٣٧.

٤ . فهرست ابن النديم: ١٣٧.

٥ . المصدر نفسه: ١٤٦.

٦ . المصدر نفسه: ١٤٤، ومعجم الأدباء: ٢٨٢/١٨.

٧ . المصدر نفسه: ١٥٦.

٨ . المصدر نفسه: ١٦٦.

وألف عمر بن شبه (مقتل محمد وابراهيم ابني عبد الله بن الحسن)[٢].

وألف المدائني المتوفى سنة ٢٢٥هـ كتاب: (أسماء من قتل من الطالبيين)[٣].

ثم جاء أبو الفرج الأصفهاني المتوفى سنة ٣٥٦ فألف (مقاتل الطالبيين) أو (مقاتل آل أبي طالب) كما يسميه ابن النديم[٤] وترجم فيه للشهداء من ذرية أبي طالب منذ عصر رسول الله ﷺ إلى الوقت الذي شرع يؤلف فيه كتابه وهو جمادى الأولى سنة ٣١٣هـ.

وقد ترجم أبو الفرج الى حين هذا التاريخ لنيف ومائتين من شهداء الطالبين، وكلهم من سارة القوم، ومن الأئمة والوجوه، وأعلام الأدب والشعر، والعلم والفضيلة ممن قتلوا ظلماً وعدواناً بسيوف الناصبيين لهم ولعلي البغضاء والعداوة.

(١٥)

وهنالك المئات من الشواهد على ما عملت الدعاية من جهة والتنكيل من جهة أخرى بعلي وأولاده لاجتثاث جذوره يجدها القارئ في جميع الكتب التي الفت قديماً، والمئات من الشواهد في الكتب الحديثة التي الفت عن علي وأولاده ومآسيهم وما لقوا من أعدائهم من الاضطهاد ككتاب عبد الفتاح مقصود[٥] وككتاب الشيخ عبد الله العلايلي[١]، وككتاب جورج جرداق[٢]،

---

١. المصدر نفسه: ١٦٦.

٢. المصدر نفسه: ١٦٣.

٣. فهرست ابن النديم: ١٦٣.

٤. ١٤٨، ومعجم الأدباء.

٥. كتاب (الإمام علي بن ابي طالب)

وككتاب عباس العقاد[٣]، وككتاب الشيخ محمود (أبو رية)[٤] وكتب ألفت باللغات الأجنبية وعرضت لما اصاب عليا وآل بيته من التنكيل والاضطهاد، هذا مضاف إلى عدد لا يحصى من الوان الفضائع التي ورد ذكرها كشواهد في عرض السير والمقالات، ودواوين الشعر مما تضمنت العجائب مما استخدمه خصوم علي ليطمسوا بذلك ذكره، وليمحوا آثاره، وليضللوا أفكار الناس فيه، وليشوهوا حقيقته، ولا يبعد أن يكون الذي اضاع التاريخ ذكره من الأساليب التي اتخذه خصوم علي لمحو اسمه والقضاء عليه كان كبيرا ولم يتسن للمؤرخين ثبته أو أنه قد أهمل ذكره عدداً ـ ولاسيما الشعر منه ـ احتراما لمقام علي لما كان يتضمن من الشتائم النابية.

كل هذا وعلي ظل كما هو ـ نفساً أزكى جميع النفوس بعد رسول الله ﷺ، وإنسانا تمثلت فيه كل عناصر الإنسانية لتخلده ما خلد الدهر مثلاً للشهامة، والعفة، والرأفة، والحنان، والعدل، والأدب الذي ما عرف له نظير بعد أدب القرآن الكريم، ومثلا لعقلية جبارة حار في وصفها الأقدمون ولم تزل مبعث الحيرة في العصور الأخيرة، وستظل هذه الشخصية موضوع بحث الباحثين في ميادين الحكمة، والفلسفة والأدب إلى ما شاء الله، والى نهاية عمر البشرية، إذا كان لعمر هذه البشرية من نهاية، وذلك لتعدد جوانبها وتعدد نواحيها، واتساع آفاقها.

---

١ . كتاب (سيرة الإمام الحسين)

٢ . كتاب (الإمام علي صوت العدالة الإنسانية)

٣ . كتاب (عبقرية علي).

٤ . أضواء على السنة المحمدية، أبو هريرة شيخ المضيرة.

وإذا ما أغفل التاريخ برهة من الزمن ـ وقلما غفل بالرغم من عوامل الترهيب والترغيب ـ ولم يذكر التاريخ اسم علي ﷺ قام هناك عشرات من أولاد علي ﷺ في مختلف الأدوار ليذكروا الناس بعلي وبقيمته، وبجدودهم وقيمهم في حياة البشرية ووجود الإنسانية فيما يقدمونه للناس من سيرة تمتلك القلوب، وتأسر الأفئدة، وتضرب الأمثال للمدى الذي يستطيع الإنسان أن يبلغ من ذروة المجد فتعود الألسن تلهج بذكر علي، وتمجد أفضاله.

يقول عباس محمود العقاد (.. وإنك لتنحدر مع أعقاب الذرية في الطالبيين أبناء علي والزهراء مائة سنة ومائتي سنة وأربعمائة سنة، ثم يبرز لك رجل من رجالها فيخيل إليك إذا هذا الزمن الطويل لم يبعد قط بين الفرع واصله في الخصال والعادات، كأنما هو بعد أيام معدودات لا بعد المئات وراء المئات من السنين، ولا تلبث ان تهتف عجبا: إن هذه لصفات علوية لا شك فيها، لأنك تسمع الرجل منهم يتكلم ويجيب من يكلمه، وتراه يعمل ويجزي من عمل له، فلا يخطئ في كلامه، ولا في عمله، تلك الشجاعة والصراحة، ولا ذلك الذكاء والبلاغ المسكت، ولا تلك اللوازم التي اشتهر بها علي وآله وتجمعها في كلمتين اثنتين تدلان عليها أوفى دلالة وهما (الفروسية الرياضية، طبع صريح، ولسان فصيح، ومتانة في الأسر يستوي فيها الخَلق والخُلق، ونخوة لا تبالي ما يفوتها من النفع إذا هي استقامت على سنَّة المروءة والإباء)[1].

هذه الشخصية ـ شخصية الإمام علي ـ التي تحدث الزمن، وتحدثت كل الوسائل الفعالة التي يكفي أن يغتر بعض مفعولها حقيقة الأمم وواقعها، ويبدل مجرى التاريخ وحقيقته، هذه الشخصية كانت ولم تزل ملء العين،

---

١ ـ أبو الشهداء الحسين بن علي (عباس محمود العقاد): ٥١ ـ ٥٢.

وملء القلب، والقدرة المثالية عند ذوي الإدراك والعقول النيرة، والباحثين عن الإنسانية الكاملة في دنيا البشرية، هذه الشخصية التي لم تكتف بأن (تصمد) وتثبت كالجبل أمام تلك الزعازع والعواصف والوعود والبروق التي نسجتها الدعابة بكل ألوانها واصنافها من وعد ووعيد وحسن جزاء، وصب نقمة، بل اصبحت مبعث الحياة ومأمل الأمل على رغم تلك الحروب التي شنت عليها ـ حتى الفت فيها الكتب، ووضعت عنها الدراسات، ونقلت عنها الشواهد والأمثلة، فكانت نبراسا يهتدي به التائه في ظلمات الدنيا، واستوى الباحثون في حقيقتها، والمتتبعون لآثارها، والذائبون فيها: الشرقيون منهم والغربيون، العرب وغير العرب، المسلمون وغير المسلمين، ولم يطلع على الناس يوم جديد حتى يخرج علينا العلماء، والأدباء، والحكماء، والمؤرخون بكتاب جديد يحمل فكرة جديدة عن هذه الشخصية العجيبة المدهشة التي ضربت أروع الأمثال لاسمى الأفكار في أسمى النفوس من دنيا البشرية، وعجز الدهر ان يزعزعها أو يغير شيئاً من جوهرها.

وهذا الكتاب الذي اكتب مقدمته بطلب ملح وفي غاية الإلحاح من مؤلفه، ومن الباذل في اخراجه، والناشر له، هو واحد من الكتب التي يخرج علينا بها المؤلفون بين آونة وأخرى عارضين جانبا جديداً وفكرة جديدة عن شخصية الإمام علي الفذة.

وإنا إذ أقول أنه طلب مني أن اضع مقدمته في كثير من الإلحاح إزاء شدة الامتناع والاعتذار البادي مني أقول ذلك لا غرورا ولا كبرياء وإنما العلمي بمعجزي ـ وأقول هذا عن يقين ـ في القيام بكتابة كلمة تصلح ان تكون مقدمة لكتاب يخص شخصية هذا الإمام الفذ الخالد خلود الدهر، وعلى اني

اضطررت الى النزول على رغبتهم ولكني لم ازل واثقا بأني غير أهل لعمل مثل هذا.

وفكرة هذا الكتاب انبثقت ـ أول ما انبثقت ـ من ذهن التاجر الوجيه السيد هاشم شبر، حين علم بأن هنالك كتابا يكتبون آراء عن الإمام علي، ويؤلفون كتبا جديدة عن جوانب جديدة من حياة أمير المؤمنين ﷺ فتحول المادة والنفقات بينهم وبين اخراج مؤلفاتهم الى حيز الطبع وان من بين هذه المؤلفات مجموعة ضخمة ألفها الخطيب المعروف الأستاذ السيد جواد شبر أحد خطباء الدرجة الأولى للمنابر الحسينية.

والتاجر السيد هاشم شبر من اسرة علمية عريقة تولى غير واحد منها زعامة دينية مرموقة في التاريخ القديم امثال الحجة السيد عبد الله شبر، وفي التاريخ الحديث مثال العلماء الأعلام السيد علي شبر في الكويت، والسيد عباس شبر الذي جمع بين الزعامة الروحية والأدبية في البصرة وغيرهما.

والسيد هاشم شبر، هاشمي علوي، يشده الى علي ﷺ نسبه، وتولعه بسيرته، وإيمانه بمبادئه، فعرض على الخطيب جواد شبر مبلغ الف دينار كثمن لتأليفه للكتاب المذكور كما عرض استعداده لدفع جميع النفقات التي يقتضيها طبع مؤلفه هذا واخراجه اخراجا لائقاً.

والخطيب جواد شبر نفسه فرع من هذه الشجرة الشبرية، والأسرة التي تعددت مزاياها، التي عرف البعض من افرادها بالإيثار على انفسهم في كثير من المواقع فلا عجب ان اعتذر عن قبول هذا البذل لنفسه بدافع ذلك الإيثار وراح يشير على السيد هاشم بان يقيم بهذا المبلغ الذي خصصه: مسابقة

تستهدف الكتابة عن شخصية الإمام علي ع'ى ان يستثني الخطيب جواد شبر نفسه من دخول هذه المسابقة!!

ولقيت هذه الفكرة ترحيبا من لدن السيد هاشم شبر ، وأُلفت لجنة من كبار رجال العلم للنظر في مؤلفات المتسابقين والداخلين في حلبة السباق فأحرز هذا الكتاب الجائزة الأولى.

ومؤلف هذا الكتاب هو الأستاذ سليمان كتاني من بسكتنا بلبنان لا أشك أنه مجبول من تلك الطينة التي يعنيها مزاج الإنسانية من الوجود كله، هذا المزاج الذي يلذه حديث المآثر، وقصص المروءة، وعزة النفس، التفاني في الحق، وان مثل هذه الطينة المجبولة من هذا المزاج لا تستقر، فهي في بحث دائم واستقصاء مستمر عن هذه الخصائص بين الزعماء، والساسة، والحكماء، والأدباء، حتى اذا عثرت على بغيتها كلاً أو جزءً تعلقت بها على قدر ما وجدت فيها من قابلية الجذب والاستهواء، ثم تأثرت بها روحاً، واصبحت من اشياعها واتباعها فكراً بقدر ما يجيز لها مفعولها ومفهومها ومعتقداتها.

وهناك ما يؤيد عندي هذا الرأي عن طينة مؤلف هذا الكتاب ومزاجه، وولعه بهذه الصورة التي تجذب اليها الطيبين من النفوس الخيرة، وإذا اضفنا الى ذلك ملكته الأدبية التي تحبب إليه الأدب، وتحمله على التغلغل في بطون الكتب نشدانا عن تلك اللذة، سهل علينا ان نعرف سر ولع سليمان كتاني بالإمام علي ﷺ، وتتبع آثاره والتأثر بسيرته، قراءة وكتابة، وسهل علينا ان نستشف هذه الروح وهذه الملكة الأدبية من هذه الصفحات المشرقة التي دبجتها براعة الكاتب في اسلوب ـ لا أعدو الحقيقة إذا قلت ـ إنه نسيج وحده، وقد عنى الكتاب بتسجيل انطباعاته وتصوير افكاره وما قد استخلصه من حياة

الإمام علي ﷺ مما قاله فيه محبوه، وما قاله مبغضوه ، وما قاله الذين ليس لهم به صلة حب أو بغض، وما قاله هو عن نفسه وما خلفه للناس ليقولوا فيه ما يشاؤون إن يقولوا حين يرجعون إلى ضمائرهم فيتخذون منها حكماً.

بهذه الروح، وبهذا المزاج، وبدافع من الضمير الحي كتب سليمان كتاني كتابه هذا مصوراً فيه أفكار أديب اجتذبه الإمام علي ﷺ من هذه النواحي التي سيمر عليها القارئ بل سيقف عندها القارئ وقفة طويلة وفي شيء كثير من الإعجاب.

جعفر الخليلي

بسم الله الرحمن الرحيم

الى لجنة التحكيم في النجف الأشرف.

بواسطة أمين سر، العلامة الخطيب، السيد جواد شبر.

أقدم إلى لجنتكم الكريمة كتابي (علي بن أبي طالب متراس ونبراس) وانحني عند ذكر الاسم الكبير، لاستغفره عن كل تقصير قد يكون بدر مني عن غير قصد، إذ ليس لقلمي من القدرة أكثر من ذلك كي أُمكِّنهُ من التطراف في العوالم الشاسعة التي تمكنت من ان تغوص فيها نفسية هذا الفذ من بعيد العباقرة .. ولكني رميت بالمحاولة، والنية الحلوة تجدوني على شغف، فجمعت على زندي بعض الخصل من تلك الرياحين لألقيها في هذه الباقة، علَّ النية الصادقة تسهل لها أمام هذا الماثل الكريم بعض القبول.

وإلى لجنتكم الكريمة أقدم شكري، إذ أتاحت لي سبيل الأقدم على المحاولة، أجلو بها نفسي مع أطيب واسخى من غرفته حتى الآن أجيال الإنسان.

بكل اخلاص

سليمان كتاني

الإهداء

إلى كل من يستهويه علي بن أبي طالب ..

في بطولة القسيم .. وفتح كوى النفس ..

على الحق والخير والجمال..

فاتحة

قلة أولئك الرجال الذين هم على نسج علي بن ابي طالب .. تنهد بهم الحياة، موزعين على مفارق الأجيال كالمصابيح، تمتص حشاشاتها لتفنيها هدايا على مسالك العابرين.

وهم، على قلتهم، كالأعمدة تنفرج فيما بينها فسحات الهياكل، وترسو على كواهلها اثقال المداميد، لتومض من فوق مشارفها قبب المنائر.

وانهم في كل ذلك كالرواسي، تتقبل هوج الأعاصير وزمجرة السحب لتعكسها من مصافيها على السفوح خيرات رقيقة رفيقة عذبة المدافق.

هؤلاء هم في كل آن وزمان، في دنيا الإنسان، اقطابه ورواده.

أنهم في حقول البحث والتنقيب مرامي حدوده، وفي كل خط ضارب في مهمة الوجود اقاصي جوانحها، وفي كل تيهٍ ضوابط تلملم عن الشطط شوارده، وهم له في دجية الليل قبلة من فجر، وفوق كلاحة الرمس لملمة من عزاء.

من بين هؤلاء القلة يبرز وجه علي بن ابي طالب في هالة من رسالة وفي ظل من نبوة، فاضتا عليه انسجاما واكتمالا كما احتواهما لونتا واطارا.

وهكذا توفرت السانحة لتخلق في أكلح ليل طالت دجيته على عصر من عصور الإنسان فيه من الجهل والظلم والحيف ما يصم ويذل .. رجلاً تزاخرت فيه وفرة كريمة من المواهب والمزايا .. لا يمكن ان يستوعبها انسان دون ان نقذف به الى مصاف العباقرة.

فإلى علي بن ابي طالب اسوق بحثي هذا، تيمنا في طلب واستجابة لميل .. فيه من الاستئناس ما يشفي من نفسي بعض عليلها.

مناجاة

اصحيح يا سيدي أنهم بدل ان يختلفوا إليك اختلفوا فيك؟!

فمنهم من فقدوك وما وجدوك..

ومنهم من فقدوك ثم وجدوك..

ومنهم من وجدوك ثم فقدوك..

انه لعجب عجاب!!

اربعة عشر عمودا من اعمدة القرون، بساعاتها وايامها وسنيها ذابت كما تذوب حبة الملح على كف المحيط، ولما يذب بعد حرف من حروف اسمك الكبير، فكيف لهؤلاء ان يفقدوك ولا يجدوك، أو يجدوك ثم يفقدوك؟! ويا لسخرية القدر! حتى هؤلاء الذين وجدوك كيف تراهم حدودك؟!

ان الحرف الذي انزلقت عن شفتيك لا يزال منذ اربعة عشر قرنا يأبى ان يتقلص في زمان أو مكان، لأنه عنك نور قيم الفكر واعتلاجات حقيقة الحياة .. وهي ابعد ان يحصرها اطار.

إن الحرف، منطلقا من بين شفتيك، ابى ان ينزل في نطاق، فكيف بك أنت إذ حدودك بشورى تنحيك على امارة[1]، أو ببيعة تصلك

---

١. صير عمر الأمر شورى بين ستة نفر من اصحاب رسول الله ﷺ علي وعثمان وعبد الرحمن بن عوف والزبير وطلحة وسعد بن ابي وقاص وقال: اخرجت سعيد بن زيد لقرابته مني فقيل له في ابنه عبد الله بن عمر قال حسب آل الخطاب ما تحملوا منها، أما عبد الله لم يحسن بطلب امرأته وأمر صهيبا ان يصلي بالناس حتى يتراضوا من الستة بواحد واستعمل أبا طلحة زيد بن سهل الأنصاري وقال ان رضي اربعة وخالف اثنان فاضرب عنق الاثنين وان رضي ثلاثة وخالف ثلاثة فاضرب اعناق الثلاثة الذين ليس فيهم عبد الرحمن وان جازت الثلاث ايام ولم تراضوا باي احد فاضرب أعناقهم جميعا.(تاريخ اليعقوبي: ١٦٠/٢).

بخلافة[١]؟! وكيف تمكنوا من ان يحشروك بين بداية ونهاية؟.. فإذا قماطك قميص عثمان، وإذا لك على كف ابن ملجم دثار الكفن.

وكيف وجدوا تلك المقاييس فأخذوا يتلهون بها عنك وراحوا يقيسونك بها؟.. فإذا أن ربع القامة[٢]، لست بالطويل ولا بالقصير، عريض المنكبين تميل الى سمنة وليس بالغليظ، وعيناك على دعج، عنقك كإبريق فضة .. لك ساعدان مفتولان ليس للسيف فقط، بل حتى لاقتلاع المزاليج[٣].

ثم كيف اقحموك بين المشاكل والأحداث فإذا بها تتلقفك كما تتلقف الحلبة مناجزة المتصارعين؟

تبتدا هكذا يوم الجمل بعرقبة (عسكر)[٤] وجندلة (طلحة والزبير)، وتنتهي بـ(صفين)، حيث تتحول المسرحية إلى مهزلة تختتم بمأساة.

ويصف الإمام علي في خطبته الشقشقية هذه الشورى فيقول: (متى اعترض الريب في الأول منهم حتى صرت اقرن الى هذه النظائر! لكني اسففت اذ اسفوا وطرت اذ طاروا فصغى لجل منهم لضغنه وما الآخر لصهره مع هن وهن..) (نهج البلاغة، تحقيق فارس حسون: ٣٧).

١. يصف الإمام ﷺ حال المسلمين في بيعته للخلافة: (فما راعني إلا والناس إلي كعرف الضبع ينثالون علي من كل جانب حتى لقد وطئ الحسنان، وشق عطفاي مجتمعين حولي كربيضة الغنم، فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ومرقت أخرى وفسق (قسط) آخرون (نهج البلاغة، تحقيق فارس الحسون: ٣٨).

٢. صفته: كان ﷺ ربع القامة، أزج الحاجبين، أدعج العينين أنجل تميل الى الشهلة، كأن وجهه القمر ليلة البدر حسناً، وهو إلى السمرة، أصلع له حفاف من خلفه كأنه إكليل وكأن عنقه إبريق فضة، وهو أرقب، ضخم البطن، أقرى الظهر، عريض الصدر، محض المتن، شثن الكفين، ضخم الكسور، لا يبين عضده من ساعده قد ادمجت إدماجاً، عبل الذراعين، عريض المنكبين، عظيم المشاشين، كمشاش السبع الضاري، له لحية قد زانت صدره، غليظ العضلات، حمش الساقين (بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ٢/٣٥).

٣. المزاليج: مغالق الأبواب الحديدية، أو الصخور الملس.

٤. الجمل الذي ركبته عائشة في معركة الجمل ضد الإمام علي ﷺ.

أهكذا نقشت على حدودك تخوم وحوط كيانك بسوار؟.. وانت أنت الوسيم، ليس لدعج على عينيك، بل للهب في بصيرتك .. ولا لبهاء في طلعتك، بل لصفاء في سريرتك .. ولا لغيد في عنقك، بل لجبروت في شيمك.

وأنت أنت البطل، صلب السيف والترس في كفيك، ليس لفتلة في زنديك أو لعرض في منكبيك، بل لفيض رجح على اصغريك، ثم فاض على نهجيك.

وأنت أنت الناهج الأول، نسجت للدنيا قميصا على غير النول الذي حيك عليه قميص عثمان، وصغت للدين حساما كان من غير معدن سيف عشيق (قطام)[1].

وأنت أنت الذي ابتدأت الركيزة وشهقت بها، تطل على الدنيا فوق حدودها وفوق مداها، تحمل في يدك مصحف الرسالة، تلوح به على غير النمط الذي لوح به في (صفين) .. مشعلاً يتجاوز وجه سنم الجمل ومجرى الفرات، ليعبر من مكة والمدينة، ليس الى نفوذ الجزيرة وربعها الخالي وحسب، بل ليتجاوزها مع الشمس الى حيث ينبزغ الشروق، والى حيث يرتطم الغروب.

لو أدرك الذين فقدوك، وحتى الذين وجدوك، أنت العملاق ولو بقامة قصيرة وان وجهك ولو من التراب هو من لون الشمس .. لما وصفوك، ولما صدقوا حتى اليوم انهم فقدوك.

---

١ . عشيق قطام: يشير الى عبد الرحمن بن ملجم قاتل امير المؤمنين ﷺ اثناء الصلاة وكان قد اتفق مع قطام المزواج منها شريطة قتل علي بن ابي طالب ﷺ.

مدخل

بهذه المناجاة أحببت أَنْ أقرع الباب في دخولي على علي بن ابي طالب.

وأنا أشعر بأن الدخول عليه ليس أقل حرمة من الولوج الى المحراب، وإني أدرك الصعوبة في كل محاولة أقوم بها في سبيل جعل الحرف يطيع لتصوير هذا الوجه الكريم، لأن التصوير يهون عليه ان يلتقط بالأشكال والاعراض، في حين يدق عليه ان يتقصى ما خلف الاعراض من معان والوان.

علي بن ابي طالب هو بتلك الألوان اكثر مما هو بتلك الأعراض، وإنه عصي على الحرف بتصويره بقدر ما هو قصي عليه بمعانيه.

فهو لم يات دنياه بمثل ما يأتيها العاديون من الناس، جماعات جماعات، يأتي الناس دنياهم يقضون فيها لبانات العيش ثم عنها بحكم المقدر يرتحلون لا تغمرهم بعد آجالهم إلا موجة النسيان .. أما هو، فلقد أتى دنياه، أتاها كأنه أتى بها .. ولما أنت عليه بقى وكأنه أتى عليها.

فإذا اكتفى الحرف فقط بأن يصروه في الفسحة التي هو بين مهده ولحده، فإنه يكون كالآلة، تأخذ مظاهر الأشياء دون بواطنها.

إن الفرق بعيد بين الباطن والظاهر .. فعلي الذي ولد في مكة، وعاش ستة عقود، ثم مات في الكوفة .. ليس عليا الذي تقمط الجزيرة ولا يزال يعيش في اربعة عشر قرنا دون ان يعرف خرقة الكف.

وعلي الذي رضي العيش بالأسمال[١] هو غير علي الذي رفض الحياة بالأسمال.

فإنه ما يقنع الحرف بهذا الشكل ان يصور، يجيء ابن ابي طالب انشف من كثيب في هجيرة، وتبقى مكة مسقط رأسه، ويظل النجف الأشرف مثوى لجثمانه، ويدم مكفكفاً بأسمال .. وبين الكثيب[٢] والهجيرة، واحة تشتاقها النفوس على عطش، وبين مكة والنجف، واحات تضيء إلى اظلالها اجيال الإنسان، وفي تلافيف اسماله برود لا تلبس إلا في الجنان.

أما إذا كان ابن ابي طالب قد حصره التجوال لفترة قصيرة من الزمن بين البصرة والكوفة أو بين مكة والمدينة، فإذا ذلك لم يمنع كونه ابدا ذلك العداء الذي كانت مواقع خطواته ابعد من محط رجال القوافل.

ومهما يصفه الساردون بأقلام تشط في معاييرها أو تتنزى بها الأهواء، فإن بطولته التي تغلب في سردهم على بطولة اصحاب الأساطير تبقى بطولة اضعف بكثير من حقيقته، لأنها من الذي تخيب في وصفه حروف الساردين .. لأن السرد الذي يتناول الأعراض دون ان ينفذ إلى مضامينها يبقى سردا يتعطش الى معناه كما تتعطش فوهة البئر الى مخازنها.

من هنا: ان كل قول في علي بن ابي طالب يحصره في مكان او زمان يبقى حديثا له قيمة السرد، ويبقى حروفا مقفلة لا تنفذ إليها الوان المعاني..

وما أكثر الأقلام التي تناولته بهذا النوع من السرد الكليل، فحصرته ضمن الحروف، ولم تتمكن من ان تطوف به في غير جو مكة، المدينة ... كأن

---

١ . الاسمال: جمع سمل بالتحريك وهو الثوب الخلق البالي. (تحف العقول: ابن شعبة: ٢٧٧).

٢ . الكثيب: التل من الرمل، الهجيرة: نصف النهار عند زوال الشمس من الظهر أو من عند زوالها الى العصر.

مجاله البعيد لا يمكن ان يتعدى دائرة تصطف عليها (بدر) و (أحد) أو (خيبر) و (صفين) .. وكأن قوته لا اعتبار لها الا ان تكون من النوع الذي يأتي به مارد القماقم[1].

وتاه هؤلاء الساردون اذ خلطوا بين القوة والبطولة، فاستبدلوا بالوصف هذه بتلك..

والحقيقة، ان بطولته هي التي كانت من النوع الفريد، وهي التي تقدر ان تقتلع ليس فقد بوابة (خيبر) بل حصون الجهل برمتها، ان تتعاجف لياليها على عقل الإنسان.

كل ذلك لأخص الى القول انه يكون من باب الفضاضة ان نربط عبقرية رجل كعلي بن ابي طالب بخيوط الأحداث التي بعثرها حوله ظروف كئيبة كما تبعثر الريح في الجو بعض الغيوم.

فالأحداث التي مرت على جانبيه لم يكن له فيها اية ارادة، في الوقت الذي لم يكن لها هي أي شأن في تغيير جوهر ذلك المعدن الذي انغلقت عليه شخصيته الفذة، كالغيوم عينها التي تتغشى بها صفحة الفضاء لا يمكنها بحال من الأحوال ان تطفئ الشمس.

وبالتالي: ان هذا الأحداث ليست غير اشكال واعراض، ومهما تتكثف ومهما يكثفها المغرضون، فإن جوهر ابن ابي طالب يلبث خلفها كما تلبث الشمس خلف الغمام..

لذلك فإني أحاول أن اهرب قدر الإمكان من كل سرد يتناول الأحادث بيبوستها، من حيث تسأم على حواشيها المعاني.

---

١ . القماقم: القاقم من القماقم السيد ويقال سيد قماقم بالضم لكثرة خيره.

ولن أدخل محراب هذا السيد الجليل الا بإطراقة المجل، وصمت المتأمل واصغاءة المسترشد.

ولسوف اغلب على حديثي اليه صيغة الأناشيد ما يتمكن من ذلك قلمي، إذ ان للأناشيد نفحات لا يطيب حرفها إلا مع ذكر الأولياء.

واستميح لنفسي من علي بن ابي طالب عذراً ان لم أجد، فهو اجود المجيدين وأسخى العاذرين.

ركائز

من واقع التاريخ:

انه لمن باب اللزومات ـ والحديث عن قطب من الأقطاب كالإمام علي ـ ان يؤتى بلمحة تاريخية خاطفة عن الأرض التي ولد فيها، وعن البيئة التي عايشها، وعن المناخ الحياتي الذي تأثر وجوده فيه، وعن الأهداف والمثل التي من أجلها عاش وجاهد.

فكل ذلك يرتبط ارتباطا وثيقا بحياة كل فرد من افراد الناس، لأن الإنسان إنما هو انعكاس الأرض والبيئة والزمان، ولا تبنى شخصيته إلا في إطار من ايحائاتها.

ان كون علي بن ابي طالب ابن الجزيرة العربية ألف وأربع مئة سنة خلت، يتطلب بسطا موجزا عن تلك الأرض التي كان فرداً من أبنائها.

الجزيرة العربية

جزيرة العرب هي شبهِ قارة صحراوية تمتد على رقعة كبيرة مستطيلة من الشمال الى الجنوب بين بادية الشام والمحيط الهندي، ومن الشرق الى الغرب بين الخليج العربي والبحر الأحمر وصحاريها تغطي القسم الأكبر منها وتعرف بـ (النفود) و (الربع الخالي) و (الحرات)، وهي تجتازها في خط طويل يمتد من الشمال الى الجنوب.

أما غربيها، فهو يتألف من الحجاز في شماله، ومن اليمن في جنوبه.

والحجاز كان على طول الزمان يشكو الشحة في رزقه بنسبة ما يشح عليه هطول الأمطار.

ومن بعض مدنه (مكة) و (يثرب) وفي الآخرة (جبل أحد) و (خيبر اليهودية)، وفيها حصنها المشهور.

مناخ الجزيرة حار على وطئة شديدة.

أما محاصيلها، فمن الماشية التي تعيش على المراعي نسبة لمساحاتها أكثر مما هي بالنسبة إلى الخصب فيها، ومن التمر، ومن بعض الزراعات الخفيفة، ومن تجارة الأفاويه، التي كانت تجعلها تحتك وتنفتح على ما جاورها من الشرق والشمال.

أما سكانها فمن البدو الرحل.

ويكثر الظن أنهم كانوا منذ الفجر الأول مصدرا لهجرات انسانية، فاضت عنها الى ما حواليها من البقاع شمالاً وغرباً، لتتأسس منها، على التولي، مدنيات مختلفة، من البابليين[١]
والفينيقيين[٢] والعبرانيين[١].

---

١ ـ البابليين: النسبة في كلمة «بابليّ» إلى بابل التي ظهرت الحياة المستقرة فيها خلال الألف السادسة قبل الميلاد. وقد أسس السومريون (وهم شعب غير سامي) حضارة لها أبعادها في بابل، ثم استقرت فيها القبائل السامية وأولها الأكاديون الذين غزوها عام ٣٨٠٠ ق.م تحت قيادة سرجون الأول وتبنوا كتابتها وحضارتها. ثم استولى العموريون (وهم أيضاً قبائل سامية) على الحكم، وشيدوا لأنفسهم إمبراطورية على ضفاف نهري الفرات ودجلة في الجزء الجنوبي من سومر (العراق). وقد حكمت أول أسرة عمورية بابل في الفترة (١٨٣٠ ـ ١٥٣٠ ق.م)، وكانت بابل آنذاك عبارة عن دويلات صغيرة في ماري وبابل وغيرها من المدن. ثم ظهر أعظم ملوكهم حمورابي في القرن الثامن عشر قبل الميلاد حيث اشتهر بمجموعة القوانين المعروفة باسمه (شريعة حمورابي) وهو الذي وحّد هذه الدويلات وقام بأعمال معمارية مهمة (موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية ١٠ / ٢٤٩)

وقد طور البابليون استخدام العجلات في الحرب، وهو ما ساعد على أن تصبح إمبراطوريتهم مترامية الأطراف. وحققوا إنجازات ذات شأن في الفلك والرياضيات، ومنهم اقتبس اليونانيون العلوم وطوروها. كما كانت إنجازاتهم المعمارية والفنية ذات أثر عميق في الحضارات المعاصرة لهم والتي أتت بعدهم، وقد تأثر العبرانيون بهذه المعارف بشكل عميق بعد تهجيرهم إلى بابل (موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية: ١٠ / ٢٥٠)، ولغة البابليين هي البابلية، وهي اللهجة الجنوبية من لهجات اللغة الأكادية.كما أن كتابتهم المسمارية التي أخذوها عن السومريين قد أثرت في الآشوريين. وقد كان لهم أدب ثري، وخصوصاً في مجال الملاحم التي تُعَدُّ جلجامش من أهمها.

٢ ـ فئة من قبائل سامية عرفت بالكنعانيين نزحت عن شبه الجزيرة العربية في اواسط القرن الألف الرابع قبل الإسلام واتجهت نحو الغرب حيث استقرت بجوار البحر المتوسط وغلب اسم بلا د كنعان على المناطق التي حلت فيها، والاغريق هم الذين دعوا فئة منها بالفينيقيين.

وفينيقيا منطقة ساحلية تمتد من شمال (راس شمرا) على الشاطئ السوري حيث جبل الكرمل في الجنوب وفي الشرق تحدها جبال لبنان الغربية أما الغرب فلها واجهة بحرية عريضة كان لها الفضل في ازدهار الحضارة الفينيقية .. ويعتبر ويعتبر البحر الأبيض المتوسط المدى الحيوي الأوسع لنشاط الفينيقيين .. عف الساحل الفينيقي خمسا وعشرين مدينة معظمها في الواقع قرى كبيرة أما اشهرها فكانت جبال (جبيل أو بيبلوس) وصيدون (بكر كنعان) وصور وأوغاريت وبيروت والمدن الفينيقية قد تكون جزيرة كأرواد أو تكون رأسا كبيروت، أو تنقسم بين الجزيرة والشاطئ المقابل لها كصور وصيدون .. تاريخ فينيقيا حقبات منقطعة من الولاء الى التمرد تخللها فترة من الاستقلال الفعلي بدأت من الألف الأول قبل الميلاد، واشاع المؤرخ اليوناني هيرودونس ان احد الفينيقيين واسمه (قَدْمُوْس)

أما حياة السكان فيها فقد كانت بالنسبة الى شح اقتصادها بدائية، من حيث انعكست هذه البدائية على نمط معيشتهم وكل نشاطاتهم الفكرية، ولم تظهر في هذا المجال، مع الأيام، أي تغير على اسلوب معيشتهم أو أي تطوير على نمطهم الفكري إلا بالنسبة لما كان يتسنى لهم من احتكاك بتلك الهجرات التي صدروها هم أنفسهم بحيث أصبح ذلك ميسوراً لهم، فأخذوا يقتبسون عنهم من كل ما حصلوه وأنشأوه.

ولم تكن معيشتهم البدوية، الضعيفة الاقتصاد، والمفتوحة على طول هذه الرقعة المحروقة والشاسعة، لتوفر لهم تلك اللحمة الحياتية التي تنشأ في حضن المجتمعات الغنية المتراصة، فعاشوا قبائل قبائل، يغيرون على بعضهم البعض في سبيل سد ما ينقصهم من تأمين العيش، وهذا ما كان يسمى في جاهليتهم بـ(الغزو)[٢].

ابتكر حروف الهجاء ونشرها اثناء انتقاله نحو الغرب ويضيف بان أبجدية قدموس اقتصرت على ثمانية عشر حرفا اكملها من بعده احد الاغريق واسمه (بالاميدوس)..(الحضارات، لبيب عبد الستار: ٧٤، دار المشرق بيروت، ط١٦، ٢٠٠٣).

١. العبرانيون: لا تتوفّر بين أيدينا معلومات دقيقة عن الجذور التاريخية للعبرانيين، و يرى بعض الباحثين أن كلمة «عبراني» أطلقها الكنعانيون على إبراهيم عليه السلام بعد دخوله أرض كنعان، ثم أصبحت من ألقابه، و سرى ذلك في أعقابه ؛ لأن العبراني من مادة (ع ب ر) و تعني عبور النهر، باعتبار أن إبراهيم عليه السلام عبر نهر الفرات في طريقه إلى أرض كنعان، و يرى بعض آخر من الباحثين أنّ عبراني منسوب إلى عابر، وهو اسم جدّ من أجداده الأقدمين، و يقول آخرون إنّ إبراهيم ينحدر من عرق آري، انطلاقاً من كون اسم أبيه أو عمّه آزر، إلاّ أنّ الباحثين يستبعدون هذه النظرية، لعدم توفّر معلومات عن المعنى اللغوي لكلمة آزر في القرآن الكريم و المصادر الإسلامية. جدير بالذكر أنّ اسم والد إبراهيم عليه السلام في التوراة هو تارَح (دروس في تاريخ الاديان: ٧٠/١).

٢. وهذا ما بينته الزهراء في خطبتها اذ قالت: تصنف العرب قبل الإسلام (وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها مقذفة الشارب ولهزة الطامع، دقبة العجلان، وموطأة الأقدام، تشربون الطراق وتقتاتون الق، أذلة خاشعين تخافون ان يتخطفكم الناس من حولكم)، (السقيفة وفدك، الجوهري: ١٤٣).

ونتج لهم من ذلك مجتمع مشرد ومفسخ، لا يشدهم إليه ذلك الولاء المفهوم لدى المجتمعات العريقة .. ظاهرة كهذه ترافق دائما المجتمعات الضعيفة الاقتصاد.

أما قبائلهم التي كانت تجمع وحداتهم المتعددة، فهي كانت مظهراً بارزاً من مظاهر حياتهم الاجتماعية، يربطهم بها وحدها ذلك الولاء المنشود لينشأ من ذلك تكريس دائم لمنافسات ومطاحنات تقلل على توالي الأجيال قيمة المجتمع الأكبر الذي لا يزال يسمى بـ(جزيرة العرب).

ورافقت ذلك عقلية ذكية ولكنها سطحية بالنسبة لعدم توفر المؤهلات التي يمكن للعقل ان يغرف منها ما يروضها ويجعلها قوة فاعلة، وكنتيجة معكوسة، برز مجتمع هزيل بكل مقوماته الفكرية، غني بنزعاته الفردية.

و(القحطانية) و (العدنانية) لا تزالان الدوحة الكبيرة التي تتظللها النزعات القبيلية بكل ما تفرع عنها من (كهلان) و(حمير)، أو من (ربيعة) و (مضر)، أو ما تشعب عن هذه من (طي) و (همدان) و(مذحج) و (قضاعة)، أو تلك من (أسد) و (وائل) و (بكر) و (تغلب) .. إلى آخر ما يتفرع من شجرة الأنساب، ن حيث تختصر بـ(ربيعة) و(مضر) و(اليمن).

أما عباداتهم، فإنها كانت محصورة ببعض الآلهة، كـ (مناة) و (العزى) و (اللات) و (هبل) .. أصنام جمعتها مكة تحت ستائر الكعبة، لم يكونوا ليعيروها كثير من الأهمية، بالنسبة لعدم انصرافهم الفكري نحو الفلسفات التي لا تخصب في المجتمعات المختلفة في اقتصادها.

غير ان هذه الحالة التي كانت تسيطر على الجزيرة لم تحرمها من بعض المدن التي ازدهرت فيها بعض التجارات، من حرث رفعت اقتصادها وميزتها عن باقي اجزاء البلاد.

ومن بين هذه المدن الواقعة على خط تجاري مهم (مكة) مهبط رأس الرسول، ومهبط رأس علي بن أبي طالب.

ولادة النبي

وجاءت ولادة محمد، فكانت بداية ونهاية .. بداية لعهد جديد، ونهاية لعهد عتيق.

والواقع ان الجزيرة في غيابها الطويل عن الساحة التي بثبت فيها الإنسان وجوده كإنسان، قيِّظ لها ان تستقبل في هذا المضمار ولادة عجيبة لرجل عظيم سينهج في مجالات الفكر نهجا يعوض عن الركود الطويل الذي غمرها ـ أي الجزيرة ـ طيلة أجيال بليله الدامس.

ومن واقع الأرض عينها قدم الرسول العظيم رسالته الكبيرة، ليكون فيما بعد للجزيرة دين ودستور يشدانها الى مناهج الإنسان المفكر، ويختلقان لها مدنية مماثلة للمدنيات التي تحيط بها من الشرق ومن الغرب .. ويرفعان بالتالي مجتمعنا من انحطاط القبلية المتشردة الى مستوى الوحدة المتمددة، من حيث تثبيت على اساس من الاقتصاد المولِّد المولَّد، تحت رعاية الحق والعدالة والمساواة.

في ظل النبي الكريم ترعرع علي بن ابي طالب، ولم يكد يفتح عينيه على الرسالة المطروحة بين يديه حتى امتصها بنهم الجائع[1]، مستوعبا كل معانيها واهدافها في خطوطها القصيرة والطويلة على السواء، واصبح منها وأصحبت منه، بأمتن ما تكون من الصلاة، واعتبرها خشبة الخلاص لشعب يفككه

---

١ . يقول الإمام ﷺ: وقد علمتم موضعي من رسول الله بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة وضعني في حجره وأنا ولد يضمني الى صدره ويكنفني من فراشه، ويمسني جسده، ويشمني عرفه. (نهج البلاغة: ٢/١٥٧).

اقتصاده الهزيل، ويلقيه في بؤرة من التقاليد القديمة الساذجة ويبعده عن محارم العقل السليم والقيم.

لا شك في أن الصدف كانت سخية .. إذ وافق ان جاء ابن ابي طالب في وقت كان من ألمع السوانح التي اختطفتها اجواء الجزيرة.

فاحتضان النبي، هذا العقل المجنح، رجلاً ثانيا هو علي بن ابي طالب قطب آخر من أقطاب العقل البشري، كان بالنسبة للجزيرة حظاً مزدوج النتائج، لأن الرجلين جاءا في وقت واحد، وكأن الثاني إنما جاء لتكملة الأول .. فكان هالته وكان اطاره.

وبالحقيقة، فإن ابن ابي طالب، ذلك العقل النير المولّد، لم يستبعد، باحتكاكه الدائم بابن عمه الرسول، عن ان يكون المساعد الأول المستشار الأجل في كل ما كان من شأنه ان يصون الرسالة الجديدة ويمهد لها سبل نجاحها .. إن في الوقت الذي يجب ان تظهر فيه ام في الكيفية التي يلزم ان تؤدى بها، وكان بالوقت نفسه ذلك المناضل الجسور والبطل المقدام في دفاعه عنها، دفاع المؤمن الراسخ بصحتها وصدق مفعولها.

كان ذلك في سبيل الجزيرة اولاً .. ومن ثم في سبيل الرسالة نفسها بصفتها ستصبح - بدون شك - رسالة الجزيرة للإنسان حيث يوجد إنسان.

وليس الذي يبشر في صحة ما يقول إلا وهو أول من ينعكس عليها قيمة ما يقول.

والرسالة التي بشر بها ابن ابي طالب، بعد ان ساهم في نحتها وتأديتها وأخراجها والذود عنها، كان يحمل من كل كلمة منها معانيها بنوع انها انعكست فيه تلك المعاني انعكاسا صادقا وملازما له في كل اقواله واعماله

ومخططاته القريبة والبعيدة، وأخذ يطبقها نهجا دائماً لحياته ليكون لها قدوة حية لغيرة .. في سبيل تحضير مجتمع فاضل، يعتمد الشخصية الإنسانية الملقحة بالفضائل كأساس متين يضمن له صحة العقل وصحة النهج وصحة الاستقرار.

ان بناء شخصية الإنسان بالعقل والمناهج والمناقب كان ابرز ما أخذ ابن ابي طالب يعول عليه في سبيل تطوير حياة الجزيرة.

ولقد بدأ بنفسه.

ومن هنا قيمة الرجل العظيم.

أقول (بدأ) ولست اعني (حاول) .. فإن المبادئ التي اعتنقها كان أصيلة فيه، فلقد مرت، قبل طرحها على الرأي العام، على عقله، هكذا أوحاها واقع الجزيرة، وهكذا اقتبلها واقعه العقلي والعلمي.

ان الجزيرة التي كانت تشكو التخمة بفسحة ارضها كانت تشكو المجاعة الى شخصية الإنسان التي يمكنها ضبط مجالاتها، وكانت تشكو المجاعة الى مجتمع انساني تعززه الشخصية الفاهمة.

ان هذه الشخصية المنشودة قدمت لها الرسالة الجديدة كل ملابسها، وها هو ابن ابي طالب يفصل منها كل ثيابه، ويتقدم بها زيا وطرازا، ليعرضها على بني قومه، ليكون لديهم في قدوة العارض .. لبسها في تفهمه للدنيا وفي تفهمه للآخرة، فكان زهده بالأولى طريقا الى الثانية.

لبسها بهذا العقل المولد والمستنير، فكان قوة وإرادة وشجاعة وبطولة ومثالاً يحتذى.

عرضها واختال بعرضها، غير آبه بكل الصدمات التي ستقابله بها عقلية الجزيرة العتيقة، بكل قحطانيتها وعدنانيتها المتسلسلة حتى آخر مواليدها.

ولم يشعر قط بان الخيبة ستكون من نصيبه، لأنه كان يرى الأشياء بمجالها الطويل، وان الذي يقدمه اليوم سوف يتعدى فسحة عمره .. لهذا قدمه مجردا من كل مساومة، في سبيل بناء هذه الشخصية .. قدم ابن ابي طالب جهود عمره مثبتا ان العقل هو كل ما في الوجود للإنسان[1].

١ . وَ قَالَ (عليه السلام) : لَا غِنَى كَالْعَقْلِ وَ لَا فَقْرَ كَالْجَهْلِ وَ لَا مِيرَاثَ كَالْأَدَبِ وَ لَا ظَهِيرَ كَالْمُشَاوَرَةِ (نهج البلاغة، محمد عبده: ٤/١٤).

علي بن أبي طالب في إطار تاريخي

هو علي بن ابي طالب بن عبد المطلب، ابن عم الرسول محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب الهاشمي.

اصاب الجزيرة قحط انهك العائلة الكبيرة، فهب محمد يخفف العبء عن كاهل عمه، (فالحق عليا بأسرته)[1].

ربي علي وترعرع في كنف ابن عمه.

في هذا الوقت كان محمد يتقبل الوحي عن فم جبرئيل في غار حراء.

وكان أول من يشهد ولادة الرسالة الجديدة[2]، وفي سن مبكرة، بين التاسعة والعاشرة، اصبح مقتنعا بصحة الدين الجديد.

كان باكرا النضج، قوي البنية، حاد الذكاء ثاقب النظر، شجاعا، ملما بدرجة عالية بالعلوم .. وترك اثرا كبيرا بعده في كتاب (نهج البلاغة)[1].. طرحت الرسالة على الرأي العام مبشرة بالتوحيد.

---

١ . إن قريشا اصابتها ازمة وقحط، فقال رسول الله ﷺ لعميه حمزة والعباس: ألا نحمل ثقل ابي طالب في هذا المحل، فجاؤو إليه وسألوه ان يدفع إليهم ولده ليكفوه امرهم، فقال: دعوا لي عقيلاً وخذوا ما شئتم، وكان شديد الحب لعقيل، فأخذ العباس طالباً وأخذ حمزة جعفراً، وأخذ محمد ﷺ علياً، وقال لهم قد اخترت ما اختاره الله لي عليكم علياً، قالوا: وكان علي في حجر رسول ﷺ منذ كان عمره ست سنين، وكان ما يسدي إليه من شفقته واحسانه وبره وحسن تربيته كالمكافأة والمعاوضة صنيع ابي طالب به حيث مات عبد المطلب وجعله في حجره (بحار الأنوار، المجلسي: ٢٥٤/٣٨).

٢ . علي أول من أسلم (تاريخ الطبري: ٢١٣/٢، الكامل لابن الأثير: ٢٢/٢)، روى ابو ذرعة الدمشقي وأبو اسحاق الثقفي في كتابيهما انه قال أبو بكر: يا اسفي على ساعة تقدمني فيها علي بن ابي طالب ﷺ فلو سبقته لكان لي سابقة الإسلام (بحار الأنوار، المجلسي: ٢٢٨/٣٨).

قوامها زعماء واعتبروها نقضا لآلهتهم وتهديدا بتقويض زعمائهم من هنا كانت بداية الصراع الذي راح يتدرج من عنف الى اعنف، ثم الى حروب ومجازر.

في كل هذه المراحل كان على اليد اليمنى لابن عمه والأشجع والأجدى.

وكانت الهجرة اول منفذ للرسالة، اعتمدته مسلكا للنجاة من بين قبضات الزعماء الذين صمموا على قتل محمد في احدى الليالي[٢].

ولكن بان ابي طالب في سبيل تغطية انسحاب ابن عمه نام في فراشه، ليوهم المرابطين ان النبي لا يزال تحت متناول أيديهم.

وهكذا وفر الوقت الكافي للإنسلال والابتعاد تحت جنح الظلام، من حيث حسبت على علي أولى بوادر التضحية.

بعد رجوع المهاجرين من الحبشة التي حدبت عليهم، بدأ الصراع يأخذ شكله العنيف، وكانت (معركة بدر) أول تحقيق، وتلتها (معركة أحد) التي كاد ينقلب فيها النسر إلى انخذال .. فقد جرح النبي فيها حتى ظن انه قتل، وانفرط عقد المؤمنين.

ولكن عليا ببطولته حقق النصر الأخير، وحقق معه هتاف جبرئيل المشهور:

لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي[٣].

---

١ . كتاب نهج البلاغة: مجموعة من الخطب والرسائل والحكم والمواعظ جمعها الشريف الرضي من كلام الإمام امير المؤمنين ﷺ.

٢ . بات ليلة هجرة النبي ﷺ الى المدينة في فراش النبي مفتديا اياه بنفسه ثم هاجر الى المدينة بعد ثلاثة ايام بعد ان ادى الى قريش أماناتهم المودعة عند الرسول (أحاديث أم المؤمنين عائشة، السيد مرتضى العسكري: ١/١٠٦).

٣ . شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد: ٢١٧/١١، لسان الميزان، ابن حجر: ٤٠٦/٢.

❖ ❖ ❖

وعقب هاتين الوقعتين وقعات أخرى، اشهرها (وقعة الخندق) التي تسمى بـ(وقعة الأحزاب) اذ تجمع فيها كل الأحزاب والفئات، على اختلاف الميول والقبائل، لمجابهة الرسالة الزاحفة، والتي اصبحت قوة جارفة ونصرا كبيرا[1].

أما (وقعة خيبر)[2] ـ المدينة اليهودية المحصنة المشهورة ببوابتها الصخرية التي اقتعلها علي بقوة زنده ـ فإن فتحها كان بداية لفتح المدن الكبيرة التي أخذت تسقط أمام قوة الزاحفين، الواحدة تلو الأخرى .. حتى عم الفتح، باسم الرسالة، سائر أنحاء الجزيرة.

في كل هذه المعارك كان الفضل أولا للمهاجرين، إذ كانوا أولى لبى النبي في هجرته .. ثم للأنصار الذين استقبلوا العودة بالمؤازرة.

❖ ❖ ❖

من اشهر هؤلاء المهاجرين الأولين هو علي بن ابي طالب.

وكثير هم الذين كان لهم شأن كبير في تسيير الفتح وتحقيق النصر.

---

١ . ونقد كان دور الإمام علي بن ابي طالب ﷺ كبيرا في رد جيوش الكفر وبعدما بزر عمرو بن ود العامري واجتاز الخندق وأخذ ينادي المسلمين بالبراز فلم يبرز له احد إلا علي فبرز اليه وقتله وقد قال الرسول الأكرم ﷺ: (ضربة علي يوم الخندق افضل من اعمال امتي الى يوم القيامة) كما جاء في ينابيع المودة للقندوزي: ١/٤١٢، وجاء في شواهد التنزيل: ١/٥٠٣ عن ابن مسعود قال: لما قتل علي عمر بن عبد ود يوم الخندق انزل الله تعالى: (وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ) بعلي.

٢ . عكرة حصلت بين المسلمين واليهود المتحصنين في مدينتهم المحصنة خيبر، وبعد حصار المسلمين لها وقرار الأول والثاني الدخول الى خيبر خطب رسول الله ﷺ قال: لاعطين الراية غدا رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح على يديه، ليس بفرار وفي كرار وغير فرار (الغدير: ٧/٢٠٠).

وكان علي بن ابي طالب من أحبهم اطلاقا على قلب النبي .. فهو ربيبهُ، رفيقه، مستشاره، ملازمه الدائم، أخوه .. زوج ابنته التي هي من عز الناس عليه، فاطمة الزهراء، أبو الحسن والحسين من فاطمة، الذين انحصرت فيهما ذرية النبي.

وهو أول المؤمنين، وأقوى المدافعين، وأشجع المناضلين، وأصمد المقتحمين، وابلغ المحققين.

ولقد لمح النبي عن ذلك بمثل قوله:

(اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه)[١].

(علي مني وأنا من علي)[٢].

(من أحب عليا فقد أحبي، ومن أحبني فقد أحب الله)[٣].

(علي مع القرآن والقرآن مع علي)[٤].

(حق علي على المسلمين حق الوالد على الولد)[٥].

(أنت أخي في الدنيا وفي الآخرة)[٦].

(ولداي هذان إمامان، قاما أو قعدا)[٧].

---

١ . فضائل الصحابة، الإمام أحمد بن حنبل: ١٥.

٢ . خصائص الوحي المبين، الحافظ ابن البطريق: ١٤٥.

٣ . المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري: ١٢٠/٣.

٤ . المصدر نفسه: ١٢٤/٣.

٥ . تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ٤٢/ ٣٠٨.

٦ . المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري: ١٤/٣.

٧ . بحار الأنوار، المجلسي: ٢/٤٤.

(كل ولد أب فإن عصبتهم لأبيهم، ما خلا ولد فاطمة، فإني أنا أبوهم وعصبتهم)[١].

❖ ❖ ❖

أنهم قالوا: مات النبي دون ان يترك وصاية صريحة بمن يخلفه، واختلف الرأي بين أن يكون الخليفة من المهاجرين أو من الأنصار .. ولكن الكفة رجحت مع المهاجرين، واعتبروا الحق للأكبر سنا، فعين (أبو بكر الصديق).

كان علي غائباً عن هذا الاجتماع الذي سمي بـ(اجتماع السقيفة)، وكان غيابه لانهماكه بدفن النبي، واعتبر نفسه مغموط الحق: لأنه حسب تصريح الرسول، هو الأحق.

ثم تجاوزته الخلافة بعد الصديق الى (عمر بن الخطاب)[٢] بالحجة نفسها.

لما ضرع عمر بن الخطاب توجهت الأنظار نحو مجلس الشورى السداسي: علي بن ابي طالب، عثمان بن عفان، سعد بن ابي وقاص، طلحة بن عبد الله بن الزبير بن العوام، عبد الرحمن بن عوف.

أسند الى هذا الأخير امر البت بتعيين الخليفة، وكان اختياره مؤكدا بين اثنين: أيهما يرضى بالشرط الذي يفرضه .. وهو: ان أيهم يتعهد بعدم تعيين أي من انصاره أو ابناء عشيرته في مساعدته في الحكم هو الذي يسند اليه امر الحكم.

وبما ان عليا لم يقبل بالشرط، فإن الخلافة وصلت بحكم الطبع الى عثمان بن عفان[١].

---

١ ـ افحام الأعداء والخصوم، السيد ناصر حسين الهندي: ٧٧.

٢ ـ إشارة الى توصية ابو بكر باستخلاف عمر.

وكان حكم ابن عفان صراعا بين الأمويين والهاشميين[٢]، لذلك لم يجد الخليفة الجديد أمامه إلا نقض شرط ابن عوف وانتقاء كل معاونيه من بني أمية.

في هذا الوقت، كان معاوية بن ابي سفيان واليا على الشام، وكانت الفتوحات قد حققت اتساع الرقعة الإسلامية، وحققت للعرب بحبوحة اقتصادية مغرية .. كان انسياقهم وراءها سببا من اسباب تكريس الانشقاق وكان حكم ابن عفان خروجا عن خط الرسالة، وجنوحاً نحو (ارستقراطية) خلقت طبقية جديدة، وأذكت نار الحقد بين القبائل التي كانت قد توحدت في سبيل نصرة الإسلام .. فتولدت ثورة أدت الى مقتل الخليفة.

أما معاوية، والي الشام، الذي كان يطمح الى تحقيق الخلافة له، فإنه قاوم المبايعة الجديدة لعلي، التي حققتها له الجزيرة الثائرة مع كل الأمصار المفتوحة، ما عدا الشام.

وكان بشير بن النعمان قد لف قميص عثمان وهرب به الى الشام، فاحتجز القميص معاوية، وأخذ يلوح به حجة في أخذ الثأر.

---

١ . لقد قال عبد الرحمن بن عوف أولا لعلي بن ابي طالب: ابايعك على كتاب الله وسنة رسوله والعمل بسيرة الشيخين، فقال ﷺ: بل على كتاب الله وسنة رسول الله واجتهاد رأي، فعدل عنه الى عثمان، فعرض ذلك عليه، فقال نعم.

فمال الى علي، فأعاد ﷺ قوله ـ وفعل ذلك عبد الرحمن ثلاثاً ـ فلما رأى ان عليا غير راجع عما قاله، وان عثمان ينعم له بالإجابة، صفق على يد عثمان وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين.

٢ . لم يعرف التاريخ هذا الصراع من الهاشميين بعد البيعة، نعم، كان بين الأمويين وعموم المسلمين، بسبب جعل بيوت أموال المسلمين بيد مروان ابن الحكم، واستئثار الأمويين بالأمر، مما أدى الى ثورة المسلمين، وانتهاءها بمقتل الخليفة عثمان.

هكذا ابتدأ الصراع على جهتين: علي من جهة ومعه الهاشميون والأنصار، ومعاوية من جهة ثانية ومعه الطامعون بالخلافة .. شأن طلحة والزبير.

وكانت عائشة، أم المؤمنين تشد ازر نسيبها طلحة لتوصله الى الحكم، حباً به، وبغضا بعلي الذي كان بينها وبينه جفاء قديم.

وعطف معاوية كثيرا على المحاولة، وكانت (معركة الجمل)[1] بقيادة عائشة .. ولكن المعركة خسرت، ومات فيها طلحة والزبير، واسرت عائشة ثم تركت معززة مكرمة.

وبقي الصراع يشتد بين هذين القطبين، وكادت (معركة صفين)[2] ان تكون فاصلة لجهة علي، لولا خدعة رفع المصاحف وتحكيم عمرو بن العاص وابي موسى الأشعري، مما أدى الى خلع علي دون معاوية .. عكس الاتفاق على خلع الاثنين معا وارجاع الحكم شورى.

واستؤنف القتال بعد بروز جهة جديدة هي جهة الخوارج، الذين انتفضوا على علي لقبوله بالتحكيم، فأبادهم في معركة النهروان، واثقل كاهل الأمة بالمعارك الأهلية.

---

١ . معركة الجمل: حدثت سنة ٣٦هـ وهي حرب الناكثين التي أوصى رسول الله ﷺ بها الإمام علي فقد جاء عنه أمرني رسول الله ﷺ بكل الحق ومن الحق ان اقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين (شرح نهج البلاغة / ابن ابي الحديد: ١٢٩/٦).

٢ . في الأول من صفر الخير سنة ٣٧هـ كانت وقعة صفين بين امير المؤمنين ﷺ وبين معاوية وقيل في التاسع، وقال نصر بن مزاحم تقاتلوا في تمام ذي الحجة ثم تركوه في محرم ثم ابتدوا به في غرة صفر، ومن الذين استشهدوا عمار بن ياسر وخزيمة بن ثابت.

وضاق علي ذرعا بمعاوية، مما أدى أخيرا الى عقد هدية مؤقتة، تركت فيها الشام على حدة، وبقي علي يعالج شؤون الدولة في الكوفة.

أما الفتوحات، فقد تجمدت كردة فعل لهذا الصراع العنيف، الذي لم يتمكن ابي ابي طالب من وضع حد نهائي له.

وفي ذات اليوم، بينما كان الخليفة متوجها الى مسجد الكوفة، عاجله عبد الرحمن بن ملجم بضربة سيف مسموم أودت بحياته[1].

١ . وكما اخبره للإمام علي الرسول الأعظم ﷺ بأنه قاتله هو اشقى الأشقياء كما ان عاقر الناقة هو اشقى الأولين، وكان ذلك يوم ١٩ من شهر رمضان واستشهد يوم ٢١ من شهر رمضان سنة ٤٠هـ (الغدير الشيخ المفيد: ١/٢٠١).

شخصية الإنسان

إذا كانت الشخصية تبنى، ، فعلى حساب العقل مجمل ما ينشأ من تلك العمارة.

فهو الذي على يديه يتم وصف الأساس لتقوم عليه البناية .. أما متينة شاهقة تزخر باللون والجمال، وأما هزيلة باهتة تتقزم ولا تثبت على حال، لأن العقل، وليس سواه، هو المعني في الانسان .. هو الزبدة التي لا يمكن ان يستحيل له سواها في تقلبه في أديم الأرض .. كأنه الخلاصة الأخيرة في أبعد واحدة من سلسلة المصافي التي تمتد على طول خط الحياة .. كأنه القيمة تبتدأ في لبان رغام المادة لتتناهى في صفوة الروح .. كأنه الشذى يتسلسل من غبار التراب ليعبر تلاوين الزهر الى خفة الأريج.

هذا العقل المصفى من تربة الجسد، كما تصفى الراح من خشب الدوالي، وكما يصفى العبير من خصل الرياحين .. هو الذي ينتهي فكرا، كما تنتهي الراح نشوة، كما ينتهي العبير شذى.

وهو بالتالي ذلك، الفنان الذي لا يبرز مجال فنه إلا في مجالات مهارته، ولا تثبن جلالة صنائعه إلا اذا احتكت بفتنة بدائعه، وهو بالنتيجة ذلك المرجع الذي لا تجد شخصية الإنسان سواه .. إذ تلجأ الى كنفه، فيعمل على اخراجها بقدر ما اوتيه من قوة على الإخراج .. فإذا هي منه بين راحتيه كأنها تعبير صادق عن قوة اصالته، أي انها تكون منه بمقدار ما يكون هو من رهافة الوعي وعمق الصفاء.

ذلك الفنان، الذي هو العقل، هو اشبه حالا بذلك المهندس الذي يعكف على عمارته، يرتاد من اجلها المقالع التي يعرفها، فينصب عليها نحتا وصقلاً وتشذيبا ويكتنز لها من حيث تتمكن يداه ما يراه لائقا بها من النقش والزخرف والرياش .. حتى اذا ما جاء عمله متكاملاً أمام عينيه، جلس قبالته يدل عليه .. ان هذي هي مجاهد يديهن أما تلك العمارة، فإنها تكون ـ بحق ـ عاكسة لتلك المجاهيد، أما حقيقتها فهي في أعين النقاد: إما كوخ فقير يهتز مع أول هبة ريح، وأما بيت عادي تأنس اليه الاستكانة أو قصر منيف يزخر باللون والترف، أو قلعة جبارة تهزأ بصرصرة العواصف أو هيكل وقور تخشع اليه الأجيال في تطوافها عبر الزمن.

وقد تختلط هندستها ويتداخل بعضها ببعض، فتتنابذ الوانها تتناحر أو تتضارب أشكالها، وتتشاكس أو تهدل جدرانها، وتعوج أو تلتوي باحاتها، وتنكمش أو تتقلص شرفاتها وتضيق ... كل ذلك حيث يحلو ويفضل ان تأتلق وتأتلف، أو تتآخى وتنسجم، أو تسترق وتستدير، أو تستقيم وتنفسح، أو تستطيل وتتسع.

وربما لا يخلط من هندستها كل ذلك .. ولكن التشويش يدق فيها بعض مناقيره، والبلبلة بعض سنانيرها .. فيمتد اليها التشويه، ينهب من قيمتها، وينال من رونقها.

وقد يتم على قلة اخراج هندستها ذلك الانسجام الفريد في وحدة تتزاوج فيها المعاني، فإذا هي متناسقة متكاملة، مراصفها تعلو بمشارفها، ومدارجها تأتلق بمباهجها، وباحاتها تندمج بواحاتها، ومطلاتها تزهو بهالاتها، وألوانها تتناسل من افنانها.

تلك هي العمارة المصلى بين يدي فنان جبار فاضت مفاهيمه على تصاميمه، واندمجت اشواقه باعراقه.

على هذا المقياس بالذات تتنقل شخصية الإنسان في مضاميرها بين يدي العقل.

أما المقالع التي يرتادها في سبيلها، فهي تلك المزايا والصفات، يجمعها لها قبضات . تارة مقتورة، وطوراً ميسروة، وساعة موفورة.

وهكذا تتولد، متدرجة من شخصية فقيرة ليس لها من الوجود غير تراب الجسد، دمية تكبو اذ تحبو الى شخصية خفيضة، تستكين الى هيكلها استكانة الأرانب الى اوجارها، تقضم عشبها بنابها، وتختبئ من نهارها في ليلها، وتنطفئ شمسها بفتحة رسمها.

إلى شخصية مزهوة، تستعير ألوانها من اذنابها وتتباهى احسابها بأنسابها، وتتوهم انها تستطيل ولكنها تذوب في اظلالها.

الى شخصية كريمة الوشاح، مصقولة المزايا، موزونة الإخراج .. تعيش يومها في غدها، ويورق ذكرها في لحدها.

الى شخصية ممتنة الحواشي، منزهة السجايا، موقرة الجوانب .. تتسامى بالتراب الى السحاب، وتخصب الأمد بالأبد، وتكثف الخيال بالجمال، وتغطي اللحود بالخلود، وتعل الفناء بالبقاء، لتحقق الإنسان بالإنسان.

مدارج مدارج ..

منها التافه المعدوم تلفظه الحياة على حواشيها..

ومنها الساذج المسكين يتبرم بعبء نيره، ويتقبل الوجود خوفا من العدم ..

ومنها المتبجح المغرور، يقرقع اقدامه على الشاطئ بانتظار ان يستسلم اليه البحر بمكنونه.

ومنها النير الموهوب، يغازل الشمس ولو خلف الغمام..

ومها المصطفى، جلت به الأوصاف واستجمعت به القيم.

شخصية ابن أبي طالب

من ذلك المعدن الطيب كفكفت شخصية الإمام مستكملة كل مقوماتها .. شخصية برز العقل فيها السيد المطلق، فإذا هي منه كما هي الديمة[1] من الغمام، وتسطره فينهمر بها انسجاما بانسجام.

وهكذا بسط عليها لواءه كما اسلست له قيادها، فامتصته وامتصها، قوة بقوة، ولونا بلون .. حتى لكأن الهيكل المتين كحبيكة الفولاذ، ما استجمعت أوصاله إلا ليكون قاعدة جبارة لقائد جبار .. فإذا السيف في كفة وامض بكر، له حدان متساندان: حد على الترس وحد على القرطاس، في حلبة ابدا بيضاء ذات وجهين: وجه على الجهاد ووجه على السداد..

ازدواجية في البطولات، لملمها التوحيد فانساقت الى المضمار كانسياق الجوارف تلاحمت اليها الجداول، وجداول من الموهبات تلبست المزايا والصفات كما تتلبس الأفانين أوراق الربيع، وتضافرت في تساجمها وتناسقها كحبال الشمس، وحدها المصدر، وكالمصهر، تتذاوب فيه المعادن.

هكذا انصهرت في هذه الشخصية مجموعة المواهب مجموعة الصفات ومجموعة المزايا، قيمة بقيمة، ووزنا بوزن، ومقدارا بمقدار .. فإذا هي يتزاوج بعضها في بعض كما تتزاوج الألوان في لوحة رسام .. وإذا المعطيات كالفيض، تجري كأنها في سباق، وتساند كأنها انداد.

---

١ . الديمة: مطر يدوم في سكون بلا رعد ولا برق.

فالعفة والصدق ريشتان ناعمتان كان لهما من القوة لديه ما كان لهما منها في زنديه : الترس[١] والفرند[٢]، والزهد والجود .. جناحان رهيفان ازاء عليهما من ظله، فإذا هما بعين المدى يتباعدان ثم لديه يلتقيان .. فإذا الزهد في الدنيا جود بها، وإذا الجود بالزهد ا كتماله.

والتقوى والإيمان شعوران صميميان ومنبعان صافيان، غارا في جنانه واندفقا على لسانه، فإذا هما به نصب الكعبة حسام، ومن ورعة قبلة للإسلام.

والحق والعدالة صفتان متلازمتان، وقلادتان فريدتان، وحجتان لامعتان .. وشم بهما وجدانهن، وحلى بهما بيانه، وسن عليهما سنانه .. فإذا القيم بين الحق والعدل تتلمس في معتقده تراثها .

والحب والخلاص حبلان وثيقان ودفقتان سخيتان، ترابط بهما فؤاده ولسانه .. فإذا الأرض بجماعاتها، تنشد الدفء لتمرع.

والحزم والعزم نتيجتان منبثقتان من صلابتين متكاتفتين : القوة والإرادة.

كل لهما من عينيه انعكاس على ساعديه وثورة في منهجه فإذا الدين الدنيا في ناظريه قالبان يستكملان وحدة الوجود من حديه من كل تلك المقادير.

مواهب وصفات شرّبت شخصية علي بن أبي طالب ، فّا هي في وجود الإنسان دعامة تثبت بها قيمة الإنسان.

---

١ ـ الترس: كلما وقى من السلاح لأنه يستر صاحبه.

٢ ـ الفرند: بكسر الفاء والراء، ثوب معروف معرب وهو نوع من الثياب.

إلى أرض الجزيرة

أتنامين على الطوى وتكتفين بالشعر على دروبك تخطها القوافل محملة بالطيوب؟

ومالك بالبيد تتعطش رمولها على السراب فتتلظى ولا ترتوي؟

قربي يا نفود الجزيرة ويا ربعها الخالي .. قربي وتلملمي، فليس يلطف عنك سموم خط المهاجرة إلا تلك النسمات، تبريها المحيطات على حواشيك.

وحواشيك هي بعض فيوضك .. يا طالما زحفت إليها مع السحيق من أجيالك.

تلك كانت ظفراتك المتمردة عبر السنين في هجرات حائرة، ما انتقلت بقدم حتى تشبثت بمدنية.

فقربي وخذي مما اعطيت، غزواً بغزو، يا فيافي الجزيرة .. وللمسي ذيول ليلك الطويل على كف هذا الصبح الأصيل.

وتيمني، فمكة اليوم ضلعك الأملد[1]، تشهد ولادة ما شهدتها من قبل بيدك السمر.

وتيممي بالمر واللبان من أفاويهك، واجمعيها قوافل من خيراتك، فقد حان لك الأوان أن تحرقيها في جو صميم من اجوائك..

---

١ . الأملد: الشاب الناعم، وامرأة ملداء أملود املدانية وشاب أملود املداني شبه بالقضيب الناعم، قال بعد التصابي والشباب (كتاب العين، الخليل الفراهيدي: ٤٨/٨).

وباركي الجم من آلام مخاضك، لأن المولود البكر الذي يقطع أوصالك سوق يربط أرشك بسمائك، ويفجر النور على ارجائك..

وكنسي الكعبة من اصنامك، فاللات والعزى ومناة قد بحت بها سورة الغرانيق كما اختبلتها روعة التوحيد.

وترابطي قطحانك بعنانك، فأنت منذ الساعة قبلة الملايين، ولسوف تنصب عليك أعين الوافدين.

فمع الأوس والخزرج نوري يثرب يا مدد الأنصار ويا سهد المهاجرين، وأجلي الرمد عن عينيك .. فإن الفجر يحمل إليك تباشير ضياء لن تتمكن مفاوزك على مداها من ان تستأثر بها ضمن آفاقها .. فهي رسالة بمستوى الفبض، مصدرها ازل ومداها أبد.

ولئن تحاولي .. ماذا يضير؟ فإن الوهج المنبلج لن تئده (بئر أحد)، فهو نور يتعدى نطاق الحجب، لأن مصدره أبعد من المكان وأقصى من الزمان.

فاسترشدي، فإن الهدى على انبثاق بين يديك، وكوني القاعدة وكوني المزار، فليست تضيرك ركيزة المنارة ..ولا تلعبي بترهاتك إذ تجازفين بمقدراتك، فإن الثوب الذي به تندثرين رثت خيوطه، فأنت به على غضاضة .. فتوحدي ووحدي، فإن الكلمة أخذت تملآ الدنيا على مسمعيك: (الله اكبر)، وانظري الى البعيد، فإن الطريق الذي خط أمامك لن تقود قدميك عليه عين كليلة، لأن الحقيقة التي نفرت معانيها سوف تضيق عليه قوالب الحروف ولن تتمكن من استيعابها سحب الخيال.

لذلك، سوف تحتاجين إلى حيث تجد إنساناً فتخصبه .. فكوني المطية وعبدي الطريق، وقدري قيمة ما تحملين .. ان ذلك مع التاريخ افخم قوافلك.

مولد الرسالة

ما بالهم يتوافدون زرافات زرافات؟ .. أتراهم استهوتهم الكلمة؟؟

والكلمة ما قيلت إلا استقبلت بالهزء والسخرية كأنها الهراء ، وما استحقت إلا النبذ والاضطهاد كأنها التجديف، وما كانت الليالي العاتمات إلا ستارا تغطت به هجرتان مشردتان، كأنهما لصوصية تتسلل.

على من يتوافدون والكلمة التي تستهويهم تجر على قائلها وقابلها على السواء الويل والتشريد؟!

وما قيمة الكلمة يتهذر بها رجل في خلوة؟

ومتى كان (جبل حراء) كعبة العرب، ومكة والمدينة؟

كيف تجوز وقاحة الغار، ومن هؤلاء المتوافدون؟؟[1]

ومتى كان لرعاع القوم تشوف على الأسياد؟

وتشهد (بئر بدر) أول معركة بين سيد ومسود[2]، تثبت فيها قيمة الكلمة بين سيد أخذ يقلق على مصيره ومسود بدأ يغار على مصيره .. بين فئة ترى في ديمومة الأوضاع دواما لأمجادها واترافها، وفئة اصبحت تتحسن قبسا جديدا يزيل عن كاهلها حيفا مزمنا وذلا مقيما.

---

١ . في الأصل ومن هم مؤلاء.

٢ . معركة بدر الكبرى حدثت في السنة الثانية للهجرة بين المسلمين وكفار قريش.

ولا تنتهي (معركة أحد)[١] إلا والكلمة أصلب عودا واعز شكيمة، وإذا هي الشبث بمكنونها كما تتشبث الحجة بالمنطق ، ويتعلق الضعفاء بالأمل الجديد كما يتعلق الغريق بحل النجاة.

وإذا الكلمة تجنح بالخير والحق، وتشع بالعدل والجمال، وتنكشف عن رؤى تتجلى بالعقل الى فوق وتتطاول بالخيال الى محجات تستهيم بها النفوس على مدى القيم.

كلمة تحمل في طياتها خفقات الحنان كما تميد حروفها برطب الجنان ..

وإذا (الاله الأكبر) هو إله موسى وفرعون، وإله عيسى ومحمد .. أله قدير يلبسه الوجود كما يلبس الأبد الأزل، وتندمج به الآجال كما تندمج الآفاق بالأجواء، وتتوحد فيه المصادر كما تتوحد على بعضها خطوط الدوائر .. إله رحيم هفا الى حضنه مساكين أهل الأرض، جمعهم محمد من بين قبضات اقطاب قريش كما لملمهم من قبل عيسى من جور اسياد (روما).

وتتفق الكلمة على آفاقها كما يتفق الصبح على الغسق .. وإذا الغار كوة تنهمر منها خصل الضياء، فتهلع لها مخابئ الكعبة، وتتأود بها ادواج (هبل) وبتهافت المتوافدون حيارى مثقلين .. يجتذبهم الشهور قبل ان يفعمهم الحجى، كأنهم عنه في ذهول .. ويتحسسون بالدفء كأنه ارتياح الخاطر على قلق المصير.

ويماط لثام، ويسقط قناع .. وإذا الحقيقة على سفور .. رسالة جديدة، وإنسان جديد.

أولئك هم حثالات الناس ومساكين أهل الأرض، يتلمسون جباههم بعد تعفيرها، فإذا بها ترتفع من جديد أمام الشمس، تتعزز فيها قيمة الإنسان في

---

١ ـ معركة احد حدثت في شوال سنة ٣هـ بين المسلمين والمشركين.

وجوده وفي مصيره .. إنسان يتلمس طريقه بقدميه، ويقرر مصيره بإرادته .. حر طليق لا تئده تقاليد، ولا تستذله عبودية.

وكما استعانت (بئر بدر) بـ(أحد)، وهكذا استجار (أحد) (وقعة الخندق) .. ولن تنفع استغاثة الخندق بحصون خيبر، لأن عار حراء اصبح ذلك الصدى البعيد.

وإني لمكلة الأسياد وكعبة الأصنام ان تخنق صدى أخذ يلف أجواء الجزيرة ليتعداها، مع الشروق والغروب، الى حيث يوجد انسان، وإلى حيث يمتد مكان وزمان.

قيمة الرسالة

إنه غار حراء .. اتراك خزان اللهب؟ .. أية نأمة صدرت عنك؟..

لم تكن خفيفة كالأثير وطرية كالبراعم، ولكن الأثير الذي يغلف هو - مع خفته - أثقل منها، فهي عليه تستريح وفيه تدور .. وإن البراعم التي تنوء بها جزالة الأغصان هي نطاق وجودها، إذ بها تصلب ولها تعيش.

أهكذا كان عنك للكلمة هذا المدار؟

وليس بالعجب .. فإن الذي خاطب الإنسان بلغة الإنسان لم يسمعه إلا الإنسان .. والكلمة التي تنابث بها الغار لن تعج بها إلاغواء.

ومن هنا كنا وزن الرسالة .. فإذا هي ليست محض كلمات تتبختر بأساجيعها، بل هي مبان يطل منها الوجود على الخلود .. وتطوف في ردهاتها سحب الخيال، وتنهل على ارجائها خصائل الجمال.

فهي للفكر تطوافه وارتياده، وهي للروح اشواقها ومداها، وهي مع الحياة برفقة العناء كفكفة العزاء، وهي للحياة خلف الحجاب دغدغة الأمل بحسن الثواب على كف المآب .. ومئاب فرشت دروبه بالعطور وعطور طيبتها اشداء الفضائل، وفضائل ما احتويتها إلا القلوب، وقلوب ما وسعها غير الإيمان، وإيمان ما رسخه إلا التوحيد، وتوحيد ما احتواه إلا العقل، وعقل ما سبغ إلا على الإنسان، وإنسان هو مدار الوجود، ووجود هو (الله) في البدن وفي النهاية.

تلك هي الرسالة، تقدم نفسها على كفها المفسوح: نور، وإيمان، واقتناع، وحق، وحب، وإخاء، ووفاء، وصفاء، ورجاء، وعزاء.

وهذا هو النداء على تلبية، تتلقطه الأعماق كما تتلقط حبة الرمل قطرة الندى، فإذا هو انعكاس في النفوس وفي العقول .. في طفرة تلين راحتها كأنها الدعة، وتصلب شكيمتها كأنها العناد، وتقلع على الأذى كأنها العاصفة، كل ذلك على كف يمسح وعلى زند يدفع، فإذا الجهاد جهاد يبشر على اقتناع وجهاد يدافع بغير هوادة، وإذا البطولات تشرع يسوقها الإيمان إلى نصر أكيد.

واقع الأحداث

إن السهم الذي انزلق عن قوسه لم يعد ملكا للكنانة.

ذلك كان شأن الرسالة .. فهي ما كادت تدور في خلد الناس حتى تخاطفوها كحق من حقوقهم، وهي لهم على كل حال.

ولقد استوعبوها بقدرها ما كانت حاجتهم إليها، ولقد كانوا بأمس الحاجة إلى كل ما يحرر نفوسهم وجسومهم، على السواء من عبودية طال حكمها وتكاثف ظلها.

فهي إذ كانت في البدء شعوراً ينساب حثيثا إلى الخواطر، إذا هي تصبح حاجة تنساق إلها الخواطر.

وبينا كانت في أول عهدها تستظل الملاجئ والمخابئ، إذا هي تنقلب إلى كنف يلجأ إليه المستظلون.

وإذ كانت تسير في طورها الأول بين مكة والمدينة وكأنها تحبو، إذا بها تعدو دون ان تتمكن من صدها الحصون، ولن تتوقف على تخوم الحجاز، ولن تثنيها خطوط الصحاري.

وليس العراق وحده بانتظار، ولا الشام وحدها تومي .. فمصر، على أبواب افريقيا، راحت تجهز ركائز المآذن، وفارس على مفاسح الشرق أخذت تسهل اجتياز المعابر.

لقد انقلب الإنكماش الى انفتاح وانسياق، وتبدل الدفاع الى تبشير فانذار، ثم الى هجوم مركز.

من هنا، إن الحاجة اصبحت ملحة الى تنظيم عاقل يستمر بدفع العجلة على دواليبها السلمية.

إن ذلك لم يسبقه كثير من الاستعداد، لأن النجاح الذي تأمن بهذه السرعة لم يكن الى هذه الدرجة بالتوقع.

ثم ان المفاجأة الكبرى بدورها كانت أشد المفاجآت.

فصاحب الرسالة نفسه جلا عن الساحة، إذ راح يعرض ربه رصيد حسابه على الأرض، دون ان يسبق ذلك أي انذار.

وفوق ذلك، فإن الرسالة لا يزال عودها طريا ولم تتمرس بها النفوس على كفاية، وهي مهددة بردات كثيرة كردة أحد والرجعة، لا تزال تستنجد باقطاب قريش، أولئك الذين استنزلوا عن أرائكم على تحد.

وهناك (مناة) و (العزى) و (هبل) لا تزال تتململ في رغام حطامها تحت ستائر الكعبة.

والرسالة عينها لم تزل بعد في اطارها القشيب[1]، فهي لا تزال مع الصحابة أحاديث مبعثرة، لم يجمعها تنسيق ولا تبويب .. مع كل ذلك، فهي معرضة لأن تلين تحت عدة تيارات من الاجتهاد والتأويل على موائد المصالح والأهواء.

في هذا الوقت عينه، كانت الرسالة الفتية، تتلمس طريقها لتستأنف سيرها نحو أهدافها البعيدة.

---

١ . القشيب: الجديد النظيف.

دور ابن ابي طالب

عفوك يا ابن أبي طالب!.. فأنت من الرسالة كقطب الرحى[١].

ان الدروب التي مشيتها برفقة الرسول ﷺ تشهد بثقل خطاك .. بضع سنين وربما مشاها وحده وأنت إلى جنبه، فيما عداها في وحدة العيش وفي وحدة المصير، في وحدة النهج وفي وحدة التفكير.

فأية اعتلاجة من اعتلاجات روحه لم يكن من نفسك فيها اعتلاجة يا رفيق الدرب والعمر والجهاد، بكل ما في الدرب من وعورات، وبكل ما في العمر من أوصاب، وبكل ما في الجهاد من أثقال؟

ويا حبيبا تنزل في شغاف حبيبه كما تنزل البلغة على الأوار.. ويا شاطراً تناول شطره في كل المهمات والملمات.

فإذا ما نمت في فراشه[٢] فأي فرق كان ما بين ثوبك وبرده؟ .. افهل تكون وحدة الروح أضيق فسحة من بادرة الفداء.

ولا غرويا حبيب الرسول، فأنت في نظره كقضيب من النور أخذ بفلقتين، هو فلقة منها وأنت الثانية .. وكنت في رأيه بوابة العلم إذ يكون هو مدينته[٣]، وأنت زوج ابنته وفلذة كبده فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين مع

---

١ . اشارة الى خطبته الشقشقية والتي يقل فيها (أما والله لقد تقمصها .. وإنه ليعلم ان محلي منها محل القطب من الرحى)(مناقب ابن شهر اشوب : ٤٨)

٢ . أول عمل فدائي في الإسلام قام به الإمام علي ﷺ ليلة نام في فراش النبي ﷺ من بعد ما ارادت قريش قتله (الإمام جعفر الصادق ﷺ ، عبد الحليم الجندي : ٤٨).

٣ . اشارة الى قول الرسول الأعظم ﷺ : (أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن اراد البيت فليأت الباب) (تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي : ١٨١/٣).

مريم بنت عمران، وأنت منه كما يكون القلب من الجسد وكما تكون العين من الحدقة.

أي فكر ساوره ولم تسقط عليك ديمه؟ .. رأيه عزم عزمه ولم يمر على زنديك ثقله؟ .. وأي سيف سله ولم يكن على مسنك شحذه؟ .. حتى روحه الكريمة ما أحب ان يقدمها إلا على راحتيك وهو يطرحها على أحضان ربه[1].

هكذا نعمت بالرفقة على طول السماح، وهكذا صدمت بالفرقة على ألم البراح!

فتهيأ، فإن الرسالة التي ترعرعت في ظل قبلك وغرفت من فيض حجاك ستظل ترتبط بمحامل سيفك نياط مفاوزها، لأنك لها غذ تغور بها الرحاب.

---

١ . اشارة الى اخر من كان مع رسول الله ﷺ هو الأمام (تاريخ دمشق، ابن عساكر: ٣٩٤/٤٢) بمسح روحه الطاهرة بعد ان توفي على وجهه.

التحضير

تأثير الرسالة:

كيف كانت تهجع تلك الحمم التي تفور من هذه الكوة الضيقة التي يتنفس بها هذا الجبل الصامد؟.. أمن تلك الومضات الخفيفة التي ولدها الاحتكاك قفزت تتوانب في القضاء كأنها سيول السعير؟

ذلك كان شأن علي بن أبي طالب، إذ كانت تهجع في اعماقه كوامن اللهب.

غير أن الرسالة التي أنكب عليها بزخمه والتي انسكبت بزخمها فيه، كانت الومضة الوحيدة في تفجير كوامن طاقاته، كما كانت الشحنة الكبيرة التي أفرغت على هذه الطاقات وقودها.

أقول الرسالة بكلمة .. ولكنها كلمة أطول من حروفها .. فهي بطول قوس يرتكز حد منها على الأرض بينما يهيم حدها الآخر ما وراء المحدود والمحسوس .. فهي الرباط الذي يصل الدنيا والآخرة، الإنسان بيومه بالإنسان بغده.

وأي إنسان ليس له يومان، يوم إقامة ويوم رحيل؟ .. والأول موصل إلى الثاني، والموصل حائل، والمستقبل باق بقاء الوجود، فإذا كان الأمر كذلك، وجب توفير الاهتمام باليوم الأول، لأنه عتبة اليوم الثاني، ولأن الشحنة التي تحضر هي التي بها يعبر.

أما ذلك اليوم، فمهما يكن لونه ومهما يعتوره من إبهام في الوصف والتحديد، فهو آت ما من مناص.

أما العدة التي تهيأ له، فأنه من اللازم تهيأ، إذ تكون عند ذلك موفورة أما لاستقباله واما للتمكن من فك أزاره.

والإنسان بيومه الحاضر وبيومه المقبل هو ابن الحياة البكر، وفيه ينحصر تراثها ... وهو وحده المكنة النامية التي تتمكن من تحقيق التطور، وهو وحده القوة العاقلة التي يتسنى لها الإفادة من مقدرات الوجود، وهو وحدة الطاقة المدركة التي بها تحل الأحاجي وتفك الرموز .. وهو، بالتالي نواة المجتمع الذي هو اطاره الأكبر، وسياجه الأمنع، وتحقيقه الأصدق.

وإذا كان الإنسان هو ابن الوجود البكر، ففي حضن هذا الوجود يدور وليس في غيره يغور .. البداية منه، وفيه التلاشي .. الكيفية وحدها هي التي تخفي، وليست لا بالعقل تدرك.

وليس ابهام الكيفية، على كل حال، يمنع حصول ما يتم .. فهم رغم كل ذلك يحصل تحت الإدراك وتحت النظر .. حتمية لا تمنعها (كيف)، ولا تغيرها (لماذا)، ولا تؤخرها (متى)، ولا تجعلها (إلى أين) .. ورضوخ يزيد جماله الإيمان من دون ان يقلل أهميته الشك.

بهذا الإيمان راح ابن ابي طالب يحضر شحناته وشحنات الناس في سبيل العبور من يوم بهي الى يوم خالد البهاء، وبهذه الإيجابية أخذ يحضر العدة لبناء مجتمع فاضل يتمن بالإنسان ويتمن الإنسان فيه بالفضائل.

زيارة الموت

موت النبي:

وجلوة النفس، في أي موقد تجمع وقودها؟

هل في الألم وحده تحصل الجلوة؟

وما قيمة الحب؟ .. وأيُ تأثير للحرمان عليه؟

وقد تكون أسئلة .. ولكن الجواب يكون كالانصهار، لأن الألم الذي تتلقى ال نفي على نار غظاه يستعير من الحب ضلوعه ومن الحرمان اكسيره .. أقول (ضلوعه) كي اكسب الكلمة ما لها من جمال، وأقول (اكسيره) كي ارشف هذا الجمال من حلاوته.

فللألم قساوة ومرارة ربما لا تجد النفس في غيرهما ما يستحيلان فيها الى جمال وحلاوة، ولكنه جمال مصهور وحلاوة مطبوخة، تقدمهما النفس للعقل طيقا يغطي منه بعض جوعه.

هذا النوع من الألم زار عليا بن ابي طالب فاكسب نفسه ذلك النوع من الجمال، وانعكست حلاوته على لسانه بذلك العذب من الكلام .. وكان الموت وحداه ذلك المنهل .. جاء على الحب بالحرمان.

وبين يديه، في حضنه، وتحت عينيه، انطفأت شعلة الحياة من قلب الرسول، انكفأت عن عينيه تلك اللمع، وتراخت يداه عن كفيهما، ولف جسده ببرودة الموت.

كيف يسكت قلب نبضت فيه قلوب الناس وانصتت الى نبضاته آذان الملائك؟.. وكيف ينكفئ النور عن عينين قد استعار النور منهما بهاءه؟. وكيف ترتخي يدان قد انبسطت على كفيهما أوقار الأرض وأفراح السماء؟ وكيف يلف الصقيع جسدا كان يحمل للدنيا بردا وسلاماً؟

ولكنها الحقيقة..

يعود ابن ابي طالب من ذهوله ليصدقها، فهي تحت ناظريه في برودة الموت، تسلخ عنه أحب الناس إليه، إذكاهم، اروعهم، أمثلهم .. لقد هرب من بين يديه، في غفوة الأبد، الأمل الوطيد والرأي السديد، وتوقف مع رهبة الصمت القلب الحبيب والحب الخصيب.

يا رسول الله! ترى هل هي النهاية القصي؟ .. ام (هل) هي البداية البهية؟..

والرسالة؟.. اتراها انكفأت بانكفائك الى غار حراء؟

وساحات الجهاد؟ اين (بدر) .. اين (أحد) .. أين (خيبر) أتراها الآن قد انمحقت من أرض الجزيرة؟

و(مناة) و (العزى) و (هبل) .. أتراها تلملمت من جديد من حطامها لتقهقه الآن قهقهة الشماتة؟

وفراشك هذا الذي استبدلت فيه، ألهذه الفترة القصيرة خدمت نزعة الفداء؟

وربما لا ينتهي الألم، يحز في نفي ابن ابي طالب وهو أمام الجسدالمسجى على رهبة الصمت .. وربما لا تنتهي مناجاة هذا الكبير لهذا الراقد الأكبر .. ولكنه سوف يختم قلبه على هذا الألم بختم الراضخ المؤمن.

وسوف يطبق عينيه هاتين ليفتح عينيه الآخرين اللتين لا ترف أهدابها أمام الموت، واللتين لا تريان القريب إلا في قصيه، واللتين تبصران ان الموت القصير هو فكاك الأسير والشأو[١] والمنير.

١ ـ الشأو: السبق والزبيل كالمشاة كمسحاة والغاية والأمد وزمام الناقة وبعرها ونزع التراب من البئر وذلك التراب المنزوع (القاموس المحيط، الفيروزابادي: ٣٤٦/٤).

موت فاطمة

غير ان الجرح الذي استختم بالصبر والإيمان عاد عليه موت فاطمة لينكأه على حنان.

وتفتق الجرح لينزف نزفا جديدا ومن لون جديد، هو لون الأرض بلحمها ودمها .. للأرض لون كلون الأساور والخلاخل، حلى يتثاقل بها الجمال، ويتكاثف بها الدلال.

والأرض وأن يكن لونها من لون القيود، فإن الإنسان يأتسر بها فيألفها كما يألف الجرح ضماده، ويهواها كما يهوى الكسيح عكازه، ولا يتبرم منها إلا كما يتبرم الصديان من السراب.

وكانت فاطمة من علي دفئاً لقلبه ورباطا لدنياه، وما ان فصلها الوت حتى احس بعمق الفراغ وبرودة المتكأ، وإذا هو واقع الحياة على مجابهة .. جرح وضماد، وكسح وعكاز، وصدى وسراب .. وابن هو المنهل؟!.

ويلقي جرحه بفاطمة على جرحه بأبيها[1]، ويغمض عينيه على دمعتهما، ثم يستسلم للبصيرة فيقول: تخففوا تلحقوا.

---

١ . كانت سريعة اللحاق بأبيها فقد توفيت بعد أبيها كما روى العامة بستة أشهر أو ثلاثة أشهر او شهرين (السيرة النبوية، ابن كثير: ٦١١/٤).

مجال الصدمات

إذا كان للألم في النفوس فعل المشحذة في المقاطع، فللصدمات كذلك عليها فعل الوقود تحت المراجل.

وليس كل النفوس على السواء تفعل فيها الصدمات فعل الإثارة، فالضعيفة منها تقع مع التثبيط تحت الكلل، أما تلك التي تعلو بها مراتب النضوج الى مستوى العقل والقيم فهي التي تتقبل الصدمات على صمود لتجعلها بقيمة المدد.

لم تكن نفسية ابن ابي طالب من هذا النوع وحسب، بل كانت من الطراز الفريد الذي كان يعتبر الصدمات حوافز في معابر الحياة.

فالصدمات التي كان يتقبلها سحابة عمره لم يكن ليقابلها بذلك التحسب الحريص الذي يتحسب به أهل الدنيا تجاه الملمات، وما ذلك إلا إنه كان يرى الدنيا بمنظار هؤلاء .. فهي وسيلة لديه، بينما هي عند الآخرين غاية بحد نفسها.

وما أبعد الفرق بين الوسيلة والغاية..

فالوسيلة أداة تصغر قيمتها حتما بالنسبة لقيمة ما تؤدي اليه، والغاية هي دائماً أبعد.

بهذا الواقع النفسي المبني على عقيدة واضحة المرامي، عالج الدنيا، كل الدنيا، بصدماتها ومآسيها .. وقد افاد منها، ولكنها أفادة من وزنه ومن لونه.

ولقد أعد نفسه تمام الإعداد لتقبل الصدمات كرياضة تتروض بها نفسه.

فالموت، حتى الذي تذوق طعمه بفقدان الرسول ثم بفقدان فاطمة تمكن بسرعة من هظم صدماته وتحويلها الى معناها الجميل .. ذلك المعنى الذي اعلنت

نفسها فيه الرسالة من حيث تلبسه كل حياته، وعكسه بجلاء في كل أقواله واعماله.

ومن هنا كان زهده وتقواه، لا بل مصدر دفاعه عن القيم بتلك البطولة الفذة.

وليست الأحداث التي مرت بعد رجيل النبي عن دنياه سحابة ربع قرن إلا مصداقا لمتانة صموده أمام الصدمات، دون ان توهن من عزمه أو تلين من صلابة معتقده، حتى ولا الأحداث التي سبقت هذه الحقبة من الزمن كانت اخف تأثيراً عليه، رغما عن كونها مرت وهو في يفعه لما يختزن بعد من تجاريب الأيام ووطأة العمر صفوة الحكمة وجلال المعرفة، وأنه لمن لذة السرد ان يلمح الى هذه الأحداث بمواقعها، التي[1] هي بوزن الصدمات، حتى يجئ السرد مصداقا لهالة الموضوع.

---

١ . في الأصل والتي والصواب مل أثبتناه.

الإسلام دين جديد

لقد كان بحد ذاته من أهم الصدمات التي اصطدم بها ليس على الفتى وحده، بل الجزيرة برمتها، بل العالم في شرقه وفي غربه.

فهو دين جمعت إليه قيم التوحيد على ضوء العقل الذي تمكن من هضم الوحي وبسطه على كف الحاجة إليه .. وقدم الجزيرة، فاستقبله باللامبالاة.

ومنى كان ابن الجزيرة يعير كثيرا من الأبه لدينه؟

ولا عجب في ذلك، فإن بضعة أحجار منحوتة بشكل لم يمسسها العقل فيه بفنه ولا الروح بشفافيتها، لم تتمكن، ولا بحال من الأحوال، ان ترخى فعلى من حولها وجبة خضوع أو احترام.

وليس ذلك بدليل على أنَّ البادية لا تحب أن يكونَ لها دين، بل ان ذلك، بالأحرى، دليل على ان دينا عاقلا لم يشغل بعد عقل البادية .. حتى كان الدين الجديد، فإذا به عقل يوقظ العقل من سباته الطويل، وتتقبله الناس بعد ذهول.

وكانت الصدمة عليهم من نوع وهلة الموقظ على غفلة .. فهو مستحضر من نوم، ومستحث على قلة استعداد.

في هذا الوقت كان ابن ابي طالب أول من يوسع عقله لاقتبال الدعوة الكبيرة، واستوعبها على فهم واقتناع، ولم تشكل لديه صدمة كما شكلت عند غيره، بل أخذها من واقع الحياة عدة للحياة .. لذلك دافع عنها، ومن أجلها نام في فراش ابن عمه في أول بادرة قدمها كشهادة لاقتناعه المفعم بحقيقتها فحسبت البادر ة عليه بمستوى التضحية وسر الفداء، وفي سبيلها قطع

الجزيرة على طول فيافيها ليحقق الفخر لقافلة المهاجرين، وللذود عنها اقتحم المعارك تلو المعارك[1] بتلك الشجاعة النادرة التي وضعته في مصاف الأبطال النادرين.

١ . لقد شارك الإمام علي في كل غزوات الرسول ﷺ وكان المدافع الأول عن الإسلام ما خلا غزة تبوك الذي استخلفه رسول الله ﷺ على المدينة في غيابه وقال له انت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي وفي لفظ الى النبوة (خصائص أمير المؤمنين، النسائي: ٧٧).

معركة أحد

وجاءت معركة أحد طامعة بخنق الوليد الجديد .. فإذا الردة فيها تبرز برأس ثعلب وقلب ارنب .. تتلوى على نفسها كأنها أفعى.

إنها صدمة العقل بجهالته، وصدمة القلب بضعف إيمانه، وصدمة الوعي بقصر بصيرته.

واي عزم يفقد هذه المقومات يبقى لديه بارقة من شجاعة أو نزوة من إرادة؟

وهكذا كان .. فإن إشاعة مقتل النبي في أحد نفثت سمها، فانقلبت شجاعة الضعفاء من أهل الصحابة الى وهن وانسحاب، من حيث تضاعفت شجاعة المؤمنين فاستحالت الى بطولة .. ذلك هو تأثير الصدمات في النفوس العزومة.

اما ابن ابي طالب، فقد اقتنص الصدمة في يوم أحد ليحولها الى ذلك الهتاف المدوي :

لا سـيف إلا ذو الفقـار

لا فتـى إلا علـي

تلك الردة بالذات وان تكن تحمل في قلبها عجوفها كما يحمل المصدور جرثومة دائه، فإنها في كل حين تتثاقل على هزائمها لتخوض بها معارك جانبية ببطولات تدعيها، ولكنها تلبث دائماً بطولات معكوسة يلعنها التاريخ فيما يسجلها عليها في باب التهديم والتخريب.

ذلك النوع من الردات عاش أحدا وعاش فيما بعد أُحد، وكثيرا من عانى صدماته ابن ابي طالب على طول خط جهاده، وكان دائما يقابلها بنفس المصدر وعين المستوى.

وتوالت المعارك بعد أحد .. كل معركة تشتد ضراوتها عن الأخرى بنسبة ما كان يشتد توطيد قد الرسالة على أيدي المهاجرين والأنصار.

وكانت دائما فيها الصدمات تتحول الى غنائم، لأن مفهوم الرسالة كان قد غدا أكثر وضوحا عند المدافعين والمجاهدين.

ويكفي أحدا نصر يقدمه أنس بن النضر[1]، وان كان محمد قد قتل بإن رب محمد لم يقتل!

وهكذا اخذ الجهاد ينتقل من ماديته الى روحانيته، من قتال يطمع في سبية الى جهاد يطمع الى تحرير سبية، من نضال يستنزل الجنة في على الأرض إلى نضال يرفع الأرض إلى الجنة، ومن دفاع عن محمد بلا رب إلى دفاع عن محمد له رب السموات والأرض.

ولقد حققت هذه الروحة بطولة ابي دجانة الأنصاري، إذ لما أراد الرسول ان يحله من بيعته بعد هزيمة الناس في احد بكى بين يديه وقال: والله! إلى اين انصرف؟ إلى زوجة تموت أو ولد يفوت أو دار تخرب أو مال ينفى أو أجل قد

---

١ . أنس بن النظر بن ضمضم، عم انس بن مالك (مناقب أهل البيت، المولى حيدر الشيرواني)، عن انس ان انس بن النضر سميت به ولم يشهد بدرا مع رسول الله ﷺ فكبر عليه فقال اول مشهدة شهده رسول الله غيبت عنه ﷺ أما والله أداء أراني مشهدا مع رسول الله ﷺ فيما بعد ليريني الله ما أصنع قال فهاب أن يقول غيرها فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد من العام المقبل فاستقبله سعد بن معاذ فقال يا أبا عمرو اين قال واهن لريح الجنة أجدها دون أحد فقاتل حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية فقالت عمتي اخته (اخت انس بن النضر) فما عرفت أخي إلا ببنانه.. (صحيح بن حبان: ٩/١٥).

اقترب .. ويبقى وعليا جناحين على المعركة حتى قتل، وقد تحقق له الانتصار[١].

١ . لقد كان موقف علي ﷺ في يوم أحد عظيما حتى باهى الله به ملائكة السماء فعندما انهزم المسلمون لم يبق غير علي يدافع عن رسول الله ﷺ ودينه (الجواهر السنية ، الحر العاملي: ٣٠١).

وقعة الخندق[١]

ولم تكن وقعة الخندق إلا من تلك الوقعات التي تألب فيها الشرك مجمعا من كل شتيت.

فقد توحدت احزابه على اختلاف نزعاتها، وتوحدت لمجابهة الخطر المداهم، والخطر كان من نوع العاصفة التي كانت تهب على جدران متداعية، ولكن السنين الخمس التي مرت على الرسالة لم تكن إلا لتهزأ بالعدد المجمع على غير توازن، وبالقوة المعبأة على غير تلاحم .. وإن القوة التي تجلت على زندي عمرو بن عبد ود لم تكن من وزن البطولة التي كان يعتمر بها صدر ابن ابي طالب.

لذلك كانت الغلبة في وقعة الخندق للقوة المتصلبة بالحق المبين، وكانت الهزيمة للقوة المنتفخة بالكفر المزندق.

وليست القاعدة لتخطأ .. فإن الذي دافع عن حق واقتناع هو دائماً في صف المنتصرين .. ولا فرق إذ ذاك أن يكون النصر لديه بضربة السيف أو بقرعة اللسان، والنصر لن يكون إلا في نهاية الميدان.

وبهذه القوة المتصلبة تم فتح مكة وثقيف وهوازن بسلسلة من المعارك أخذت فيما بعد تتضاءل الواحدة منها عن الأخرى، لأن المقاومة بعد هذه المدة

---

١ . حدثت في السنة الخامسة للهجرة حيث تجمع الأحزاب والقبائل واليهود بقيادة عمر بن ود على الإسلام وقد علم الرسول بعدتهم وعددهم فحفر خندقا حول المدينة ولم يستطع المشركون عبور الخندق إلا عمر ابن ود العامري الذي على صوته بالمبارزة فلم يبرز اليه احد من المسلمين إلا علي فقال عنها الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: برز الإسلام كله الى الشرك كله فلما قتله علي عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ابشر يا علي فلو وزن عملك اليوم بعمل امتي لرجح عملك بعملهم (ينابيع المودة، القندوزي: ١/ ٢٨١).

من الزمن صبح لها شأن معكوس عن الشأن الذي كان لها في المبتدأ حتى الردة، فإنها انكمشت وأحضى مفعولها متستراً في قرارة بعض النفوس بدلا من ان يكون على السواعد والأبدان.

والردة، بحد ذاتها، ليس لها مفعول النضال على ايمان، لأنها فاقدة الإيمان .. وهي وان تفعل فإن فعلها لا يكون إلا كخبط عشواء دون هداية، لأنها دون أهداف .. حتى وأن يكن لها بعض الأهداف، فهي حقيرة وقصيرة، سريعا ما تذوب مع الزمن

❖ ❖ ❖

هذا ايجاز لأهم ما برد من أحداث منذ طرحت الرسالة كدعوة على الرأي العام حتى جلاء صاحب الدعوة عن الميدان.

حقبة ليست بالطويلة إذا ما قيست بالزمن، ولكنها كانت أبعد بكثير من الفسحة التي انفتحت عليها، ولقد فعلت كما تفعل الشرارة في قلب البراكين.

أما ان نقول ان فعلها هذا كان في كل النفوس على السواء، فذلك ما لم يكن على الإطلاق.

فالتفاوت موجود وان يكن الشبه قريبا .. الشبه وحده يجمع جنس البشر بكل ما تجمع به الاشباه .. فهو الشبه الواحد المشترك كالعين واليد، فلكل إنسان عينان ويدان، وغير أن العين عند أي إنسان تحمل من الميزان المتفرقة عن عين أي انسان آخر ما لا يتمكن حتى التصوير من حصرها وتعدادها.

أحرىٌ بذلك النفوس وما تنطوي عليه عوالمها من مذاهب واهواء تتفرع بها إلى نواح، ومنها ما يضبطها المحسوس، ومنها ما يجنح بها الى ما وراءه في شتى التيارات، على تباين قواها ودوافعها ومسانيدها، وتحكم العقل بها أو

ضياعها عن ضوابطه .. إلى آخر ما يمكن أن يجعل ازالة الفوارق بين إنسان وإنسان في حكم المستحيل؟

غير ان ذلك لا يمنع كون خطيئة التيارات الفكرية التي وحدها التي تقدم البونقة التي تنصهر فيها مذاهب الناس لتتقارب فوارقها وتنسجم مناهجها وتستقيم بوادرها في سبيل وحدة التفكير وجمع القوى لما هو خير المجتمعات الإنسانية.

والتيارات الفكرية هذه تجترح الاعجوبة بقدر ما تحمل في قلبها من قيم تتناسب مع حاجة الإنسان.

وبقدر ما تقدم له من صحة هذه القيم، بقدر ذلك يكنها ان ترافقه في حياته .. اما من يوم الى يوم، أو من جيل إلى أجيال.

على هذا المجال الطويل رافق الإنسان رسالة الإسلام .. رافقها منذ ذلك اليوم، ولا يزال يرافقها حتى الساعة، لانها اخصبت حاجاته من قبل كما اخصبتها من بعد.

هذه النظرة في القيم هي تلك التي فعلت في كل كيان ابن ابي طالب، فإذا به على هذه الحقبة التي وصفت يستحل دور البارز المجلي، لم تفتقده الساحة يوما من أيامها، ولم يقعده عن الظهور عليها لا ملل ولا كلل .. حتى الرمد[1] فإنه ازيل عن عينيه على طريقة الأعاجيب كي لا يحسب عليه تنقيص خوضة من خياض الغمار.

---

١ . اشارة الى فتح حصن خيبر فعندما كان علي ارمد العينين وقال رسول الله ﷺ بعدما لم يلفح الأول والثاني بفتح خيبر قال لأعطين الراية رجلا يحب الله وسوله ويحبه الله ورسوله، فتطاولت لها اعناق القوم، فلما كان الغد دعا عليا وكانّ ارمد فمسح على عينيه واعطاه الراية، وذكر مرحبا وبرز اليه وقتله وفتح حصن خيبر (العمدة، ابن البطريق: ٨٥٥).

كل ذلك لأخلص الى القول: ان علي بن ابي طالب عاش الرسالة منذ أن فهمها، وتقبل كل الصدمات التي اعترضت سبيلها تقبل المؤمن الصامد .. فإذا به في نهاية الأحداث عند موت النبي، قطب من اقطابها يشار إليه بالبنان.

❖ ❖ ❖

وبعد موت الرسول ..

وديعة تسترد ووديعة تترك أمانة .. والأمانة هذه هي تلك التي ولدت في الأمس فتشردت، ثم لم تلبث ان استجمعت من تشريدها فصارت تلك الانفتاحية المنساقة.

وليس قليلا منا كلفها بلوغ هذا المستوى، فلقد تدرج الجهاد في سبيلها بدماء اسقيها على شديد من الظمأ.

ثم أنها، بهذا الاستطراد الذي كان لها في نموها، أخذت تتطاول بعنقها الى ما بعد آفاق الجزيرة[1] .. ولم يعد شأنها كما كان في الأمس، فلقد اضحت من الوزن الجليل اثقل من الكواهل، وأطول من العمر، وأبعد من المكان.

وها هي اليوم تترك حضن صاحبها لتستلقي على اكتاف الذين ترعرعوا في حضنها[2].

إنها المسؤولية بكل مداها .. وليس المدى إلا بالغ الأهمية ..

فالقضية المطروحة بلغت مستوى يتناول الإنسان فيه حياته وفي مصيره، في حياته مفرد، وفي حياته كمجتمع، وفي مصيره كعابر من فناء الى بقاء، فهي إذا

---

١ ـ اشارة الى الفتوحات الإسلامية في العراق والشام ومصر وبلاد فارس.

٢ ـ اشارة الى الرسالة والقيادة الإسلامية.

تتناول الحياة في كل نواحيها الفلسفية، اجتماعية كانت أم دينية .. ترتبط هذه بتلك كما ترتبط الروح بالجسد.

فمن هو الذي يتمكن من تحمل المسؤولية، وملء المركز الخالي، واستلام الحكم، وتوجيه الدفة في السفينة التي نشرت اشرعتها وأخذت تسير في عرض اليم؟

ليس من الأهمية بمكان أن يورد في هذا الصدد كل الجدل الذي قام في ذلك الحين بين المهاجرين والأنصار في أي منهم هو الأحق بالخلافة، فإن ذاك كان من نوع الصميميات، وكانت تمليه حالات معينة بالنسبة للمجتمع والعصر وبالنسبة للرسالة..

غير ان الذي حصل ثبت هذا الحق للمهاجرين في الدرجة الأولى كجزاء مباشر لما قاسوه، وهم أول من قاسى في سبيل دعم الرسالة والذود عنها بأرواحهم وأجسادهم.

وكانت الخلافة الأولى من نصيب (أبي بكر الصديق) بالحجة نفسها التي أخذ بها المهاجرون والأنصار.

أخذ ابن أبي طالب رفقاءه المهاجرين .. فهو أولهم إيمانا بالرسالة، وأبلغهم نصرة لها، وأشدهم قربى لصاحبها، واعمقهم فهما لمضامينها[1].

---

١ . جاء في صحيح البخاري: ٣/٣٩، باب غزوة خيبر، وصحيح مسلم: ٢/٧٢ من كتاب الجهاد والسيرة، أن أمير المؤمنين ﷺ تخلف عن البيعةوانه لم يصالح حتى لحقت سيدة النساء بأبيها ﷺ بستة اشهر حيث اضطرت المصلحة الإسلامية العامة في تلك الظروف الحرجة الى الصلح المسالمة وان عليا لما صالحهم نسب اليهم الاستبداد بنصيبه من الخلافة وقال مخاطبا ابا بكر:

فإن كنت في القربى حججت خصيمهم ... فغيرك أولى بالنبي وأقرب

وإن كنت بالشورى ملكت أمرهم ... فكيف بهذا المشيرون غيب

ولربما كان أبو عبيدة بن الجراح أشد حرصا على مستقبل علي من علي على نفسه، إذ أجابه عن احتجاجه: انك حديث السن، وهؤلاء هم كهولها، فاتركهم لها مع تجاربهم .. وان تعش ويطل بك البقاء فأنت لهذا الأمر خليق وحقيق!!

وتقبل ابن ابي طالب الصدمة، وانكفأ بها إنكفاء الكريم على الأذية.

ولم يثرها اثارة الضغن كما اثارها سعد بن عبادة[١]، بل راح يجمع القرآن، يفتق منه على نفسه فتيق بيانه.

كما ان موت فاطمة في هذا الوقت جاء عليه بصدمة ثانية فتحت في نفسه كوة السماح.

قال في خطبته (الشقشقية)[٢]: (فصبرت وفي العين قذى، وفي الحلق شجى).

ان السبب نفسه جعل الخلافة تنتقل بعد موت الخليفة الأول، عابرة عنه، إلى (عمر بن الخطاب)، كهل آخر من كهول الصحابة[٣].

---

١ . سعد بن عبادة الخزرجي، كان سيد الخزرج وكان جوادا مطعاما وكان يطعم الوفود الوافدين على رسول الله ﷺ وكان ابنه قيس على شاكلته..(اعيان الشيعة، محسن الأمين: ٧/٢٢٤).

٢ . الخطبة الشقشقية: (أَمَا وَ اللَّهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا فُلَانٌ وَ إِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ .....(نهج البلاغة: الشريف الرضي: ٥٠).

٣ . عن زيد قال لما ثقل ابو بكر وأراد ان يستخلف عمر فقالوا استخلفت علينا فضا غليضا فهو إذا ولي كان أفض وأغلظ ماذا تقول لربك إذا أتيته وقد استخلفت عمر قال: ابربي تخوفوني، أقول أمرت عليهم خير أهلك (تاريخ مدينة دمشق: ابن عساكر: ٣/٤١٣).

ورضخ ابن ابي طالب للواقع الجديد، وتناول الصدمة الجديدة بإيجابية المؤمن الراسخ، وراح يعاون الخليفة في كل ما كان يشكل عليه من حلول[١] .. معاوية الحريص على مستقبل رسالة هي جزء من قلبه كما هي جزء من دماغه.

عشر سنوات مرت على ابن الخطاب ختمتها ضربة سيف من يد ابي لؤلؤة[٢].

---

١ . فقد ملئت كتب التاريخ ما جاء عنه بهذا الخصوص مثل (لولا علي لهلك عمر) و (اعوذ بالله من معضلة ليس فيها علي) .. وغيرها (ينابيع المودة القندوزي: ١٤٧/٣).

٢ . لما طعن عمر قيل له: لو استخلفت قال لو كان سالم حيا لاستخلفته ولو كان أبو عبيدة حيا لاستخلفته، ثم قال: لاجعلنها شورى بين ستة وعينهم من قريش وولى ابو طلحة زيد بن سهل الخزرجي على خمسين من الأنصار وأمر صهيبا ان يصلي بالناس ثلاثة ايام فإذا انتهت الأيام الثلاثة واتفقوا على واحد فيضرب أبو طلحة عنق الذي يخالف، وان اجتمع ثلاثة على رجل وثلاثة على رجل كانوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف وان صفق عبد الرحمن باحدى يديه على الأخرى عليهم ان يتبعوه ومن ابى اضربوا عنقه، فلما توفي الخليفة قال عبد الرحمن اني اخرج نفسي منها وسعداً على ان اختار احدكم فأجابوا إلا علياً وأخلف عبد الرحمن ان لايميل الى الهوى وان يؤثر الحق وان لا يجابي ذا قرابة فخلف له فقال: اختر مسدداً، ثم اجتمعوا في مسجد الرسول فمد يده الى علي وقال: امدد يدك ابايعك على كتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين فقال اسير فيكم كتاب الله وسنة نبيه ما استطعت ثم مد يده الى عثمان فوافق على ذلك.

ثم مد يده الى علي وقال امدد يدك لابايعك على كتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين فقال اسير فيكم بكتاب الله وسنة نبيه مااستطعت، ثم مد يده الى عثمان فوافق على ذلك، ثم مد يده الى علي فقال مثل مقالته الأولى فأجابه مثل الجواب الأول ثم قال لعثمان مثل المقالة الأولى فأجابه مثلما كان أجابه ثم اتجه الى علي قال له مثل المقالة الأولى، فقال الإمام علي ان كتاب الله وسنة نبيه لا يحتاج معهما الى طريقة احد انت تجتهد ان تزوي هذا الأمر عني، فاتجه عبد الرحمن الى عثمان واعاد عليه القول فاجابه به مثل ذلك الجواب فصفق على يده وبايعه فقال الإمام علي لعبد الرحمن حبوته حبوة دهر ليس هذا أول يوم تظاهرتهم فيه علينا فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون، والله ما وليت عثمان الا ليرد الأمر إليك، والله كل يوم هو في شأن وبايع اصحاب الشورى عثمان وكان علي قائما فخرج مغضباً (معالم المدرستين، السيد مرتضى العسكري: ٣٤٩/١).

وجاء دور الخليفة الثالث (عثمان بن عفان)، فكانت الصدمة فيه على ابن ابي طالب أشد الصدمات واعنفها[1]، لتكون فيما بعد أبهاها على بلورة شخصيته واكتمال نضجها.

١ . جاء مناقب آل ابي طالب، ابن شهر آشوب ١ /٢٨٩:

قال عثمان بن عفان للإمام امير المؤمنين ﷺ: إنك ان تربصت بي فقد تربصت بمن هو خير مني ومنك قال ومن هو خير مني، قال: ابو بكر وعمر، فقال ﷺ: كذبت أنا خير منك ومنهما عبدت الله قبلكم وعبدته بعدكم .

خطيئة عبد الرحمن بن عوف

لو كنت تدري، يا سيدي، ان للقرن العشرين حقا بمحاسبة هفوة مر عليه اربعة عشر قرنا لكنت في ذلك الوقت اشد تدقيقا باختيارك الرجل الذي يفضل ان تلقى على كتفه مقاليد الحكم بتناول الأرض والسماء على السواء!

إن ذلك كان يتطلب منك كثيرا من اليقضة وبعد النظر.

حتى لا مجلس الشورى السداسي الذي انتدبك للمهمة كان اقل منك تحملاً للمسؤوليات تجاه المعاضل.

فالقضية التي كانت مطروحة بين يديك لم تكن لشخصك ومجلس الشورى بأكثر ما هي لا تزال تخص عصرنا الحاضر.

فالرسالة بالذات التي كانت اطروحة النبي لبني قومه، خرجت من نطاقه الجليل ومن نطاق الجزيرة لتصبح ملك الناس على اختلاف بيئاتهم وتعداد أجيالهم.

لهذا، كان عليك واجب التحفظ في الانتخاب حتى لا تتعرض الرسالة في مهدها لهفوات انتكاسية قد تعرقل سيرها في زحفها الصاعد.

فإذا ما ربطت المصير بسؤال عابر وجواب خفيف، فأي شيء تكون قد تعمقت فيه وقطعت عنه سوء أسبابه ومغبة مصيره؟

ولنحصر التهمة ..

لقد ألقى عليك التكليف، يا ابن عوف، لاستمزاج الآراء وتقديم بيعة الخلافة للأنسب أن لم نقل للاحق والأفضل.

فلم تستمزج ابن ابي طالب رأيه إلا بشرط ولم تستمزج ابن عفان رأيه إلا بشرط؟

والشرط هنا والشرط هناك كان شرطا هزيلاً[١]، ولم يكن ليصلح أساسا للقضية المطروح من أجلها.

فإنك، قبل كل شيء، كنت تعرف الاثنين حق المعرفة .. فهنا رفيقان في جهاد طويل، لم يغب عنك فضل هذا ولا فضل ذاك..وانك ما كنت تجهل أنه ما تجمعها الرسالة فقط يفرق بينهما مقدار فهمها، وأما تربطهما بها بطولة الجهاد فقد يكون واحد منها مجليا عن الآخر في مضمارها .. وأما تشدهما إليها همة قعساء فقد يفوق واحد منهما على الآخر بما كان له من انتاج.

وهكذا كان بإمكانك ان ترى بين سيدين كريمين في ايهما يمكنه لعزمه واقدامه أو لفوته وبُعد نظره .. أو بالنسبة لقدرة مع ضعف همة على شيخوخة، وقدرة على مضاء عزم على فتوة.

كل ذلك كان من الواجب اعتباره قبل ان تطرح السؤال الضعيف: (أبا يعك يا علي شرط ان لا تجعل أحدا من بني هاشم على رقاب الناس)!![٢].

(أبايعك يا عثمان شرط ان لا تجعل أحدا من بني امية على رقاب الناس).

ومن البديهي ان ندرك ان عثمان بن عفان خلعت عليه الخلافة لأنه رضي بالشرط، ومن البديهي ايضا ان يحصل ان عليا بن ابي طالب لم تصل الخلافة اليه لأنه رفض الشرط.

---

١. شرط البيعة على كتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين وهذا ما رفضه رفضا قاطعا الإمام علي وقبله بالمقابل عثمان فيما يخص سيرة الشيخين.

٢. تقدم ان الشرط من عبد الرحمن بن عوف هو غير هذا .. إنه طلب من الإمام أولا ثم من عثمان: العمل بسيرة الشيخين، فرفض الإمام وقبل عثمان، راجع شرح النهج ابن ابي الحديد: ج١، عند ذكر (الخطبة الشقشقية).

فالذي وصل قبل المساومة، والذي خاب رفض المساومة .. وبين القبول والرفض ترجح كفة الميزان.

ثم لك إنك نزلت شرطك هذا يا سيدي في دستور الدولة منزلة التنفيذ.

ولكن عثمان بن عفان قد استهان بشرطك، ولم يشعر بأنه كفر، لا بك ولا بدينه، لأن شرطك لم يكن من الدين في لزومياته .. وها هو يطيب له ان يحشر بين اركانه كل أصلاب بني أمية.

ولم يكن ذلك ليضيره لو لم يضره هؤلاء بخروجهم عن النهج الحكيم ولم يضيروه وحده، بل ضاروا الرسالة التي لا تزال في طور الطفولة.

أما ذلك الذي لم يرض بالمساومة، فإنه كان يتمنى عليك ان تتجنب شرطاً لا لزوم له وان تؤمن به أنه خليق بوضع الأمور في مواضعها، وأن الذي عليه ان يكون مؤتمنا على بيت يؤتمن ضمناً على قصعة موجودة بين أثاثه.

ان الشرط، بحد ذاته، هزيل يا بن عوف .. لو لم تختبئ خلفه نية مبيتة .. والنية المبيتة كان لها أسوأ النتائج.

بين عكسين

الأول ـ فراغ يمتلأ:

ان فسحة العشرين عاما التي على علي بن ابي طالب، منذ سنوات الرسول حتى تسلمه الخلافة، لم تكن بالفسحة البسيطة، لا بطول مداها ولا بقيمة الأحداث التي مرت عليها.

وهي وان تكن تعتبر فراغا بالنسبة لعدم تحمله فيها أية مسؤولية إدارية، فإنها بالحقيقة كانت فراغا يمتلأ.

وليس يفهم من كلمة (فراغ) ان ابن ابي طالب في هذا الوقت الطويل عن الساحة، بل العكس، كان فيها ملء السمع والبصر .. غير أنه كان يحتل فيها برج المراقبة.

فالرسالة التي اغمض عينيه سيدها العظيم عن رعايتها تناولها أبو بكر وعمر وهي على شيء من التوجيه والتركيز، وها هي الدولة بدأت تشق طريقها الشائك بين ادغال التقاليد والعادات، وبدأت تنبت نبتاً طريا يتطلب كثيرا من العناية والانتباه.

ولقد فاضت قوة الدولة بعد ان تلهت قليلا بقمع ثورات الردة التي شاغبها بها بعض القبائل في اليمن واليمامة وعمان، وها هي تنصرف الى الفتوحات يمينا وشمالاً.

فمن جهة أولى، انكشف العراق، ونهبت المدائن بما فيها كنوز القصر الأبيض.

وتربع سعد بن ابي وقاص على ايوان كسرى، ثم طاعت للعرب بلاد فارس، وراحوا يدقون قضاتهم على أبواب الهند.

ومن جهة ثانية، كانت الشام تفتح أبوابها لعمر بن العاص وخالد بن الوليد ومعاوية بن ابي سفيان وأبي عبيدة بن الجراح من حيث هزم (هرقل) وقال وهو يرحل وداع المشهور: (عليك يا سوريا السلام ونعم البلد أنت للعدو!).

ومن جهة ثانية، كانت مصر، بقيادة عمرو بن العاص والزبير بن العوام تفتح الطريق أمام الفاتحين .. من حيث قبل (المقوقس) بدفع الجزية على يد الأسود عبادة بن الصامت .. وبذلك تكون قد انكشفت الطريق الى افريقيا كلها.

كل هذه الفتوحات قد تحققت على يد ابي بكر، ثم على يدي عمر بن الخطاب[1].

وتدفقت على الدولة كنوز وخيرات لم يحقق مثلها من قبل أي يوم من تاريخ الجزيرة.

ولم تعرف فيما مضى غزوة أبلغ وأسخى من هذا الغزو المفتوح الممتد على طول الجبهات من الشرق ومن الغرب ومن الجنوب على السواء .. كأن النعيم فتح شئابيب الكوثر، فتدفقت مجارفه تغمر الجزيرة غمرا معسولاً.

---

١ . هذه الفتوحات كلها كان قد بشر بها النبي الأعظم ﷺ المسلمين في حياته، ومنها قوله لسراقة بن مالك: (كيف بك يا سراقة اذا البست بعدي سواري كسرى) فما فتحت فارس دعاه عمر والبسه سواري كسرى وقوله ﷺ لسلمان (إنه سيوضع على رأسك تاج كسرى)، فوضع التاج على رأسه عند الفتح وقال (انكم ستفتحون مصر فإذا فتحتوها فاستوصوا بالقبط خيرا فإنه لهم رحما وذمة) يعني ان ام ابراهيم منهم، وقوله ﷺ: (انكم تفتحون رومية فإذا فتحتهم كنيستها الشرقية فاجعلوها مسجداى وعدواً وسبع بلاطات ثم ارفوا البلاط الثامنة فإنكم تجدون تحتها عصى موسى وكسوة ايليا) (مناقب آل أبي طالب، ابن شهر اشوب: ١/ ٩٥).

وفيما كان أبو بكر وعمر بن الخطاب يقضمان الدنيا على زهد بها، تاركين الفتح يجتاح الشرق والغرب على فرس جموح مرخية اللجام، كان سعد بن ابي وقاص يتربع على ايوان كسرى ليبني على مشكله قصره في الكوفة، ويجمع اليه كل كنوزه.

وكان القواد يتلهون بالغنائم والسبايا، وكان الزبير بن العوام يملك الف عبد وألف أمة.

في هذا الوقت من توسع الدولة، كان ابن ابي طالب مرابطا في برجه الكبير، يحصر مشاهداته، ويجمعها الى بساطه، ويتساءل : هل من أجل كل هذا طرحت الرسالة؟

ألم يقل الله تعالى: (لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)(البقرة/١٧٧).

والتوسع الذي حصل، والذي توصلت اليه الدولة، هل هو تحقيق للرسالة، أم (هل)[1] أنه لا يزال مطية للجاهلية؟؟

والجاهلية التي جاءت الرسالة لدك معالمها، اتراها تناولت الرسالة لتعود فتنسكب فيها؟

واي تأثير كان للرسالة على (طي) و (أسد)؟

---

١ .لا توجد في الأصل والصواب ما اثبتناه.

وما بال طليحة الكذاب[١] تنساق وراءه قبيلة غطفان؟

وما شأن مسيلمة[٢] وسجاح[٣] من النبوة، ينجر وراءها بنو حنيفة في اليمامة وبنو تميم؟

وأية نبوة يدعيها الأسود العنسي[٤] فتلبيه بها قبائل البحرين وحضرموت وعمان واليمن بالذات؟

---

١ . هو طليحة بن خويلد الأسدي قدم هو وقبيلته سنة ٩ من الهجرة المدينة فاسلموا ولما رجعوا ارتد طليحة وادعى النبوة فوجه النبي ﷺ اليه ضرار بن الأزرد فضربه ضرار بالسيف يريد قتله فنبا السيف فشاع بين الناس ان السلاح لا يؤثر فيه ومات النبي ﷺ فكثر اتباع طليحة من قبائل اسد وغطفان وطي وكان يقول ان جبرائيل يأتيك وتلى على الناس اسجاعا امرهم فيها بتركة السجود في الصلاة فهاجم المدينة في عهد ابي بكر وقاتله خالد ومات في عهد عمر. (أضواء على الصحيحين، محمد صادق النجمي: ٣٧١)

٢ . مسيلمة الكذاب، هو سليمة بن ثمامة من بني طنيف ادعى النبوة وكان من المعمرين، نشأ باليمامة، ولما ظهر الإسلام في الحجاز وافتتح النبي ﷺ مكة وكانت له العرب جاءه وفد من بني حنيفة وكان معهم مسيلمة إلا إنه تخلف مع رجال خارج مكة فجاء الوفد الى النبي واسلموا واخبروا النبي بمكان مسيلمة ولما رجعوا الى ديارهم كتب مسيلمة الى النبي ﷺ من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله .. السلام عليك أما بعد .. فأجابه النبي: من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب ..وكان مسيلمة يضع اسجاعا ليضاهي بها القرآن الكريم وتوفي النبي ﷺ قبل القضاء على فتنته وفي عهد ابي بكر ارسل جيشا بقيادة خالد بن الوليد فقضى عليه سنة ٢٢هـ.

٣ . سجاح: أم صادر وهي بنت الحارث بن عطفان بن سويد بن خالد بن اسامة وتكهنت وتنبأت فتبعها قوم من بني تميم وقوم من اخوالها بني تغلب ثم اتت مسيلمة الكذاب وهو بحجر فتزوجته وجعلت دينها ودينه واحدا فلما قتل صارت الى اخوانها فماتت عندهم، وقيل انها هاجرت الى البصرة وحسن اسلامها (فتوح البدان، البلاذري: ١١٨/١).

٤ . الأسود العنسي: واسمه عجلة بن كعب كان يقال له ذو الخمار وهو من بني عنس، خرج بصنعاء وادعى النبوة وغلب على عامل صنعاء المهاجر بن ابي امية، وقد ادعى النبوة واخرج عمال رسول الله ﷺ في اليمن وقتل شر بن باذان وكان على صنعاء وتزوج بامرأة واستغلض أمره، وجاء أهل اليمن كتاب النبي ﷺ يأمرهم بقتله فتغير عليه قيس فعزم هو وفيروز وذا ذويه بقتله قتله فيروز في فراشه بمساعدة زوجته وأتى خبره الى النبي في الليلة التي قتل بها من السماء فقال ﷺ: قتل العنسي قتله رجل مبارك من اهل بيت مباركين (الكنى والألقاب، عباس القمي: ٢٤٨/٢).

وأن تكن سيوف المسلمين قد اخضعت هذه الردات المعكوسة وقادتها صاغرة الى الحضيرة، فكل كان ذلك النجاة بحيث يمكن القول ان تلك القبائل المرتدة أو المسترجعة من ردتها اصبحت مقنعة بصدق الرسالة؟

والفتح بعد حروب الردة، الفتح عينه الذي فيض الجزيرة على حدودها، وفيض عليها حدود غيرها .. هل هو الفتح الأكيد والفتح الصحيح الذي تتوخاه الرسالة كما جاء في القرآن الكريم (لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا)(النور/٢٧)، (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ) (النحل/٩٠)، (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)(الأعراف/١٩٩)، (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ)(الأعراف/٣٣)، (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)(الحجرات/١٣) .. وكما يقول الرسول: (ليس منا من دعا إلى عصبية أو قاتل عصبية) .. وكقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)(التوبة/١١١)؟؟

تلك الآيات من الرسالة .. ولم تشر أية واحدة منها الى حق اقتناء العبيد بالألوف، أو الى حق اقتناص الثروات بالملايين أثر غزوة رابحة أو معركة دامية.

ولم تبح استغلال الناس وانتهاك الحرمات والاستمتاع بالسبايا ..

إنما جاءت عكس ذلك .. لتخلص الإنسان من رقه، لا لتحرره ويسترق سواه .. ولتعيده الى حضن ربه حرا عزيزا، لا ليجعل من فكاكه قيودا للآخرين .. ولتحرره من مركبات ضعفه ومن سيطرة المادة عليه.

أكانت المادة جوعا يشغل بطنه عن عقله أم بشما يلهي عقله ببطنه؟

وجاءت توقظ العقل على مداه ولا الشهوات على مداها، وجاءت تمحو عصبيات القبائل لتجتمع في عصبية واحدة تعتز بها الجزيرة.

جاءت تبني الجزيرة .. تبنيها إنسانا سويا .. ثم مجتمعا سويا .. ثم انطلاقه سوية.

والجزيرة، حتى الآن، لم تبن .. إنها في نظر ابن ابي طالب في حاجة الى بناء يتناول الأساس .. الإنسان أولاً[1] .. الحاكم هو أول إنسان يجب ان يبنى.

وقد علمتم أنه لا ينبغي ان يكون الموالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وأمانة المسلمين البخيل، فتكون في أموالهم نهمته .. ولا الجاهل فيضلهم بجهله .. ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف للدول فيتخذ قوما دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف منها دون القاطع، ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة.

وليست المهمة بالأمر اليسير .. فإن تثقيف شعب لا يكون إلا بانعكاس طويل الأمد يعكسه حكامه وقواده عن طريق القدرة والتطبيق.

والجزيرة كانت بحاجة الى مثل هذه المدرسة الواسعة بل ان تستنفر قواها للقيام بحملات فتوحية تنقلها الى ما وراء حدودها.

وحدودها كانت مكشوفة لما تحصن بعد .. ولقد جاءت الرسالة لتحصينها.

---

١ . لهذا لم يكن للفتوحات الإسلامية في عهد الإمام علي الكثير من الاهتمام والتركز، لأنه ان يركز على بناء الشخصية الإسلامية وشخصيةالقادة الربانية القادرين على حمل عقيدة الإسلام الصحيحة لأن من خلالهم يتم نشر الإسلام المحمدي الأصيل.

وليس التحصين هنا بالمعنى العسكري، بل المقصود أنها لم تحصن بعد بحصون العقل الناضج والفكر المولد .. وهذا هو الذي كان يجعل فراغ جاهليتها أوسع من رقعتها.

ولهذا، فإن الفتوحات التي قامت بها، كانت ترتد دائما عليها بالغلبة، ولم يسجل لها أي انتصار إلا الرسالة التي قدرت ان تقدمها على رأس حسامها.

فإذا ما توفر للجزيرة ذلك البناء الصحيح، فإنها من نفسها تفيض على ما حواليها بفتوحات تحقق النصر، بدون حاجة ال السيف، بل بقوة الفكر المشع بالحق والعدالة.

والرسالة لم يحقق لها السف تلك الغلبة بقدر ما حققها لها العقل الذي تحمله.

كل ذلك كان يراه ابن ابي طالب وهو في عزلته..

كان يرى قبائل (طي) و (أسد) و (غطفان) و (بني تميم) لا تزال تفعل فيهم الجاهلية فعلها الأول.

وكان يرى الخط الذي يمشي عليه بنو هاشم وبنو أمية كيف كانوا يتنازعون عليه للوصول إلى كرسي تختبئ تحته مفاخر الزعامات ومكاسبها.

وكان يرى الفتوحات تحقق غير أهدافها وتستثمر غير يوانعها.

وكان يرى ان الجزيرة التي كانت لا تزال غافية حتى ليلة أمس، هبت كما يهب النائم المذعور لتنعم بالاسلاب والغنائم على حساب الرسالة المنورة من حيث اصبح الجهاد في سبيل الغنائم أكثر مما هو في سبيل تحقيق الأهداف.

كل ذلك كان يراه ببصيرة المراقب، وكان يعد له العدة الواقية ليجعلها موضع التنفيذ إذ تنتهي إليه مقاليد الأمور.

أما تلك العدة، فإنها كانت تتحلى أكثر مما تتحلى بالصلابة التي لا يمكن ان تقبل بالمساومة.

هكذا كان شأنه عشية تلك الاستشارة التي تقدم منها بها عبد الرحمن ابن عوف، من حيث توصلت الخلافة الى عثمان بن عفان.

الثاني ـ ملء يفرغ:

وهذا شيخ مسن، تصله بالخلافة نزعة قبلية.

على رسلك يا بن عوف!.. أردته شرطا، وأنه لكذلك!

فلن يعاون عثمان بن عفان إلا النخبة التي طبختهم مبادئ الرسالة، وكلكلتهم مواطئ الأحداث، ووسع النضج عقولهم ونفوسهم، وطرحوا الدنيا كأنها احقر من نواة، وعملوا للآخرة كأنها لديهم نعم المثوى ونعم المآب!

أما ذلك الذي أبعده الرسول لأنه كان يكتب لديه وشك بصدق وحيه، فإن عثمان ابن عفان لم يجد أصلح منه مساعدا له في الحكم، لذلك كان عبد الله ابن ابي سرح[1] واليا على مصر.

وكذلك الوليد بن عقبة[1]، ذلك الآخر الذي استحق لعنة النبي، فإن الكوفة تنتظره لسد الفراغ فيها وضبط كل أمورها وأحوالها.

---

١ ـ هو أخو عثمان من الرضاعة أسلم وقدم المدينة وكان له خط حسن وكان إذا نزل الوحي على رسول الله ﷺ دعا وكتب ما يمليه عليه رسول الله ﷺ وكان اذا قال له رسول الله ﷺ (سميع بصير) يكتب (سميع عليم) وإذا قال له (والله بما تعلمون خبير) يكتب (بصير) ويفرق بين التاء والياء وكان رسول الله ﷺ يقول: هو واحد فارتد كافراً ورجع الى مكة وقال لقريش والله ما يدري محمد ما يقول أنا اقول مثل ما يقول فلا ينكر على ذلك فإذا انزل مثلما ينزل فأنزل الله على نبيه ﷺ في ذلك (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ) فلما فتح رسول الله ﷺ مكة أمر بقتله وجاء به عثمان قد اخذ بيده ورسول الله في المسجد فقال يا رسول الله اعفُ عنه فسكت رسول الله ﷺ ثم اعاد فسكت ثم اعاد فقال هو لك فلما مر قال رسول الله ﷺ: لأصحابه ألم أقل من رآه فليقتله؟ فقال رجل كان عيني اليك يا رسول الله ان تشير إلي فاقتله فقال رسول الله ﷺ: إن الأنبياء لا يقتلون بالإشارة فكان من الطلقاء (تفسير نور الثقلين، الشيخ الحويزي: ١/ ٧٤٦).

ومروان بن الحكم[٢]، كان عنده انظف وأقدر من يمكنه استلام الديوان .. وللديوان أهمية كبرى، إذ عليه يتركز توجيه الدولة وتعيين سياساتها الداخلية والخارجية.

وهؤلاء الموظفون الذين يجب أن يوزعوا ويشرفوا على كل مراكز الدولة التي أخذت من حدود ارمينية وايران واذربيجان مرورا بالعراق وكل أجزاء الجزيرة الى الفسطاط في مصر، حتى (دنقلة في بلاد النوبة)[٣] حتى برقة في طرابلس الغرب، حتى قرطاجنة، حتى قبرص، حتى سوريا، وكل الممتلكات البيزنطية على شاطئ المتوسط، كل هذه الممتلكات المترامية الأطراف لم يكن

---

١. هو الوليد بن عقبة بن ابي معيط أخو عثمان بن عفان لأنه نزل فيه قوله تعالى: (إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ..) ولاه عثمان الكوفة فصلى بهم صلاة الصبح اربع ركعات ثم التفت اليهم فقال لهم هل أزيدكم؟ وشهد عليه رجلان بذلك عند عثمان فقال عثمان لعلي عليه السلام قم يا علي فاجلده فجلده عبد الله بن جعفر اربعين أو ثمانين بأمر علي عليه السلام وكان يعد عليه.

٢. هو مروان بن الحكم بن ابي العاص بن أمية بن عبد شمس وكان مولده سنة ٢ هـ وكان أبوه اسلم عام الفتح ونفاه رسول الله الى الطائف لأنه كان يتجسس عليه فسمي طريد رسول الله فرآه النبي صلى الله عليه وآله يوما يمشي ويلجلج في مشيه كأنه يحكيه فقال له كن كذلك فما زال كذلك الى ان مات وقال ابن الأثير رويت اخبار كثيرة في لعنه ولعن من في صلبه وكان يقال لمروان ولولده بنو الزرقاء .. وكان هلاك مروان سنة ٥ وسبب هلاكه ان زوجته أم خالد بنت أبي هشام بنت عتبة كانت قبل زوجة يزيد غضبت عليه وغطته بوسادة لما كان نائما عندها فتقعدت على وجهه فقتلته، وقد وصفه الإمام علي عليه السلام لما اراد ان يبايع انها كف يهودية لو بايعت بيده الغدر بسبباته (الكنى والألقاب، الشيخ عباس القمي: ١/ ٢٩٧).

٣. بلاد النوبة تقع في الجانب الغربي من النيل جاورت مملكة القبط، وهم ولد بيصر بن حام بن نوح تملكوا هناك، فصارت النوبة مملكتين، فإحداهما: مملكة الذين يقال لهم مقرة، وهم في شرق النيل وغربه، ومدينة مملكتهم دنقلة، وهم الذين سالموا المسلمين، وأدوا إليهم البقط (والبقط: هو ما سقط من التمر إذا قطع بخطئه المخلب) (النهاية في غريب الحديث ابن الأثير: ١/ ١٤٥) (وفي القاموس المحيط للفيروز آبادي ان البقط: قماش البيت وجمع المتاع وحزمه وان تعطي الرجل البستان على الثلث او الربع ..)، وبلادهم بلاد نخل وكرم وزرع، واتساع المملكة شبيه بشهرين. والمملكة الثانية من النوبة الذين يقال لهم علوة، ومدينة مملكتهم يقال لها سوبة والنيل متشعب عندهم في عدة خلجان (تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي: ١/ ١٩١).

ليقدر على ضبطها إلا هؤلاء الرجال الذين لا يمكن ان يجد عثمان الا من بين رجال بني امية.

هذا شرطك يا بن عوف، يضرب به عثمان عرض الحائط !

ولكن القضية لم تلبس أهميتها من هذه الزاوية وحسب فهي تتعدى هذا النطاق بكثير، إذ ليس مجرد تعيين رجال من بني أمية لاستلام إدارة الحكم هو الذي سيغير دفة التاريخ، فرجال بني أمية هم كباقي رجالات العرب، ذكاء على حدة، وصلابة على عزم، وصبر على جلد .. ومعاوية بن ابي سفيان راية بني امية وقطب من الأقطاب الذين يشح التاريخ بأمثالهم في الدهاء والمكر.

لم تكن القضية إذاً قضية رجال للحكم يجب ان يكونوا من بني هاشم أو من بني أمية أو من فئة لا هي بالهاشمية ولا بالأموية حتى يستقيم الحكم وتبقى دفعة الفتوحات مستمرة في زخمها الصاعد.

إن القضية كانت بجذورها أكثر مما كانت بأطرافها.

ولم يكن لينجيها تنكب فئة عن الحكم وتسليمه لفئة سواها، بل أن الذي يتمكن من ذلك كان افضاء الأمور الى رجال منخوبين، صقلتهم الرسالة وطبعتهم بطابعها، لأن الرسالة بطابعها هي الوحيدة التي قدرت ان تجمع وحدات الجزيرة لتدفعها في قوتها المحزومة.

وان تلك القوة المحزونة هي التي تمكنت من تحقيق معجزة الفتوحات.

ولولا الرسالة، لكانت الأوضاع ما زالت هي اياها..

فسيف خالد بن الوليد هو ذاته الذي كان في يده قبل الرسالة فلماذا لم يتمكن من فتح العراق وتفويض أركان حكومة (هرقل) لولا ان الرسالة هي التي شحذت هذا السيف ودفعت هذا الساعد وخلقت عقل هذا القائد.

ومعاوية، ذلك الرجل الداهية، هو ذاته كان يعفر جبينه على اقدام (هبل) ولم يكن ليرى في الطرف الآخر بواسق الشام بخضرتها ونضرتها على ضفاف (بردى) حتى جاءت الرسالة .. فاستعار منها عزمه، واسترق من روعتها بريق خلوده، حتى دانت له أعز مدينة كانت تغور جذورها الى قلب اغارقة اليونان.

وسعد بن ابي وقاص، ربما لم يكن له بيت يأوى إليه إلا من الشعر والوبر، يوم كان يدير وجهه ليتبرك بـ(مناة) ولم يكن ليحلم، لولا الرسالة التي امتطاها بعنفوانه الجاهلي، أنه سيتربع على إيوان كسرى.

كان ذلك يفعل الرسالة العجيب.

ولا شك في ان كل بعد عنها كان يرد العرب الى الواقع الذي كانوا فيه .. وهذا الذي قد حصل.

إن عثمان بن عفان قد ارتد اليه بعض جاهليته، وتنكب عن مضمون الرسالة.

وكما ان الرسالة هي التي خلقته لما امتلأ بها، هي نفسها، باستخدامه رجالا لم يعوها، ادت به الى فراغ رهيب.

مقتل عثمان

ما كنت تستحق القتل ايها الشيخ .. لولا.

فالقرآن الكريم الذي جمعت حروفه فأزلته ضمن دفتين من الصيانة[١] كان من اللازم على الأقل أن تحسب لك فضيلة حرزه وترد عن صدرك نصلات النبال.

وقبلك، دقت نبلة العذر في صدر من خلفت . وكانت نبلة مسنونة بكل المعاني، إلا أنها لم تقتل ابن الخطاب مثل ما قتلتك.

وللقضاء والقدر مخابئ في الأيام شديدة الاعتام .. منها ما يتحفز على نصلة تأكلها الصدى، ومنها ما ينساب بين الثنايا ينفث سمه من الفحيح، ومنها ما يتلبس جلد شاة تحته ظفر وناب، ومنها ما يتلوى بين زوايا غفت فيها الضغائن والأحقاد لم تلمسها قط كف الفضائل بالسماح.

أما أنت، فقد هيجت عليك، وكنت أنت المتغاضي عن اثارتها .. ولما أفقت كان قد (سبق السيف العذل).

والفرق بينك وبين ابن الخطاب : أنه أثار عليه (أبا لؤلؤة)[٢]، لأنه أراد ان يصون الجزيرة من أخلاط غريبة قد تؤدي إلى إفساد أمرها وعرقلة سيرها على

---

١ . إن أول من جمع القرآن بين دفتين هو الإمام علي ﷺ فقد جاء (لما توفي النبي ﷺ اقسم علي أن لايرتدي برداء إلا يجمعه حتى يجمع القرآن في مصحف ففعل) (تاريخ دمشق، ابن عساكر: ٣٩٨/٤٢).

٢ . أبو لؤلؤة هو غلام المغيرة بن شعبة وقد قام بضرب عمر بن الخطاب ست ضربات بخنجر له رأسان اداهن كانت تحت سرته وهي التي قتلته، وكان عمر لا يترك احداً من العجم يدخل المدينة فكتب المغيرة بن شعبة الى عمر ان عندي غلاما بارا نقاشا حداداً فيه منافع لأهل المدينة فإن رأيت ان تأذن لي ان ارسل به فعلت، فإذن له وقد جعل عليه كل يوم درهمين وفي أحد الأيام قال له عمر ان يضع له رحى وقال نعم اصنع لك رحى اشترت بين الشرق

خطها الجديد .. فوقع صريع محاولته القاسية في سبيل النظر إلى مستقبل أمته كما دله رأيه.

أما أنت، فإنك تساهلت بإفساح المجال لاندساس السموم في جسم دولتك الطري عودها، فاغتالتك أنت تلك السموم من حيث حسبت عليك أخطاء القيادة.

والغرب وقد التفت عمر لأصحابه فقال هددني هذا العلج بالقتل وخاف منه عمر واختار الانزواء عن الخلق مدة اربعين يوماً وقد جعل لنفسه سربا تحت الأرض من بيته الى المسجد (مجمع البحرين، الشيخ أبو الحسن المرندي: ٢٢٢).

أول ثورة

في تاريخ الجزيرة

إن الرهبة التي خيمت على الساحة وهي تمتص دماء الخليفة الصريع، كانت من النوع الذي تخلفه العاصفة إذ تسكت فجأة تاركة في الجو سحب الغبار.

والعاصفة التي هاجت ثم ركدت، كانت من النوع المجنون الذي يهب في الصحارى دون ان تخفف وطأته لا حنايا الأودية ولا صدور الجبال.

غير أنّ الثورة ذلك شأنها في هبوبها .. أمّا شأن الحاكم فيها، فإن له كل القدرة في تحريكها لتعصف في الوقت الذي يكون هو فيه أضعف من يقدر على ان يقف في وجهها.

وهكذا كان عثمان بن عفان .. فإنه تمكن من أن يخلق الثورة، لا بل إنها ترعرعت في حضنه منذ تربع على كرسي الخلافة .. ولم يتمكن من الصمود في وجهها.

ولم تكن الجزيرة لتعرف كثيرا الثورات بمعناها الحقيقي، رغما عن أنها كانت تمارسها في أشكالها البدائية.

ذلك كان هو الغزو الذي كان استاذها الأول، الذي تتلمذت على يديه وحده، ولم يقدر أن يقدم لها في مدرسته الضيقة إلا بعض فصول في الفروسية .. فأتقنت امتشاق السيف والرمح، ورمي النبال، وامتطاء الصهوات، واعتلاء الرواحل، والعدو السريع خلف الطرائد.

وجاء الإسلام في رسالته الجديدة، فكان ثورة على الأوضاع، وأول مدرسة علمت الجزيرة فروسية الانتفاضات وفنون الثورات.

وتعسا لأمة ليس لديها مدرسة كبيرة من هذا الجليل.

وهكذا ابتدأت الجزيرة تشعر بقيمة الإنسان فيها.

فالإسلام كان فجر تاريخها، ولقد كان حكم الخليفة الثالث أول امتحان لتلاميذ المدرسة الجديدة التي رسخ ركائزها في المجتمع النبي العظيم.

وعثمان بن عفان منذ أن تسلم الحكم بتلك النفسية المستهواة بحب الوصول دون ان يكون لهذا الوصول إلا أهداف ضيقة، كان يهيئ لنفسه، دون ان يدرك مثل هذه النهاية المروعة.

فالأهداف الضيقة هي حتما اذ تشبع تضيق على ما فيها، والحاكم ليس إلا ليستهلك .. وكل شيء في الحياة كذلك.

فالوسيلة التي تستخدم للوصول الى نتيجة يستغنى عنها فورا بعد تحقيقها، ما استعملت لتأديته.

وليس الحاكم على غير هذا القياس.

فإن لم تكن اهدافه من النوع الذي لا ينتهي، فإن المجتمع ينبذه إذ ينضب معينه .. والمجتمع لا يرحم.

وكذلك الوسيلة التي لا تصيب غايتها، فإنها تنبذ كما ينبذ الوالي الذي يسيء الى ما انتدب إليه.

كل ذلك قد كان في قضية عثمان..

فالثورة التي وسعت الرسالة فجوتها على شعب الجزيرة، أصبحت ترفض الإثرة، لأن الإثرة كانت سببا جذريا في تكوين مقومات انتفاضتها.

وها هو الاستئثار بالحكم وبمغانمه، من ثروات ومناهج واستمتاع، تنهال كل فروضة على عثمان وكل من دار في فلك عثمان من بني أمية، الأقرب فالأقرب .. كأن الوصول الى الحكم لم يكن إلا لهذه الغاية، لاشباع هذه الانهام ..وكأن الفتوحات وكل مكاسبها لم تكن إلا لسد هذا الفراغ ولا بني أمية أنفسهم.

وليس، كما جاء سابقا، وجود رجالات من بني أمية بالحصر هو الذي جسم الأخطاء لو أن هؤلاء كانوا على خط واضح من الأهداف الكبيرة التي تجيء منساقة مع خطوط الرسالة التي وضحت كل الأهداف.

هذه بعض الأسباب المباشرة في خلق الثورة، وليست كلها.

فهنالك اسباب غير مباشرة أدت الى هذه النتائج، وإن تداركها من جذورها كان أولى به (مجلس الشورى السداسي) الذي مثلته بآخر تفويض منه عبد الرحمن بن عوف.

من هذه الزاوية كان من الواجب ان يدرس وضع الجزيرة بوجه عام، لأن للرئاسة الأولى مثل هذا المعنى الشامل الذي هو حري جيدا بهذا الاهتمام.

من المعلوم، والواضح، ان الجزيرة العربية، حتى فعل الرسالة الجديدة، كانت تعيش عدة مجتمعات متنابذة في مجتمعها الواحد الأكبر.

قبيلة حرون كانت تفعل فعلها الجاهلي.

وكان يئن من هذا الواقع الغشيم تاريخ الجزيرة.

واقع كهذا كان يساوي انحطاطا عاما في المجتمع لينعكس في الاقتصاد، في التفكير في الاجتماع.

وجاءت الرسالة، فتمكنت، بعد محاولات قاسية من فرض نظامها الجديد .. وتقبلتها الجزيرة بسرعة، لأنها وجدت فيها الدواء المصيب في شفاء امراضها.

ومن البديهي ان يدرك ان الرسالة كانت عقلا وفلسفة نابعين من واقع الجزيرة .. ولو أنها كانت غير ذلك لما تقبلها المجتمع بسهولة، غير انها بصفتها عقلا وفلسفة كان من الواقع ايضا ان لا تدرك إلا في مفعولها، لأن الإنسان المجتمعي يرفض العقل المتفلسف كعلم ويقبله كتأثير ونتيجة، كما يقبل المريض الدواء على افادته المجردة وليس على فهم تركيبه العلمي.

إن هذا الفهم عينه يكون من نصيب فئة قليلة تسمى (النخبة)، وهي التي تعكس هذا الفهم على تيارات المجتمع ليفعل فعله الصحيح.

هذه النخبة تكون المسؤولة بقدر ما تفهم، وهي التي تعكس ما تفهم.

من هنا، ان الرئاسة الأولى يجب أن تكون حتما من بين هؤلاء النخبة، بحيث يضيق التعيين حتى ينحصر في القمة.

وقد يخطأ التعيين وقد يصيب .. فلئن يصب فتلك هي الغاية المنشودة، ولئن يخطيء فبقدر هذا الخطأ تكون مساوئ النتائج.

والنتيجة في عثمان بن عفان دلت على وجود الزلل، ويفهم من ذلك:

ان الرئاسة هي اخر نقطة من سلسلة الانتخاب الذي لا يكون على صواب، إلا إذا كان منسجما مع الواقع الذي نخب من أجله.

والواقع، كان نتيجة ثورة فكرية اخذت تنبذ الروح القبلية لتحل مكانها زعامة المجتمع.

ولقد اقتنعت الجزيرة بصوابية المبدأ، واستيقظت في قيمة الإنسان. ولهذا فهي لم تقبل باب عفان متسلطا يعيدها الى أمسها الدابر، سيما وان امسها المقروح لم يبعد، فهولا يزال يتصل بيومها الحاضر.

ثم ان الرسالة التي جاءت تعالج الواقع الراهن في الجزيرة اصبح لها هي الأخرى واقع آخر يجب معالجته حتى تستكمل غايتها، ألا وهي توسيع استيعابها ليخرجه فهمها من نطاق النخبة الى نطاق المجموع، كي يتعدى الاقتناع بصدق معالجتها للأوضاع الشعور بقيمتها الى التحسس العميق بحقيقة هذه القيمة، وهذا ما يخرج من نطاق المعرفة السطحية الى ناطق الثقافة التي تكتسب عن طريق الممارسة العقلية على المدى الطويل.

كما ان الفتوحات التي قامت بها الدولة، بعد أن جمع قواها نداء الرسالة، جاءت تقلل من قيمة المدرسة التثقيفية التي كان المجتمع بحاجة اليها كعدة فكرية نفسية تتسلح بها قبل ان تتسلح بالسيف والرمح.

من هذا القبيل، كان من الضروري على (مجلس الشورى) ان يعالج هذا الواقع الجديد على ضوء العقل الذي يليق ان يعالج به اوضاع الدول، لا عن طريق سطحية المساومات وارضاء روحية العصر المولي.

وتعيين عثمان بن عفان للخلافة لم يراع شيخوخة هذا الرجل في عجزها عن القيام بمثل هذا التحقيق والتجديد.

كما ان القضية لم تدرس بهذه الحيطة التي تتطلبها لها جدية الأحداث من حيث بقيت العلة تنمو وتتضخم حتى انفجرت بثورة اودت بحياة الرجل، والقت المجتمع الجديد بين أشداق ثورات داخلية، وأخذ يتمرس بها كمخرج

يشعر بجدواه منا تدعوه الحاجة الى اعلان تذمره من الوضع .. أيكون معه حق بإعلانه أولا يكون؟

الساحة المكشوفة

ان الساحة التي كشفت بمقتل الخليفة، لم تكن ليغطيها أي كان من المتنافسين.

فالتجربة التي مر بها عقد وسنتان، كانت شبه كافية لخلق فكرة إيجابية في كيفية الحكم في لوازم لقاء التبعات على كواهل الأقطاب.

وليس معنى ذلك: ان النضج قد اصبح شاملاً كل الموائد.

فالناقمون كانوا مقسومين الى فئتين: فئة الأسياد الطامعين بالمركز الشهي، وفئة الشعب المتذمر من الظلم والتعسف.

غير ان النقمة الشعبية لم يكن لها كبير شأن مع هؤلاء الأسياد .. فهي إنما جمعها السأل، حيث الذي لحقها من فساد الحكم .. فأقدمت على فعلتها، ثم راحت تتطلع الى من يسد هذا الفراغ.

ولقد كان حاضرا في ذهنها ذلك السيد الذي يتمكن من ضبط الموازين، فهو عينه الذي كانت تشتاقه الساحة منذ ربع قرن.

ولقد عاد في هذه اللحظة الواجفة ذلك السؤال، يبحث بنهم عن الجواب:

لماذا نكب، منذ البداية عن الساحة فتاها؟

ولكن الماضي قد تغطى بما منع الإلحاح من طلب الجواب.

إما الآن، فلا سبيل للتغاضي .. فالوضع في أحرج ما يكون تشديدا في طلب الجواب.

فعلي بن ابي طالب، هو ركيزة الأساس، وهو بالنسبة للرسالة كل الرسالة، في تأسيسها وفي طريقة المحافظة عليها، في نشرها وفي مجالات الدفاع

عنها .. وإن له أطول سلسلة من النعوت والكريمة يتحلى بها، فهو قوة، وإرادة، وشجاعة، وبطولة، وعقل، ومعرفة، وحق، وعدالة، ومثال، وكمال..

فأي شيء يحول دون تسليم زمام الى يد كريمة كهذه اليد التي يعز نظيرها في كل الجزيرة.

أما أبو عبيدة بن الجراح، فإن الساعة الحاضرة ترفض تمام الرفض الإصغاء إلى مثل نصائحه، فإن ابن أبي طالب لم يكن في أي يوم من أيام شبابه أقل حكمه وأقل رشدا من أي يوم من أيام كهولته، ولكنه كان الحريص على الرسالة، وكان الكريم وكان الرضي بكل خلقه وكل سجاياه.

فإذا ما قبل الخلافة تتجاوزه الى غيره من الأسياد الكهول، فلأنه كان يتعمم فضيلة نكران الذات، وكانت كفايته ان يرى الرسالة تسترد الجزيرة من جهلها الى عقلها، ومن خزيها الى مجدها، ومن دنياها الى ربها، ومن خمودها الى انطلاقها.

وكان في كل ذلك يسدد خطى الذين سابقوه الى حقه في القيادة مرتضيا بصحة العقيدة ونجاحها ... وهذا كان حسبه من دنياه.

أما الأن، والرسالة لم تعد مكاناً، بل اصبحت مدى .. فلا يجوز ان تترك في الساحة المكشوفة، يتناوشها الطامحون ويتقاذفها المتنافسون.

فلترتعد فرائص قريش، ولترجع الأكباد الى النحور، فإن الكنز الثمين لن يكون عرضة للمناهب.

وهكذا كان التصميم عشية مقتل الخليفة، وهكذا اصغت آذان الثائرين ليسمعوا الجواب الذي ما زالوا في سماعه منذ ربع قرن من علي بن ابي طالب نفسه.

بين التردد والقبول

قيل لعلي: لا نجد اليوم أحدا أحق بهذا الأمر منك.

فقال: لا تفعلوا، فإني لكم وزير خير مني أمير!

ومن خطبته يوم المبايعة: (إني كنت كارها لأمركم إلا أن أكون عليكم).

إن السبب الذي دفع بابن ابي طالب الى التردد في قبول استلام الخلافة الجديدة هو عينه الذي لج عليه بالقبول.

فمن جهة أولى انه لم يكن بعقله الثاقب ليريد ان تلعب أدوار مثل هذه المأساة على كرسي الرئاسة، لأن ذلك لما يقلل من قيمة المركز الكبير الذي اصبح قاعدة لأكبر امبراطورية في الشرق العربي.

وليس من مصلحة هذا التوسع الضخم باسم الرسالة الجديدة أن يشاع على العالم ان القيمين على مبادئ التأسيس تنخرهم المنازعات الصغيرة في سبيل الوصول الى الكرسي بدل أن يكون محاطا بهالات من الكبر والوقار، تستبد به أهواء هزيلة و حقيرة، أكثر ما يمكن ان تنعت به انها حب الاستئثار على جشع .. لذلك، فإنه بذل قصارى جهده للحيلولة دون الوصول الى آخر مشهد من مشاهد المأساة.

وكان يسعى الى وأد الثورة بتعليلها بالإصلاح.

وكان ينجح لو ان مروان بن الحكم ساعده بذلك، أو لو ان النية الحسنة أتته من ذلك الجانب .. ولكن الذي حصل غير المقاييس وبدل الجو الى اكفهرار من حيث و قع المحذور.

ومن جهة ثانية، جاء الحديث الجديد يسلط عليه كل الأضواء، فكأن الثورة كانت تنظر إليه قبل أن تتحرك وهي عن وعي منها وعن غير وعي.. صممت ونفذت لأن ابن ابي طالب كان يملأ ذهنها بكل عظمته، وكل جبروته .. ولو أنه لم يكن موجودا لكانت اقل اندفاعا إلى تحقيق ما أقدمت عليه، ولكن الثورة كانت تنظر إليه دون ان تصغى الى حكمته وتحفظاته.

وعلى كل حال، فالثورة لا تؤمن كثيرا بالحكمة والتحفظ.

تجاه هذا الحديث الجديد، وقف ابن أبي طالب يقيس الأمور بمقياسها الأنوف.

وتردد في قبول الخلافة المطروحة عليه فرضاً، لأنها تأتيه عن طريق فيه تذليل للرئاسة وهوان لها، وهي المركز الذي يجب ان يكون محفوفا بكل معاني الحصانة والإجلال.

ولكن الحقيقة كان تفرض عليه فرضا آخر يجرده من تصلبه الأنوف ... فالمركز الخالي ليس هو الذي ذل .. ثم أنه كان يدرك ان الطامعين بالمركز المغري هم يجردونه من هالاته الكبيرة وهم الذين يتسابقون الآن الى نهب ما يتبقى له من كرامات.

ولم تكن لتغريه الرئاسة، فإنه لم يطلب يوما مجد الدنيا وكنوزها[1]، وكثيرا ما توفرت له في فرفضها .. ولكنه كان يتشدد في طلب الخلافة، أنه كان يؤمن تمام الإيمان بنفسه، ولم يكن شديد الإيمان بغيره، بأنه هو الذي يتمكن

---

١ . عن ابن عباس قال: دخل علي امير المؤمنين عليه السلام بذي قار وهو يخصف نعله قال لي ما قيمة هذا النعل؟ فقلت لا قيمة لها قال: والله لهي أحب الي من امرتكم إلا أن أقيم حقا أو أدفع باطلا (شرح مئة كلمة، ابن ابي ميثم البحراني: ٢٢٨).

من صيانة اقدس وأجل ما نتجه الفكر في سبيل خلق الإنسان العظيم الذي هو تراث الحياة العزيزة.

وإن الرسالة التي قدمها النبي لم يكن هو أخف منه شأناً فيها، فإنه والنبي أبواها.

هكذا قال الرسول ﷺ: (أنا وأنت يا علي أبوا هذه الأمة)[١].

فالرسالة له، وهي جزء منه .. من عقله، من قلبه، من كل كيانه .. فمن[٢] الذي يكون أحق منه بالدفاع عن نفسه؟

إذ، ليس حب الظهور هو الذي دفعه من قبل الى المطالبة بهذا الحق، وليس حب الاستئثار بالمغانم هو الذي يدفعه الآن الى القبول .. بل الرسالة التي اصبحت تحقيقا للأهداف التي من أجلها بنيت ولن تترك الرسالة تتراجع عن اقل من مداها.

ولبى علي بن ابي طالب نداء الثورة، وقبل الخلافة وفي يده عدة جاهزة للحكم الذي يتلبد أفقه بالغيوم.

---

١ . مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب: ٢٠٠.

٢ . في الأصل فمن هو الذي

العدة الكاملة

من الظاهر أنَّ وصول الخلافة الى ابن ابي طالب كان بمفاجئة .. أن ذلك كان بالنسبة لأحداث الساعة، لأنه لم يكن كثيرا من المنتظر ان يختتم حكم الخليفة الثالث بدمه وأن يكن ذلك قد أصبح له من المدة الأخيرة شيء من الحسبان.

أمّا بالنسبة للخليفة الجديد، فإنه لم يفاجأ بالحكم على قلة استعداد الحكم..

فهو منذ وفاة الرسول، لا بل منذ كان الرسول على قيد الحياة، حتى وقبل أن تعلن الرسالة على الملأ، كان يمارس سياسة الحكم.

لقد مارسه وهو يافع يراقب سير كل حركة من تنقلات النبي الكريم ﷺ، ثم مارسه وهو فتى لا ينسلخ لحظة عن مرافقة ابن عمه وهو يتقبل الوحي ليصوغه آيات بينات، ثم يمارسه وهو بالرفقة العزيزة الدائمة يعقدان الجلسات السرية الاستشارية في كيفية نقل الأمانة الى حيز العمل الجدي ثم مارسه في تنسيق هجرة واقية كسبت من الوقت عدتها وصيانتها، ثم مارسه في الرجوع الى المدينة كانت بالانتظار حشود الأنصار.

ثم مارسه بايمانه وعقله الكبيرين، اللذين تفتقا على لسانه وساعديه بتلك الشجاعة والبطولة النادرتين، فخاضا غمار سلسلة من المعارك الدفاعية الباهرة، من حيث وطد الرسالة على أساس من القوة والمتانة جعلاها تستند إليهما في أضخم وأروع انطلاقه حققتها رسالة في وجه التاريخ.

أما أن يكون قد تغيب عن اجتماع السقيفة، ذلك الاجتماع الذي غمط فيه حقه بالخلافة، فإن ذلك لم يبعده عن إكمال سلسلة ممارسته للحكم طيلة ربع قرن.

ولكنه بقي يمارسه بالمراقبة اليقظة، وينتقل معه من حدث الى حدث، ويشارك القيمين الثلاثة عليه مشاركة المخلص الوفي، بصفته أول واحد من أهل البيت، وبصفته صاحب الرسالة، وأول الصحابة، ومن أصدق أهل الحديث، وعلى رأس المفقهين، ومن أخلص أهل الرأي ومن أرسخ علماء العصر.

وكانت ممارسته بالمراقبة من أشد الممارسات كسبا له، فوسعت خبرته من سياسة شعب الجزيرة الى سياسة باقي الشعوب، ونقلته بالرسالة من حيزها الملكي إلى نطاقها العالمي.

وهكذا يمكن القول: ان عليّ[1] بن أبي طالب ما توصلت إليه الخلافة وهو بحاجة الى استجماع العدة لها، لا بل بالعكس .. فإنها كانت تعدو سريعا للحاق به حتى تستقيم بطريقه طريقها.

فالعدة كانت جاهزة وكاملة .. جاهزة من الأساس بكل مقدمات الحكم، وهي لم تكن محصورة بكثير من البنود.

فهي، أولاً وآخراً، مختصرة موجزة، بناء الشخصية.

فابن ابي طالب لم يمكنه أن يفهم المجتمع إلا شخصية مبنية على الأساس على الفضائل.

---

١ . في الأصل (علياً).

وحتى يتمكن من بناء الجزيرة بناءً يجمع قبائلها إلى قبيلة واحدة لمصلحة الجزيرة العامة، شدد على الفضائل .. فهي وحدها، في نظره، التي تبني المجتمع الصحيح.

وكأني به رسماً لذلك هذا التصميم كشجرة يتدرج عليها الإنسان في حضن الوجود، إذ منه ينبثق وإليه يعود.

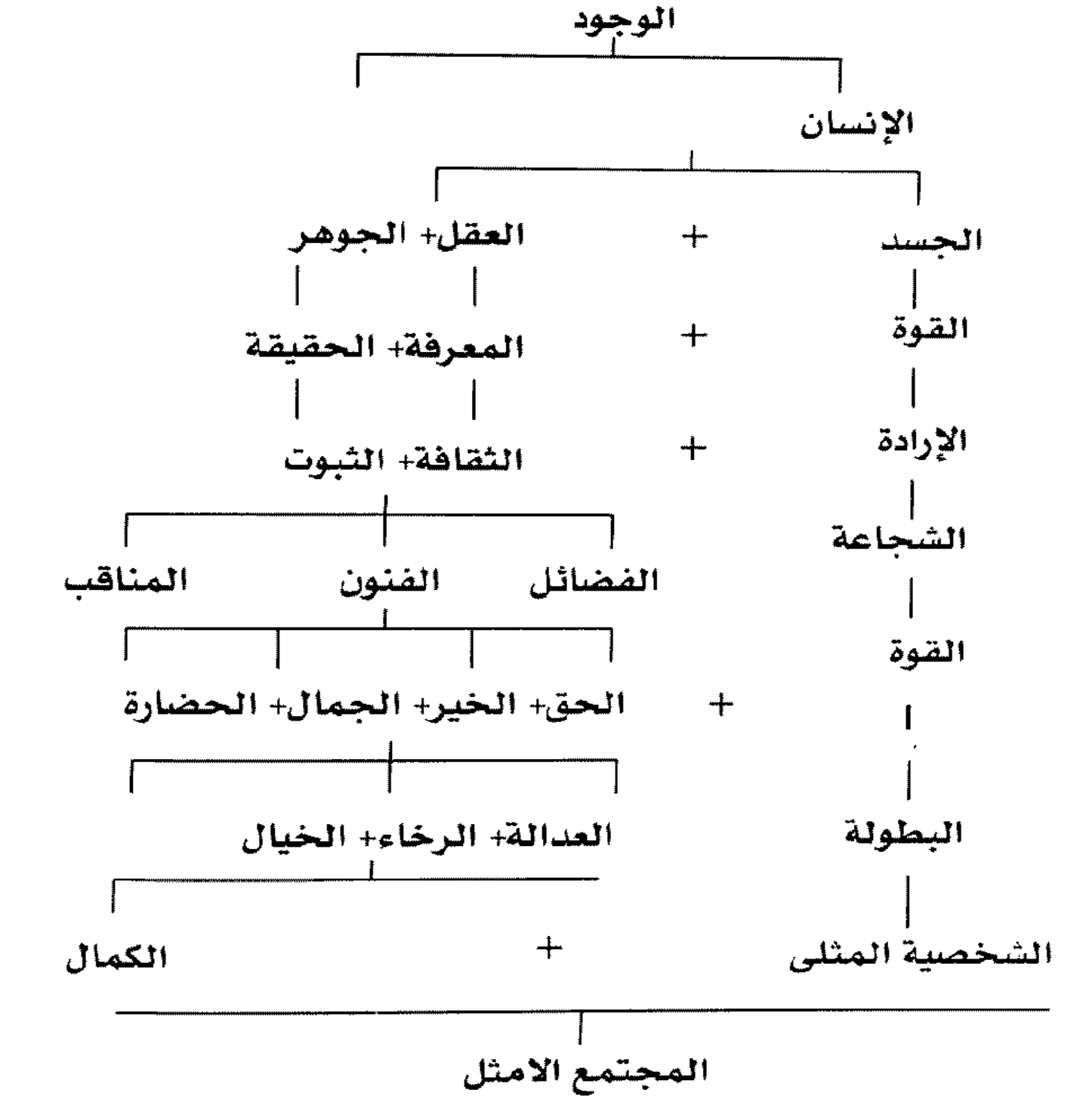
الوجود
الإنسان
الجسد
+
العقل+ الجوهر
القوة
+
المعرفة+ الحقيقة
الإرادة
+
الثقافة+ الثبوت
الشجاعة
الفضائل
الفنون
المناقب
القوة
+
الحق+ الخير+ الجمال+ الحضارة
البطولة
العدالة+ الرخاء+ الخيال
الشخصية المثلى
+
الكمال
المجتمع الامثل

من هذا الشكل يفهم ان الوجود بشموله هو الله ـ عز وجل ـ الذي هو العلة الكبرى .. وهو الجوهر الكامل، والحقيقة الكاملة، والثبوت الدائم .. لا تحوير ولا تبديل، بل كينونة يلتقي فيها الأول والأبد، ينبثق من الوجود الإنسان بحديه: الجسد والعقل.

من الناحية الأولى، يبرز العقل الذي هو صفوة الجسد .. هذا العقل الذي يمكنه ان يحتك بجوهر الوجود لتتناسل من هذا الاحتكاك خيوط المعرفة..

المعرفة بدورها، وهي تلامس حقيقة الجوهر، تنقلب من معدن النفس لتصبح ثقافة الإنسان.

أما تلك الثقافة التي هي نتيجة هذا التماس المنور، فإنها تلتحم بهذا الاحتكاك مستمرة بالتحامها الى ان يكسبها الجوهر، فإذا مواليدها منه هي الفضائل والفنون والمناقب.

أما الفضائل والفنون والمناقب، فإنها تتلاقح من بعضها البعض لتنجب على التوالي الحق والخير والجمال.

ثلاثة توائم تربو في احضانها حضارات البشر، وتتوالد منها، على السواء، العدالة والرخاء والخيال .. ثلاثة ينابيع هي كوثر الوجود الكمال.

من الناحية الثانية، يبرز الجسد الذي هو قاعدة العقل، فالجسد باتصاله بالعقل المحتك بالجوهر يكتسب القوة..

القوة نفسها تبقى بلا معنى حتى لا يباركها بهاء المعرفة، إذ ذاك تصلب وتصب ح إرادة.

الإرادة بدورها ينقصها التوجيه والثقافة الخصبة تسدد خطاها، عند ذلك تتجلى الإرادة بهذا البارك الجميل الذي هو الشجاعة.

الشجاعة نفسها تبقى قوة غاشم ان لم يصقلها الحق والخير والجمال، وعند ذلك تنقلب الى بطولة تعمر بها النفوس والعقول قبل ان تصلب بها السواعد والمتون .. بطولة لها وزن الجمال .. ووزن الحق، ووزن الخيال .. وهي حلية الكمال، خير حلية تلبسها شخصية الإنسان.

فالنتيجة: ان مجتمعنا ينشأ على مثل هذه الفضائل المتسلسل بعضها مع بعض لمجتمع مثلي بعد ان تتطرق اليه عوامل الوهن.

وهكذا رسم الخطة منذ البدء، منذ ان حمل الرسالة بيده يلوح بها كمنقذ الجزيرة.

ولقد طبقها طوال حياته على نفسه، فإذا اعتقاده بالله اعتقاد راسخ قل ان يخلو حديث له من ذكر ربه.

ولم يغرف عقله إلا من جوهر هذا الوجود الذي هو (الله) فكانت لديه المعرفة الكاملة بأبهى معانيها.

وتثقف بهذه المعرفة، فأصبح لديه خزان طافح بالفضائل والمكرمات، حتى لا يمكن القول إلا ان عليا بن ابي طالب هو مثال العفة والصدق والنزاهة، ومثال القوة التي تسلحت بالإيمان والحق والعدالة، فانطوت فيه تلك الإرادة الصلبة، وفاضت عليه تلك الشجاعة النادرة، واندفقت به تلك البطولة الخارقة، من حيث برزت شخصيته المثلى التي أحب ان يكون بها قدوة لبني قومه في سبيل بناء الجزيرة ذلك البناء الأمثل.

وها هو ذا الآن يتسلم دستوريا بالحكم .. لا بل أنها تطرح عليه هذه المقاليد اثر انتفاضة ولدتها الحاجة إليه.

والحكم اليوم غيره بالأمس .. فعلى ابن ابي طالب بان يتحمل اتعاب الترميم ثم اتعاب الاستئناف في السير الطويل.

فالرسالة ليست بعد طفلاً يحبو بين مكة والمدينة ، بل اصبحت ذلك العداء الذي يلتهم المسافات رغم الحدود ، ولن تليق بها اقمطة الطفولة ، واصبحت بحاجة إلى ما يشد حقوبها في ترحالها السريع .. وهي لم تهبط قطرا من الأقطار إلا واحتلت مدينة قائمة وعزا شامخا ، وأنه من الحيف أن ينقل وهجها من لا يدرك قيمتها.

من هنا ، ان ابي ابي طالب كان يدرك ان الرسالة مشى بها من لم يستكمل بعد استنارته منها ، وان الفتح الذي حققته إنما كان بقوة فاعليتها اكثر مما كان بقوة الذين حصلوها .. ولن تكون النتيجة ، عندما يثوب الفتح الى رشده ، لمصلحة الجزيرة إلا بشكل ضئيل.

ثم ان الرسالة ، وهي دنيا ودين ، لم تكن مطلقا لتحصر ضمن حدود الجزيرة.

فالدين لله ، والله ليس للجزيرة وحدها؟

أما الجزيرة بالنسبة للرسالة ، فإن لها فخر المولد وشرف المصدر .. وحرام عليها ان تكون اقل قيمة من مواليدها ، واخفض جانبا من صادراتها.

لذلك كان علي. في غيرته على الرسالة وفي غيرته على الجزيرة ، يرى ان تثقيف ابن الجزيرة بفضائل الرسالة هو الواجب الأول الذي كان لازما ان يسبق كل الفتوحات.

ولكن الفتوحات ، باسم الرسالة ، قد سبقت هذا التدرج المطلوب ..

وبدلا من ان تحقق افادتها المرجاة اتت بالعكس من ذلك.

فالشخصية التي كان منتظرا أن تمتن بالفضائل جاءتها الفتوحات لتغرقها لي بحبوحة من الثروات والغنائم، فأفسدت عليها بدنياها دينها الذي لم يستحكم فيه ثقافتها بعد..

حتى الخليفة عثمان بن عفان اصابه هذا الدوار الخبيث، فابتنى الثور على حساب الجهاد، واغرق أهله وذويه بمثل الذي غرق فيه، ليسجل التاريخ عنه مهزلة سوف يلصقها ومخازيها بتاريخ الفتوحات.

وليس هذا الواقع الحار بأقل حاجة الى المعالجة، وليس الرجوع الى الوراء ممكنا، ولا المضي الى الإمام بالنهج القديم بمضمون النتائج.

هكذا فرضت الخلافة على علي عبأ النضال على جبهتين: جبهة تعالج من جديد تخت الشخصية العربية، وجبهة تعالج الفتوحات لتبقى على معناها الأصيل.

وهنا يبرز أسياد الجزيرة، الذين لا تزال تشدهم الى الوراء تلك ال عنجهية في عصبياتهم التي كانت تطل من حين إلى آخر كلما سنحت لها المناسبات تدفعهم الى الالتجاء اليها نفوسهم المريضة بحب السيادة، من حيث لم يتمكن الحكم الذي انقضى من صهرهم وصبهم في القالب الجديد، ويساند بقاءهم على مثل ذلك التلهي بالتوسع الفتحي، من حيث انصبوا هم انفسهم على خوض غماره لزيادة كسبهم منه على الصعيدين المادي الرئاسي.

والصعيد الثاني كان حقيقا للأول.

وهكذا استعملوا الرسالة وسيلة، لا غاية، بحد ذاتها.

وكانت كل ازمة تصطدم بها مصلحتهم تجعلهم يقفزون كل الى قبيلته غير غابئين بما يصيب الرسالة الى انتكاس.

وتبرز ايضاً، من ناحية ثانية، فئة الشعب الذي جاءت الرسالة من أجله، لتخفف من بؤسه، ولتوقظ الإنسان فيه.

ان الشعب هذا هو التي لا يزال يلعب بها هؤلاء الأسياد، فيجعلونها مطية لأهوائهم ونزواتهم، ويستخدمونها في سبيل الحصول على غاياتهم ومآربهم.

ذلك الشعب نفسه، على انعدام ثقافته، رمي في الساحة لتحقيق الفتوحات، فطاب له طعم الغنائم على زنود السبايا، لكن ذلك إذ يدوم له يوما فلن يدوم يومين.

والرسالة إنما جاءت لتشبعه كل عمره، ولن يكون شبعه إلا عن طريق ايقاظ عقله، العامل الوحيد في انماء اقتصاده الشريف.

إن هذا الشعب لم تشبعه بأجمعه نعم الفتوحات، والذين بقوا بعيدا عن الموائد حركتهم المجاعة الحاسدة.

وهكذا الرسالة التي خلقت لتجمع، إذا بها تتعرض من جديد لتفسخ أقسة مما عليها.

في هذه الفوضى كانت الجزيرة تدور في اخر أيام ابن عفان، من حيث انفجرت ثورة ما استهدفت منقذا لها إلا ابن ابي طالب.

هذا الإنسان في الجزيرة، من سيد يحاول دائما تثبيت سيادته الى شعب لا يزال اتعس مما كان في جاهليته، هو الذي يقابل عليا في أول خلافته ليعيد النظر في كيفية بنائه انسانا جديدا يليق به ان يكون عدة ناضجة لاستكمال معنى الفتوحات.

إزاء هذا الواقع المؤلم، شمر ابن ابي طالب عن ساعديه، ليعود فيستعمل تلك البطولة التي ما انفصلت يوما عنه .. فهي نفسها لا تزال عادة منذ وعي الرسالة حتى اليوم.

ولن يتمكن من النصر ما لم يلجأ اليها، فهي لديه مستكملة كل شروطها لذلك فإنه لن يرضى باي نوع من انواع المساومات، ويستعمل كل فضائله دون ان يستنفذها، في سبيل الوصول الى بناء الإنسان في الجزيرة .. وسيقدم نفسه القدوة المثلى، وسينتصر الانتصار الكامل، لأنه سوف يبقى عنوان الإيمان بالله، ومثال الصدق والعفة والنزاهة، ومثال الشجاعة والبطولة في الدفاع عن قيم الحق والخير والجمال.

وسيبقى والنبي الكريم أبوين صميمين لأمة العرب..

عبأ القيادة

قال علي :

(من نصب نفسه للناس إماماً، فعليه ان يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، ويعلن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه .. ومعلم نفسه مؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم)[١].

الراية الجديدة:

(ولقد أصبحنا في زمان قد أتخذ أكثر أهله الغدير كيسا، ونسبهم أهل الجهل فيه الى حسن الحيلة .. ما لهم؟) .. هكذا قال علي[٢].

إن الراية الجديدة التي خفقت عزيزة فوق رؤوس المسلمين، وظللت ارجاء الجزيرة، وامتد تحت وارفها الفتح من مبازغ الشرق الى مهابط الغرب، قد رثت خيوطها وحالت الوانها، فهي لم تعد خليقة بعد ربع قرن بأن تحقق خفقات هذا الاندفاع الجارف، وتهتز هزات هذا الغر العارم.

لهذا تحتم أن يستبدل براية العقاب راية أخرى يمكنها ان تحمل طابع العصر ولونه الزاهي، ولذلك يتحتم أو تكون خيوط نسجها وألوان انصباغها من النوع الذي يغالب الزمن فلا يفنى ولا يحول.

---

١ . نهج البلاغة، ١٦/٢.

٢ . المصدر نفسه، ٩٢/١.

أن هذا النوع من النسج المتين ومن الصباغ الثابت لن يجده هذا العصر إلا في قميص عثمان.

وها هو ذا قميص عثمان لا يزال حتى الآن راية خفاقة البنود، لم يبل خيط منه بعد، ولم تزل زاهية الألوان.

تلك حقيقة مؤلمة .. قميص عثمان[١]!.. ويا ليت الجزيرة لم تعرف نولا ينسجُ مثل القميص! وياليت عثمان كان عاريا من قمصانه!.. إنما الرسالة جاءت لتحكم مثل هذه الأنوال، ولكن المحطم كان نصيبه منها ان لبس كل قمصانها.

اتراها سنة الفداء؟..

ألم يجيء عيسى من قبل ليحطم اخشاب الصلبان، فكان أكبر صليب من نصيبه؟

وسقراط[٢]؟ .. ألم يتناول الكأس لينظفها من سمومها فلم يتمكن حتى جرعها؟

---

١ . رفع أهل الشام قميص عثمان شعارا لهم فكان شعارا للتمرد وشعارا للرأسمالية القرشية التي طغت في البلاد .. وتحمل الإمام علي المسؤولية في اراقة دم عثمان (حياة الإمام الحسين، الشيخ باقر شريف القرشي: ٢٧).

والهب معاوية بمكره وخداعه قول السذج والبسطاء من اهل الشام حزنا واسى على عثمان وكان ينشر قميصه الملطخ بدمائه على المنبر فيفيضون بالبكاء والعويل واستخدم الوعاظ فجعلوا يهولون أمره ويدعون الناس الى الأخذ بثاره وكان كلما فتر حزنهم يقول له ابن العاص بسخرية واستهزاء (حرك لها حوارها تحن..) فيخرج لهم قميص عثمان فيعود حزنهم.

وقد قال الإمام علي ﷺ عندما بلغه خبر بكاء اهل الشام على قميص عثمان: (ما قميص عثمان بقميص يوسف ولا بكاؤهم عليه كبكاء أولاد يعقوب..) (مناقب آل أبي طالب، ابن شهر اشوب: ٢/٢٥٠).

٢ . هو مؤسس الحكمة الإلهية بعد ان كان اليونانيون معتنين غالبا بالطبيعيات، وهو استاذ افلاطون وقد اخذ الحكمة من لقمان الحكيم والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها شرط ان لا يقلد من غير دليل (شرح أصول الكافي، المازندراني: ٢/١٦٩ الهامش.

تلك كانت حكاية ابن ابي طالب في عصره.

فقد كتب عليه ان يلبس قميص عثمان، ولكن قميص عثمان ما كانت لخيوطه هذه المتانة، وما كان لألوانه هذا الزهو، لو لم يلبسه علي بن أبي طالب .. ألبسه في دمشق تدليلا على الجريمة، فرأته الأجيال تخليداً للبراءة.

وهكذا لبس خلود الجريمة من حاك قميصها، وبقي لهم قميص عثمان راية العصر.

بداية الحكم

لا شك في ان بداية الحكم كانت بالنسبة الى علي بن ابي طالب تهافتا على المتاعب، ولن تكون النهاية بأهوان منها .. وهو، على كل حال، لم يطلب متعة وملهاة، بل تطلبه مسؤوليات واعباء.

وما أخذ الله على العلماء ان لا يقاروا على كضة ظالم ولا سغب مظلوم، ولم ينهجه مسايرة وملاينة، بل امتطاه جدا وصلابة.

ولقد أتاه النصح مع المغيرة بن شعبة[١] ومن ابن عباس[٢] بالمساومة والملاينة فأبى وقال: (لا أداهن في ديني، لا اعطي الدنية في أمري)[٣].

وكيف يفعل ذلك ونهجه وحيد وصريح؟.

وممن يخاف؟ .. ومم يخالفه؟؟

ما ينجو من الموت من خافه، ولا يعطي البقاء من أحبه.

---

١ ـ المغيرة بن شعبة بن ابي عامر بن قيس الثقفي، اسلم عام الخندق ولاه عمر بن الخطاب البصرة حتى شهد عليه بالزنى فعزله ثم ولاه الكوفة وأقره عثمان عليها وروي عن النبي ﷺ مات سنة ٥٠هـ (الناصريات، الشريف المرتضى: ٢٤٨).

٢ ـ عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي أبو العباس حبر الأمة الصحابي الجليل ولد بمكة ونشأ في بدء عصر النبوة فلازم رسول الله ﷺ وروى عنه الأحاديث الصحيحة شهد مع علي ﷺ الجمل وصفين كان كثير العلم والفقه يجعل أيامه يوما للفقه ويوما للتأويل ويوما للمغازي ويوما للشعر ويوما لوقائع العرب. وكان عمر إذا أعضلت عليه قضية دعا ابن عباس وقال له: أنت لها ولامثالها ثم يأخذ بقوله ولا يدعو لذلك أحدا سواه، كان آية في الحفظ أنشده ابن أبي ربيعة قصيدته وهي ثمانون بيتا فحفظها في مرة واحدة) (غريب الحديث، ابن سلام: ٤/ ٢١٠).

٣ ـ الإمام علي أسد الإسلام وقديسه: ٩٢ ط. بيروت

أمن الدنيا ان تحبس عنه كنوزها ونعيمها وأمجادها إلا؟ فما يصنع بالدينا من خلق للآخرة؟ وما يصنع بالمال من عما قليل يسلبه، وتبقى تبعته وحسابه؟

ولكنه لم يلبس الدنيا إلا بقميص من الكرابيس[١] وبمدرعة[٢] مرقوعة، ولم يأكلها إلا في حبات من الشعير تطحنها كفه لقمة يابسة لفمه، ولم يسكنها في قصورها بل في أحقر خص من خصاصها، ولم يمتطها إلا كما يمتطي الفارس الجواد الى ساحة الجهاد، حقيرة لديه غاية، عزيزة عليه وسيلة.

(الدنيا دار مني لها الفناء، ولأهلها منها الجلاء .. وهي حلوة نضرة، وقد عجلت للطالب والتبست بقلب الناظر .. فارتحلوا عنها بأحسن ما يحضركم من الزاد، ولا تسألوا فيها فوق الكفاف، ولا تطلبوا منها اكثر من البلاغ)[٣].

وقال له مرة عاصم بن زياد الحارثي: يا أمير المؤمنين، هذا أنت في خشونة ملبسك جشوبة مأكلك؟

فأجابه: (ويحك! أني لست كأنت! .. ان الله فرض على أئمة العدل ان يقيدوا أنفسهم بضعفة الناس كي لا يتبيغ[٤] بالفقير فقره)[٥].

هذه الدنيا التي عالجها سحابة عمره زهدا وتقى، ومد اليها يده عفة وصدقا وبطولة .. لن يتمكن اليوم من ان يصافحها مصافحة المستجدي ودها والطامع بخدر من أخدارها، ولم يكن خدنا[٦] من اخدانها .. إنما جاء اليوم

---

١ . الكرابيس جمع كرباس، وهو القطن.

٢ . المدرعة: ثوب فوق القميص وفوق الثياب.

٣ . نهج البلاغة، خطب الإمام علي: ١/ ٩٦.

٤ . أي يتهيج به.

٥ . نهج البلاغة، خطب الإمام علي: ٢/ ١٨٨.

٦ . خدنا: العشيق بالأجر وهو الحبيب والصاحب.

يوضح الخط المرسوم .. كيف يجب ان ينظر الى الدنيا، وكيف يمكن ان يستعمل اداة وصول إلى محجة وكيف يليق ان يؤدي الإنسان فيها دور الفاهم الناضج، وكيف تتختم صيانة المجتمع على أسس من الوعي العاقل الراشد.

أن نهجا واضحاً كهذا خط ابن ابي طالب كل بنوده، وطبقه على نفسه، وعاشه كل عمره، ونشره في كل أقواله، واعماله .. لم يبق باستطاعة أي في الدنيا ان يقلل من قيمته أو يقطع خيطا واحداً من متانة نسجه .. ولقد اصبح بحد ذاته، لونه ونصره الأخير.

من هنا، ان المساومة لم يبق لها درب مفتوح الى بابه، ولا التهديد بالموت يكون له أية فاعلية في ثنيه عن خطه .. لأن الموت، في نظره، إذ يقطعه عن دنياه، وهو لا شك فاعل، لم يتمكن من ان يقطعه عن ربه الذي له يعمل وإليه واصل.

ولقد قال: (لقد رقعت مدرعتي هذه حتى استحييتُ من راقعها، ولقد قال لي قائل: إلا تنبذها عنك، فقلت: اغرب عني!، فعند الصباح يحمد القوم السرى)[1].

لقد قال أيضاً قبل موته: (وغدا ترون أيامي ويكشف لكم عن سرائري، وترفونني بعد خلو مكاني وقيام غيري مقامي)[2].

وكما نظر في عثمان في أنه انتهج خطأ غير الذي رسمته الرسالة، فإنه بات من المستحيل ـ وهو يتسلم الآن زمام الحكم ـ أن يترك الخط على مسيره الأول.

---

١ . الإمالي الشيخ الصدوق: ٧١٨.

٢ . نهج البلاغة، خطب الإمام علي: ٢/٣٤.

وكذلك الثورة التي هبت تقتلع الفساد، فأنها لم تكن لتولد لو أنها لم تضرب من حوضه النمير.

إذاً، فالمساومة قد انتفت نصا ومعنى من معجم علي[١]، لتحل مكانها كلمة أخرى تحمل معناها .. ألا وهي (الصلابة).

والصلابة هذه لم تكن لتحمل الرعونة، فقلد نحتها من تلك القساوة التي يتحلى بها معدن الحق والعدل .. ولونها بتلك العفة والنزاهة، ودفعها بتلك الشجاعة والبطولة .. فإذا هي تعبير صادق عن نظافته الخالصة، ونفسيته العلية، وفكره العبقري.

ولن يتخلى مطلقا عن هذه الصلابة، لأنها معين شخصيته الفذة، وكانت نبراسه في كل حياته، وهي التي رافقته في كلّ جهاده، وهي التي لا تزال ترافقه حتى الآن في تاريخ خلوده.

ولقد ابتدأ بالتنفيذ في اللحظة التي تسلم فيها شرعية التنفيذ.

فاقتلع العمال الذين وزعهم الخليفة المرحل على الأمصار المفتوحة كلها بقوة الرسالة، ليستبدل بهم هؤلاء الممتحنين على محك الفضائل، وسلمهم شعارهم الجديد .. (النظافة).

والنظافة هذه كانت تحمل بين حروفها: الصدق، العفة، الإخلاص، التقوى، الرفق.

---

١ ـ ان عليا صلوات الله عليه لما فرغ من حرب اصحاب الجمل وقد كان أراد معاوية عن الشام فدس اليه من يسأله في اثبات ولايته فأبى عليه من ذلك واشار عليه بعض من ينصح له ﷺ وقيل ان عبد الله بن العباس فيمن اشار عليه بذلك (ان يكتب اليه بعهده فإذا دعا له مرة أخذ بيعته على الناس عزله) فقال علي فإذا اراد هذا لهو الرأي العاجل فأما فيما بيني وبين الله عز وجل فما أجد لنفسي في ذلك عذرا (وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا) كتب اليه لما فرغ من اصحاب الجمل (شرح الأخبار، القاضي النعمان المغربي: ١/٤٠٥).

ولن يسلم عاملا عمله على رقاب الناس قبل ان يخاطبه بمثل هذا المقال :

(إلى الأشعث بن قيس، عامل آذربيجان) :

(.. وان عملك ليس لك بطعمة، ولكنه في عنقك أمانة، وأنت مسترعى لمن فوقك، ليس لك ان تفتات في رعية، ولا تخاطر إلا بوثيقة، وفي يدك مال من مال الله عز وجل، وأنت من خزانه حتى تسلمه الي ولعلي ان لا أكون شر ولاتك لك، والسلام)[١].

وإلىَ زياد ابن أبيه :

(إني أقسم بالله قسما صادقا لأن بلغني أنك خنت من فيء المسلمين شيئاً، صغيراً أو كبيراً، لأشدن عليك شدة ولا تدعك إلا قليل الوفر ثقيل الظهر ضئيل الأمر، والسلام)[٢].

وإليه أيضاً :

(دع الإسراف مقتصرا، واذكر في اليوم غدا، وامسك من المال بقدر ضرورتك، وقدم الفضل ليوم حاجتك .. اترجو ان يعطيك الله اجر المؤمنين وأنت عنده من المتكبرين؟ وتطمع وأنت متسرع في النعيم؟. تمنعه الضعيف والأرملة، ان يوجب لك ثاب المتصدقين .. وإنما المرء مجزي بما اسلف، وقادم على ما قدم، والسلام)[٣].

هكذا سلم الإمام علي زمام الأمور الى رجال فرض عليهم من كفه نظافة الكف، ومن لسانه عفة المنهج، ومن صلابته محازم الأعمال.

---

١ . شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد: ١٤/٣٣.

٢ . شرح نهج البلاغة، خطب الإمام علي: ٣/١٩.

٣ . نفس المصدر: ٣/١٩.

ولقد وزع عليهم لائحة المبادئ التي يجب ان يتناول منها ما يسدد خطاهم.

(والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الأماء لرددته!)[١].

(في العدل سعة . ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه اضيق)[٢].

(لا دين لمن لا مروءة له)[٣].

(لا كرامة للكاذب).

(نظرة الوجه في الصدق).

(فرع الشيء ينبت من أصله).

(ظل الأعرج أعوج).

(جولة الباطل ساعة، وجولة الحق الى الساعة).

(لا يغرنك الطمع، فقد جعلك الله حراً).

(كن للمظلوم عونا وللظالم خصماً)[٤].

(فقد الرؤساء أهون من رئاسة السفلة)[٥].

(عند الامتحان يكرم الرجل[٦] أو يهان)[٧].

(ظرف الرجل تنزهه عن المحارم ومبادرته إلى المكارم).

(شر الولاة من يخافه البريء)[٨].

---

١ . شرح نهج البلاغة، خطب الإمام علي: ٤٦/١.

٢ . نفس المصدر: ٤٦/١.

٣ . الكافي، الكليني: ١٩/١.

٤ . الحكم والمواعظ، الواسطي: ٣٩٣.

٥ . المصدر نفسه: ٣٥٨.

٦ . في الأصل المرء والصواب ما اثبتناه.

٧ . عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمد الليثي الواسطي: ٣٣٧.

٨ . نفس المصدر: ٢٩٥.

(سياسة العدل ثلاثة: رأفة في حزم، استقصاء في عدل، وافضال في قصد).

(الحق سيف قاطع)[١].

(أمام عادل خير من مطر وابل)[٢].

(ثوب العقل اشرف الملابس).

(ثابروا على اغتنام اعمل لا يفنى ثوابه)[٣].

(راكب الظلم يكبو به مركبه)[٤].

إلى آخر ما احتوت هذه اللائحة من نصائح وحكم .. ترد الى سواء السبيل.

إن هذه الصلابة نفسها التي سلمها قواده وعملاءه، ووجههم ليعلموا بوحيها في السياسة العامة، لإيصال الحق الى نصابه، ولتهذيب ابن الجزيرة التهذيب اللائق بالإنسان .. اخذها اخصامه ليقابلوه بها بتلك الرعونة وذلك الجفاء، والتجأوا الى الفتنة يولدونها .. وكان لهم من قميص عثمان عود ثقاب.

---

١ . عيون الحكم والمواعظ ، علي بن محمد الليثي الواسطي: ٤٠.

٢ . نفس المصدر: ١٢٦.

٣ . نفس المصدر: ٢١٨.

٤ . نفس المصدر: ٢٧١.

القميص الطائر

ويحك ايها النعمان بن بشير[١]!.. يا حامل الجريمة تطوف بها، تجسمها تنفخها، تنفثها سما، تنشرها داء!.. يا حامل الطاعون تبخه وباءً عليك، على اهل بيتك، على اصلابك، على كل بني قومك، على كل انحاء الجزيرة .. على معاوية، على عمرو بن العاص، على الشام ينتقل منها كما انتقل الفخ الى مصر وأفريقيا، الى العراق وخراسان!.. ومن يومك الى غدك، الى الأجيال التي ستخلف عصرك وتسجل خزيك مجبولاً بعارك.

ماذا تحمل تحت ابطك؟! .. أية صرة تلف بها آيات كتابك وأمجاد جهادك؟!.. الى ان تنتقل بك قدماك يا حامل البوق ويا صناجة العرب؟! ويحك؟ ألم تدرك ان ناقل الشر اثل من الشر؟! وان حامل الفتنة أبلغ منها!.

---

١ . لما قتل عثمان بن عفان خرج النعمان بن بشير ومعه قميص عثمان مضمخاً بدمه، ومعه أصابع نائلة التي أصيبت حين حاجفت عنه بيدها، فقطعت مع بعض الكف فورد به على معاوية بالشام، فوضعه معاوية على المنبر ليراه الناس، وعلق الاصابع في كم القميص، وندب الناس إلى الاخذ بهذا الثأر والدم وصاحبه، فتباكى الناس حول المنبر، وجعل القميص يرفع تارة ويوضع تارة، والناس يتباكون حوله سنة، وحث بعضهم بعضا على الاخذ بثأره، واعتزل أكثر الناس النساء في هذا العام، وقام في الناس معاوية وجماعة من الصحابة معه يحرضون الناس على المطالبة بدم عثمان(البداية والنهاية، ابن كثير: ٧/ ٢٥٥).

النعمان بن بشير بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي كان والي الكوفة وحمص من قبل معاوية سمع النبي ﷺ وروى عنه ابناه محمد وبشير (الناصريات، الشريف المرتضى: ١٩٦).

دعا الناس الى بيعة عبد الله بن الزبير بالشام فخالفه اهل حمص فخرج منها فاتبعوه وقتلوه سنة ٦٤هـ(الخلاف، الشيخ الطوسي: ٣/١٢٦).

أيها الموثور المقرور!.. مهلاً!.. ألم تثبن وأنت تمشي طريق الشام، الى رشدك وجاهليتك التي علمتك الوأد!

يا هذا!.. ألم تعلمك وأد الشر الكبير وخنق الفتنة العمياء، ودينك الجديد؟

يا حامل الراية الى الفتوحات .. ألم يفتح على قلبك كوة السماح بالإيمان وروعة التعقل؟!

تخفف في طريقك يا بن بشير .. لا تسرع .. ان قميص عثمان الذي تحمل واصابع نائلة المقطوعة التي تنقل انها هو قميصك البالي، لم تزل تلبسه من قبل ان تولد .. وهي اصابع كفك اليسرى التي كانت تقطع في جاهليتك عقابا على سرقة .. وها انك لا تزال تسرق، حتى الآن، فضيلة دينك الجديد الذي اقتبست، لتحمل الفتنة تنشرها اينما تتوجه.

قف مكانك .. لا تقطع حدود الجزيرة .. واحفرها عميقة، وارم إليها قميصك، ووار فيها حقدك وضغنك .. ثم ارجع من حيث فررت، فإن الدم الذي يثقل وزره لا يليق بك، نشره، فهو من الجاهلية وقره، ومن فضائل دينك ستره.

وأرباً بنفسك!... فليس الثأر الذي تسعى الى الويل والدمار يقودك، ولن تنال عليها الجنة من حيث تحسب عليك الجنة.

وارجع الى عقلك!.. فإن المحنة التي اندفقت نارها ليس من مصلحتك ولا من مصلحة جزيرتك، وان تجمع لها الوقود لتزيد ضرامها .. بل بالعكس، بردها من معين نهاك، وخفف لظاها بفيض حجاك، لو تعقل .. واسكب عليها

بدل السموم شيئا من السلوان، واغرف لها من السلوان، واغرف لها من النسيان ما يرتقها لا ما يزيد من فتقها.

يا صاح!.. يا حامل العقل الجديد!.. يا ناقل الفكر السديد!.. يا فاتح الأمصار باسم الرسالة!.. يا غازي الجهل تدك حصونه! .. تريث فليس في الردة غير السموم!.. فحرام عليك ان تعود الى عقمك، فتهدم دينك ، وتروع قومك، وتجمد روعة أمجادك.

إده هذا القميص بالله إده!..[1] من قلبك، من عقلك، من اعصابك .. وارجع الى قومك .. وبلسم جرحا نزف، وخفف حدة تنقم، واجمع شملاً يتمزق .. وناد بالرسالة، فهي الكبير، وهي التي تسع، وهي التي توحد، وهي التي تجمع.

اتراك يا بن بشير، تعقل وتفعل.

---

١ . من (وأد) (يئد).

الواقع المؤلم

ان الأزمة التي انفجرت بموت عثمان وراحت تنشر قميصه فوق الجزيرة وفوق كل جزء من أنحاء العالم التي توصلت اليه راية الدين الجديد، لم تكن بالأزمة المستحدثة.

فهي أزمة الجزيرة منذ كان الإنسان في الجزيرة، هي أمة رافقتها كما رافقها واقعها الاقتصادي.

فالشح الذي كان لها من راضها انعكس شحا في نمطها في العيش، وفي كل مجالاتها العلمية والفكرية .. فانصرفت تعالج شؤونها[1] من زوايا ضيقة تلبستها، مع طول الوقت، عادات وتقاليد، من حيث اصبح تشذيبها من الصعوبة بمكان.

ولقد اصبح من العلوم ان الرسالة الجديدة جاءت تبني انسانا جديداً يتمكن من السيطرة على واقعه وتطويره.

إن أول ما ابتدأت به هو تحضير العقل، ليصبح مكانة فاعلة في خلق هذا التطور ودفعه لتحسين الواقع الاقتصادي.

ان هذا البناء الذي استهدف الفكر أولا، نجح الى حد بعين في خلق انسان أخذ يشغل عقله.

وبالفعل، فإن التيار الديني الذي احتل عقل الجزيرة، جعلها بحق مركزا لعدة انطلاقات فكرية، تشعبت شرقا وغربا، وحققت بعض الانتصارات.

---

١ . في الأصل (شئونها).

ولكن الجزيرة التي تمكن الدين من تحريك عقلها لم يتمكن حتى الآن من ان يصبح ثقافتها، لأن الثقافة هي تمرس دائم وانعكاس في النفوس مع المجال الطويل.

ثم ان الثقافة هي كرجع الصوت بعد ان يجول في كل انحاء الكهف الذي يطلق فيه دوي النداء .. أي ان الثقافة التي يتحلى بها الفرد في المجتمع تاتيه من ذلك المجتمع بعد ان تكن قد شملته كله على السواء.

ان الثقافة الجديدة للجزيرة، بنوع خاص لم تبلغ بعد مكانة تذكر في وقت لم يتجاوز الأربعة عقود .. فهي لا تزال ثقافة تختلط اختلاطا ظاهراً بما قبلها، في مخضرمة.

ثم انها، من حيث يطلب منها ان تكون قاعدة انطلاق لتحقيق اقتصاد عاقل يضمن استنادها اليه في دفعها واستمرارها، لم تحقق شيئاً يذكر من هذا القبيل.

أن عكس ذلك قد حصل.

فالفتوحات التي قامت بها الجزيرة اغرقتها في بعض فيض من البحبوحة المستعارة، من حيث جعلتها تتذوق طعم النعيم النابع من غير صلبها.

ولقد توزع هذا الخير المستباح أولا على القواد والحكام، ثم على الجند التدرج .. من حيث خلق طبقات مترفة على استحداث[1] .. فطغت المادة على الروح، لا بل وقفت المادة تلك حجر عثرة في سبيل نجاح طبخ النفوس

١ . كثرت أموال الصحابة (بسبب الفتوحات) في خلافة عثمان حتى بيعت جارية بوزنها وفرس بمائة ألف ونخلة بألف، وعن الحسن البصري قال: كانت الإرزاق في زمن عثمان وافرة وكان الخير كثير (الغدير، الشيخ الأميني: ٢٤٨)

والعقول بالثقافة الأصيلة التي يجب ان تحتل رويداً رويداً مكانها في المجتمع، يسندها بذلك اقتصاد صادق ثابت وعفيف.

ثم ان هذا الدفع من الكسب الموقت لم يكن ليشمل كل أفراد الشعب .. الذين كانوا يتسابقون الى خوض المعارك في الفتوحات من الذين كانوا يرجون بالغنائم.

نتج عن ذلك طبقية جديدة، فرقت المجتمع، ونبهت فيه حاسة التحاسد، وعمت الفوضى.

فإن اعمال الفتوحات اصبحت تتطلب كثيرا من الأدارة في تنظيم الجيش، في تنظيم الجزية والفيء، في تنظيم الدواوين والإحصاءات، في تنظيم الأجور، ثم في تنظيم الفكر ونقله صحيحا غير مشوب بالأخطاء .. الى جانب تنظيم توزيع الغنائم والمكاسب على الشعب، الذي بات ينتظر ان يسد عوزه من المكسب الجديد أكثر مما تنتظره من اقتصاده الهزيل.

كل ذلك لا تتمكن دولة فتية ومشغولة على كل الجهات من ضبطه واخراجه، بالعدل والقسطاط.

نشأ من ذلك حرمان جعل الفوارق تظهر في مجتمع لم تضبطه بعد جدية الدين الى نظم تطبيقية صحيحة.

ثم هؤلاء القواد، وهؤلاء الحكام الذين استلذوا طعم الثروات، اصبحوا يتشبثون بمراكزهم كأداة كسب وفير .. فأخذوا يحصنون مراكزهم بشتى الأساليب، فجمعوا حواليهم الأنصار والأتباع.

وتلك قبيلة جديدة منظمة يدعمها الآن اقتصاد من النوع العابر، لينشأ في الجهة المقابلة من هؤلاء المحرومين تكتلات أخرى لم يجدوها إلا في قبليتهم القديمة .. فأخذوا يتجمعون تحت لوائها، وينتقلونها الى حيث يتوجهون.

ففي الكوفة ـ مثلاً ـ انقسموا الى كتلتين .. فكان القسم الشرقي منها لليمنيين والقسم الغربي للنزاريين.

وهكذا نرى على التوالي، ان الرسالة التي جاءت تبني الإنسان في الجزيرة فكريا واقتصاديا قد اصطدم نجاحها بتلك العراقيل التي كان من اللازم ازالتها من ريقها قبل ان تواجهها.

ان ذلك فاتها وهي تعشى الطريق في خطواتها الأولى مع عمر بن الخطاب، الذي لم يرسم لها إلا بعض المخططات الجزئية التي اخذت تهتم بالناحية العسكرية اكثر من ان تهتم بالقضية النفسية الثقافية وبالتوجيه الاقتصادي الصحيح.

والحقيقة ان الجزيرة كانت ولا تزال بحاجة الى روحية ضبط الأهواء ومنع فتح ابن الجزيرة على مدنيات لم يكن مؤهلا على الاندماج فيها، ومنعها من التسرب إليه دون تهيئته نفيسا وعقليا، لاقتبال حسناتها ونبذ سيئاتها.

ولقد نظر ابن الخطاب الى الداخل، فرأى ان وجود عناصر غريبة في الجزيرة من شأنها اشاعة التشويش على الرسالة الطرية .. فأمر بإبعاد تلك العناصر .. فرحل النصارى من (نجران) الى الشام، ورحل اليهود إلى (أريحا).

وفي سبيل اعداد الجزيرة لتكون اساسا لجمهورية دينية نقية الدم، منع الزواج من الأجانب، وشدد على عدم التملك خارج الجزيرة، وفرض على هذا التملك بعض القيود، كدفع العشر مثلاً.

ثم نظر الى حالة الجند واختلاطه، اثناء عمليات الفتح، بشعوب البلاد المفتوحة .. مما يجر عليه هذا الامتزاج من اثر سيء، فأنشأ معسكرات خاصة يأوي إليها الجند بعد الانتهاء من كل معركة.

وكانت (الجوابي) (حمص) مقراً للجيش في سوريا .. و(عمواس) و(طبرية) في الأردن، و(اللد) و (الرملة) في فلسطين، و (الفسطاط) في مصر، و(الكوفة) و(البصرة) في العراق .. ولضبط كل هذه الأعمال الحربية أنشأ التدوين، وهي عملية في سبيل تنظيم شؤون الدولة وضبط دخلها وتوزيع اعمالها.

كما ان الإحصاء جاء مكملاً لهذه العمليات التنظيمية في سبيل ايصال الفيء الى المسلمين في شبه تعويض عن اقتصادهم الهزيل.

أما الاقتصاد، فإنه لم يلمح في التخطيط الى أي توجيه يمكنه ان يرسيه على قواعد صحيحة وفنية.

ولقد تعزز قليلاً بالنسبة الى مدخول الدولة من فتوحاتها الواسعة التي حققتها بسرعة فائقة .. غير انه ترك أمر الاهتمام به ربما للوقت، من حيث سيرسم خطوطه عن طرق تطوير العقل واقتداره على الغرف من الحضارات المحيطه به، مقتبسا منها كل شائق وجديد.

تلك كانت اهداف ومخططات ابن الخطاب الناظرة الى مستقبل الجزيرة من ناحية علمية.

اتراه كان مصيبا في كل تلك المناحي، أم ان شيئاً من هذا النوع لا يبلغ درجة من الكمال إلا مع التجارب التطبيقية؟

وذلك كان في بداية التطبيق في دولة آخذة في تثبيت وجودها لأول مرة في تاريخها، غير أنها كانت بعض المخططات، وليست كلها، التي كان من الواجب ان ترسم بكل تفهم وحيطة وأن تمشي خطواتها بكل اخلاص وتجرد، وان تدرس بكل واقعية وانضباط، وان تؤخذ بكل شمول وتعمق، وان تطبق بكل تحفظ وروية.

أما عثمان بن عفان، فأنه لم يتلمس النهج في البناء بشيء من هذا التدقيق المخلص أو هذا النحت المتيقظ .. فبقيت الدولة تشبط عن أهدافها، وراحت الرسالة تضيع مقوماتها مع الفتوحات المغرية، واصبح الفتح غاية ووسيلة يتسابق اليه الشعب سباقا، من حيث اصبحت الجبهات الحربية زحاما انتقل اليها معظم سكان الجزيرة.

أما البناء النفسي العقلي، فلقد أهمل بالتلهي بكل المغريات .. من أموال، وتحف، وسبايا، وغلمان، وموال .. الى آخر ما على لائحة الكسب من اسلاب وغنائم.

وتبرم من ذلك عقال الجزيرة، كما تبرم المحرومون .. حتى ان الأقاليم المفتوحة التي أخذت بروعة الرسالة بدأت تتبرم من هؤلاء الذين أخذوا يستبيحون خيراتها.

ودليل ذلك، ان الثورة على ابن عفان كان قوامها عدة مئات من مصر، حضروا متذمرين من الخليفة المتخلف عن نزاهة الحكم.

هذا ما كان في بداية تأسيس الدولة الجديدة.

ولا شك في ان الأساس المتين هو الذي يعول عليه في تشييد البناية الضخمة التي قدم تصميمها الدين الجديد.

فالأخطاء التي حصلت أنما حسبت على القيادة، إذ فاتها أن تكون الحريصة في التشديد على اعمال التأسيس.

ان هذه الأخطاء كانت الموصلة الى هذه النتائج التي اخذ يعاني وطأتها علي بن ابي طالب منذ تسلمه دفة الحكم.

وان مثل هذه الدراسة قد لمحنا اليها في فصل سابق من هذا الكتاب، كما أشرنا الى كون ابن ابي طالب كان مطلعا عليها وهو في عزلته يراقب سير الأحداث.

وها هو يتسلم زمام الحكم وفي جعبته مخطط الترميم، تعويضا عما فات، واستئنافا لعلمية البناء السليم.

و لكن الوضع الحاضر اصبح اشد عناءً بكثير من الوضع الذي قابل الرسالة في اطوارها الأولى.

هنالك انسان كان يستدرج الى وعيه، و كان يشكو ثقل الزعامة عليه، لأنها كانت سببا لاستعباده وافقاره .. وهنا انسان موقظ متحفظ، اخذ من جديد يستسيغ التزعم عليه كأداة لاستدرار الربح واستمراره.

هنالك قبيلة بدائية ضيقة وفقيرة .. وهنا قبلية ارتفت الى الحزبية المنظمة، ومدعومة بالأغراء المادي.

هنالك إنسان كان طفلا بريئاً .. وهنا إنسان اصبح مفسودا حتى بالإغراء الجنسي.

هنالك عقلية بداسية كان سهلا أخذها .. وهنا عقلية اخذت من الجديد داء ضمته الى قديمها، فإذا هي تستوجب العلاء لمرضين مشترين.

وهنالك الاقتصاد المركز المألوف .. وهنا الاقتصاد المباح الذي لا يستوي على ميزان.

وهنالك الثقافة التي كانت قد ابتدأت تبنى بناءا حثيثا ... وهنا الانفتاح على مديات أخذت بدون تفهم، فكان ضررها أكبر من أفادتها.

وأخيراً .. هنالك صاحب الرسالة، كان لا يزال حاضر الرعاية بالغ التأثير .. وهنا غيابه عن الساحة التي انكشفت بضعف التخطيط الذي كان لازما نفاديه عند تركيز الأساس.

كل ذلك لم يكن أبدا من السهل مجابهته أو العمل على اعادة تنظيمه .. فالفتوحات قد انساقت الى مداها، وهي تتطلب المدد الدائم للمحافظة على مستواها.

والمدرسة التي كان واجبا ان توسع باحاتها لتخريج الحكام والقواد لتسلم قيادة هذه المقدرات، لم توسع لاستيعاب العدة المطلوبة.

والجيش نفسه، الذي اصبح كناية عن الأمة بكاملها، مستنفرة لقيام بهذه الفتوحات، ليس قوامه أية قيمة فكرية ثقافية .. فهو جيش يسعى وراء الكسب أكثر مما يسعى الى نشر فكرة سامية خليقة بإلباس المدنيات القائمة حلة جديدة .. لم يكن للقواد عليه الضابط الرادع، نظراً لضعف التنظيم وضعف القيادة.

والجزيرة نفسها لم يتحسن اقتصا دها من الكسب الجديد، بل جعلها هذا الكسب تتمتع بثروات موهومة، سريعا ما تذوب وتترك اثر اشد سوءاً من الحالة الأولى.

والثقافة كذلك التي كانت قد بدأت تتبلور رويدا رويداً في عملية تنوير العقل والنفس، صدمتها الموجة المادية العارمة التي دخلت بواسطة الفتوحات

وارجعتها الى غرائز وشهوات كانت دائماً سببا في دك مدنيات زاهرة .. فكيف بها ادخل على مدنية لا تزال تتكبل بسلاسل بدائيتها.

إن هذا العرض للحالة الراهنة يلملم الموضوع ليلقي على عاتق ابن ابي طالب أكبر وأضخم تبعة عرفها تاريخ الجزيرة، ليكون معها أتعس حاكم تحمل أعباء شعب برمته، منذ أن وعى رشده حتى بلغ حتفه.

افق الكوفة والشام

ان النعمان بن بشير لم يكن يمشي الى الشام بقدميه بقدر ما كان يمشي إليها بأحقاد العصبية، التي راحت تشطر الدولة الى شطرين..

ولم يكن يحمل قميصا ملطخا بالدم أكثر مما كان يحمل نفسية ملفوفة بالضغائن.

ولم يكن ينقل رسالة مشبعة بآيات الدين الجديد أكثر مما كان ينقل فتنة ممرعة بالمكر والدهاء.

تلك العصبية التي كانت في جاهليتها محصورة بين بني هاشم وبني أمية في نطاقها التقليدي الضيق، أصبحت اليوم ترتدي جبة واسعة خلعتها عليها السياسة .. فإذا هي تنبخر بها كأنها شيء من البطولات.

ولم تكن تنتظر قميصا لعثمان حتى تتململ وتمد لسان الأفعى .. فعثمان نفسه لبسته العصبية قميصا منذ ان اجلسته على كرسي الخلافة، وهي بإمكانها ان تفصل الف قميص كهذا القميص عندما تتوفر لها السوانح.

لذلك، فهمة النعمان بن بشير كانت شكلية تتلهى بها أعين السذج من الناس، يتوارى خلفها دهاقنة الدهاة في تحريك العواطف المستخدمة لصيانة المصالح والأهواء.

وليس التاريخ ليجهل ان عليا ابن ابي طالب كان بريئاً من قميص عثمان الذين جرموا الذئب بقميص أخيهم[1].

---

١ . لقد ذكر اهل السير، ان معاوية لما استصرفه عثمان تثاقل عنه وهو في ذلك بعده حتى اذا استقر به الحصار بعث اليه يزيد بن اسعد القسيري وقال له: إذا اتيت ذا خشب فاقم بها ولا تقل الشاهد ما لا يرى الغائب فأنا الشاهد

ولكنها الدنيا، تتشبث بملكوتها، وتستعمل كل الوسائل في سبيل اغراضها.

والشام اليوم في حضن معاوية وابن العاص.

تلجأ الى مثل هذه الوسائل وسيان عندها أكان المتهم بدم عثمان بريئاً أم لم يكن، فالوضع يسنح لفتح الجبهة .. على كل حال، فالأموي هو القتيل، وهم الأهل الذين يحق لهم الأخذ بالثأر.

ذلك كان ظاهر الأحداث..

ولم يكن افق الشام إلا ليتشح بذلك الأكفهرار الذي ينذر بهبوب العاصفة وانقسم الرأي العام في الامبراطورية الحديثة الى ثلاث كتل:

كتلة تمد يدها الى معاوية، محورها الشام .. وكتلة تتشيع للإمام علي، ومحورها الكوفة .. وكتلة حيادية نامت على يد سعد بن ابي وقاص فاتح العراق، والمتربع على أيوان كسرى.

وراحت كل كتلة تجمع سلاحها.

فلندع السيف قليلا .. فهو ليس بالسلاح المقصود .. وهو وان يكن له في الميدان قولة الفصل ليس اليه دائماً يرجع معنى الظفر.

وأنت الغائب قالوا فأقام بذي خشب حتى قتل عثمان فاستخدمه حينئذ معاوية فعاد الى الشام بالجيش الذي كان معه فكان في الظاهر نصرة لعثمان (البلاذري).

وقد ذكر محمد بن عقيل في كتابه (وهو في الحقيقة خذلان له لحبسه الجيش كي يقتل عثمان فيدعو الى نفسه كما وقع بالفعل) (النصائح الكافية، محمد بن عقيل: ٤٠).

وقبل ان نوغل في الحديث فلنحذف الكتلة الثالثة، لأنها القت سلاحها واعتزلت المعركة[1] وراحت تراقب سيرها كأنها ليست منها وليست لها، تهربا من المسؤوليات .. يضر أكثر من ان ينفع .. من حيث يجرم أكثر مما يبرئ.

ولتستطرد الكتلة الأولى .. (الشام).

١ . بعد مقتل عثمان اعتزل سعد وعبد الله بن عمر فقال الإمام علي ﷺ: ان سعدا وعبد الله لم ينصرا الحق ولم يخذلا الباطل، ثم انشد متمثلاً:

وائكلها فقد ثكلت اروعا أبيض يحمي الشرب ان يفزعا

الكتلة الأولى

الشام

والشام منذ ان وجد الإنسان في الجزيرة وهي تعب من هجراته منها لتعيده اليها مع تموجات العصور انساناً ملحقا بمناخ آخر ... وهكذا مع الأجيال كان يحصل ذلك التبادل الدقيق بين هذين الخطين الضاربين في قلب الصحراء، يتلاقيان فيتمازجان ويفترقان، لينجبا مجتمعين متقاربين متناسلين من صلب واحد.

وهكذا كانت صلة الدم وصلة الروح تجمع شعبين بالأخوة الى مصدر واحد.

ذلك هو الشيء الذي سهل اللقاء الأخير بين الجزيرة والشام، ليتبادلا العناق في حضن الرسالة الجديدة، وكي يدقا بقبضة واحدة عنق الأجنبي الذي ولى مهرولاً وهو يلفظ وداعه الأخير.

عليك السلام يا ارض سوريا .. ونعم البلد انت للعدو!

ولقد سمعت اذن معاوية ابن ابي سفيان ذلك الوداع التاريخي عندما كان يتقصى العدو الرحال، يسانده بذلك عمرو بن العاص، وخالد ابن الوليد، وأبو عبيدة الجراح.

ولم يكن التاريخ ليصدق انذاك ان قبضة من البدو الهائم على هذه الصفحة المحروقة بنار الهجير تحقق مثل هذه الانطلاقة اللامعة، وتدك معالم مدنية زاهرة احتلت صدر التاريخ القديم.

أجل!.. لم يكن ذلك ليحصل لولا الرسالة التي اطلق دويها النبي الكبير فجاءت باسم التوحيد الأكبر، فوحدت الجزيرة بكل نزعاتها، وجمعتها من تشتيت قبائلها، وصبتها في قالب واحد .. فانطلقت تحقق المعجزات.

كان ذلك بقوة واحدة وهي قوة بني هاشم وبني أمية، وقوة اليمنيين والنزاريين، وقوة القحطانيين والعدنانيين.

بذلك السلاح الذي وحد العقول والقلوب ثم الفتح العجيب، ثم بفعل الإيمان وبما شع من الإيمان .. فكان وهج السيف من ذلك النور، وكان يحمله زند عربي موحد.

أما اليوم .. فما بال معاوية يعتمد الى سلاح قديم غرير .. ما باله يستبدل براية العقاب البهية قميصا ملطخاً بجريمة؟!

هل كان له شيء من الأمجاد يوم كان ينفخ ببوق القبلية ليتغير بنو أمية على بني هاشم.

ألم تذبه الفتوحات بين يديه في نشوة الفتحة الصحيح والنصر الأكيد؟

وكيف به يحمل الرسالة يقهر بها قروم الروم دون ان يتمكن من دحر نزوات في النفس ترجع بها الى غياهب الماضي الذميم.

وهذا النصر اللامع الكبير الذي حققته الرسالة به على طول الشاطئ السوري، من حيث سجل اسمه في المع صفحة من صفحات التاريخ، هل يجوز له، بعد اقتناصه، أن يعود فيضرب حوله وشما من مخازي الخلافات الصغيرة التي لا يمكن ان تنعت باكثر من زحام على كرسي؟

وان وجهات النظر مهما تكتف له من مبررات في اقتحامه هذا الصراع الرهيب، لن تتمكن من بعثرة كل التهم التي الصقت بهذا الصراع .. جريمة

صفع الرسالة بكف التفرقة، وتجميد روعة الفتوحات بترهات الخلافات وشطر الامبراطورية الفتية الى شطرين متنابذين.

على كل حال ... لقد ختم على افق الشام قميص عثمان .. وها هي تستعد لامتشاق الحسام ... ولكنه حسام فاقد اللمعان.

الكتلة الثانية

الكوفة

وهذا هو العراق، مهبط آخر من مهابط الجزيرة، يا طالما انفتح أمام هجراتها القديمة فامتصها ببداوتها ورجع اليها انسانا مفتوحا .. ولم يفقدا يوما هذا التلاحم العميق رغما عن الزحف الذي كان يتوالى على العراق من الشرق تحمله اليه اطماع الأعاجم، كالشام كانت صلة الرحم وصلة الروح تجمع شعبين بالأخوة الى مصدر واحد.

وفضل هذه القربى تقبل العراق ابن الوليد، وافسح لابن ابي وقاص الوصول الى ايوان كسرى.

كل ذلك قد تم باعجوبة تلك اللحمة التي وثقت عراها المحبة المشعة من عين الرسالة .. إذ كان اليمني والمضري يتساندان كتفا الى كتف في اقتحام ساحات ال جهاد .. يرددان كلمة واحدة (الله اكبر).

واليوم يتنكب خليفة عن رسالته، فيضرج بدمه ليستنفر النزاري على اليمني والهاشمي على الأموي، لخوض معركة داخلية تنسي الأرحام وتنكأ الجراح، ويرجع بها الى الوراء اربعة عقود، وتسفح فيها كرامات الأمة.

كأن المجد الذي تمددت أفياؤه من اقاصي افريقيا حتى مرامي الهند كان لعبة لطفل أو ملهاة لسادر.

وكأن الرسالة التي اجترحت الأعجوبة الكبرى كانت نفخة من هواء وظلا عابرا في اضحية.

وكأن الشام والعراق ما ترافقا يوما في طريق، ولا جمعتهما ساعة من جهاد، ولا اقتسما ضلعاً من ضلوع المفاخر، ولا تمتعا لحظة بنشوة الظفر، ولا خيمت في أجوائها نفحة من نعيم السماء.

وكأن الجزيرة ما حملت يوما بهذا المعين الدافق منها، تبرد منه حشاياها الظامئات .. فراحت تلغ فيه كأنه بين يديها الأسن العكر.

وهكذا وقفت الجبهتان - جبهة الكوفة وجبهة الشام - تستعدان للزحف احداهما على الأخرى بسيوف يا ليتها ما كانت من الإسلام[1].

---

١ . لكن شتان ما بين جبهة الكوفة بقيادة إمام الحق والعادل، وبين جبهة الشام بقيادة الباغي الظالم، فقد جاء عن الرسول الأعظم أنه ﷺ قال: حربك يا علي حربي، وسلمك سلمي، وقال ﷺ أيضا: اللهم انصر من نصره واخذل من خذله، لذا وجب قتال الفئة الباغية ونصرة الحق ومعونة الإمام علي عليه السلام.

عائشة

يا أم المؤمنين! ليس من باب نكأ الجراح أن يورد اسمك في هذا الكتاب مقرونا بمعركة فورت فيها دماء ابنائك من المسلمين.

وربما يكون ذلك من بعض امجادك، أيتها الأم الكبيرة، لو وفرت لك السوانح ركوب الهوادج الى تخوم الجزيرة، حيث كان الفتح يجمع النصر باقات تنثر ازاهيرها على جدث زوجك العظيم الراحل.

ولكن التاريخ الذي يوسع لك في صدره مجالاً واسعاً في باب الحرمات، كان يأسف ان تشوب حروف اسمك الناعم بعض الشبهات.

إذ إنك لست من هؤلاء اللواتي كن يعشن على الهوامش .. فأنت زوج لأضخم اسم في الحياة، من حيث اصبحت أما لأكبر عدد من السلالات ولا تزالين ايتها الأم الوقور .. فكل من اسلم لربه تستهيمه الى حضنك الدافئ شعائر النبوة.

من هنا تنساق عليك ابواب المآخذ!..

إذ ان التدخل السافر في قيادة معركة كانت من اقسى المعارك الأهلية التي شهدتها الجزيرة، لم يكن ليجعلك في موقف الأم المتألمة من مشاهدتها ابناءها يتزاحمون الى موارد الموت[1].

---

١ ـ البيهقي عن الحسن البصري: أن الأحنف بن قيس قال لأم المؤمنين عائشة: يا أم المؤمنين هل عهد إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المسير؟ قالت: اللهم لا ـ قال: فهل وجدته في شئ من كتاب الله جل ذكره؟ قالت: ما نقرأ إلا ما تقرأون ـ فقال: فهل رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعان بشئ من نسائه إذا كان في قلة والمشركون في كثرة؟ قالت: اللهم لا ـ فقال الأحنف: فإذا ما هو ذنبنا وروي أن أبا الأسود الدؤلي قال لها: ما

لا !.. بل ان عكس ذلك كان..

فلقد كنت في طليعة المحرضين، ولقد تأبطت سيدين من أسياد قريش[1]، ورحت تطوفين بهما بين مكة والمدينة، وبين المدينة والبصرة .. ولقد اعتليت منصات الخطابة تؤلبين حولك وحولهما الأنصار، من حيث هيأت للمعركة عدة لبتك تلبية المستميت.

ولا غرو .. فإن صوتك الجوهري، وبيانك الفصيح، الصادرين عن شخصية اكسبهما القرب الوثيق من النبي قوة التأثير وصدق التلبية، كانا معوانا على تحضير تلك المعركة تحضيرا عب من دماء المسلمين على غير ارتواء وجمد قوة الدولة الناشئة تجميدا مؤلما .. واستدرجها لمقابلة سلسلة من المجازر الأهلية اوهمت بها اركانها واجلت عنها هيبتها .. لتكون فيما سببا وجيهاً في إناحة عزها، وتقليص مجدها، ونقل مركز القيادة منها.

ليس معنى ذلك، ايتها الأم الجليلة، انك لو لم تقفي موقف المتشيع كنت تتمكنين على تأكيد من رأب الصدع بين جهتين متصارعتين على كرسي الحكم.

ولكن موقفا من هذا النوع لو كنت لتقفيه، يكون له كبير أمل على ترجيح في تخفيف الحدة الناشبة ومنع الاصطدام الواسع.

فالجمل الذي اعتليت لو انك قدته الىسوط الساحة، ومن طاقة هودجك اطللت بوجهك الصبوح، وقلت بكل ايجاز:

أنت من السوط والسيف . إنما أنت حبيس رسول الله صلى الله عليه وسلم . أمرك الله أن تقري في بيتك (زوجات النبي ﷺ : سعيد أيوب : ٥٠)

١ . إشارة الى طلحة والزبير.

(أنا أمكم يا مؤمنون .. هذه هي أنا بلساني، بمعصمي، بقلبي، وبحناني .. ضعوني حدا بين خلافاتكم..).

لو فعلت ذلك فقط، يا سيدتي، ربما كنت تمكنت من تغيير مجرى الأحداث، لأن المشاهد كان بمكنته ان يرى ويسمع ويفهم .. يرى في عينيك شعاع الحب، ويرى في وجهك شعاع الحب ويرى في الإيمائة عن معصمك شعاع الحب .. ويستجمعها كلها فيسمع فيها نداء الحب .. وقلبها جميعا في ذاكته، فيدرك منها معنى الحب.

وليس الإخلاص بغير اشعاع، فهو في العين ابلغ منه على اللسان.

ذلك الاخلاص كنت أنت الأولى به مصدراً فياضا .. فأنت أم المؤمنين تتنزه فيه الأغراض ... فلا الحكم غايتك، ولا الرياسة مشتهاك .. وجل مبتغاك ان تجمعي المسلمين الى حنانك كما جمعتهم الرسالة الى رواقها، وكل أمجادك انك كنت الرفيقة الكبيرة للرجل الكبير .. وليس همك، بعد رحيله، غير التأمل والتبصر، ورعاية التركة البهية التي هي بين يديك.

أما المتنافسون على الخلافة، فليس لديهم اليك غير المحجة للوسيط، والرجوع منها بالنصح الحليم والزجر الحكيم.

كل ذلك لم تفعليه .. واكتفيت بالمناصرة الجزئية .. حتى حصل ما حصل.

فكيف اغريت على ذلك؟..

أو كيف اريت صوابه؟!

هذا هو الذي جمعه التاريخ، ليسجله على هامش الصفحة التي تنزل عليها اسمك الجميل في حقل التحفظات، من حيث كان أبهى لتلك الصفحة ان تخلو منها.

طلحة والزبير في سطور

ليست خطورة الحديث عن (طلحة) و (الزبير)[1] بالنسبة الى شخصيتها بقدر ما هي بالنسبة الى الأثر السيء الذي تمكنا من ترك اظلاله السوداء تخيم على طول الجزيرة وعرضها لأن هذين الرجلين اللذين نفخت واصرهما رفقة الرسول، لم يتنكنا من ان كيتسبا من الرسالة أكثر مما يقدر الطاووس على اكتسابه من رأسه الصغير المرتفع وذيله الطويل المنتفش!

ولقد بقيا كذلك يحملان بداوة الجاهلية تحت زركشة ريش موهوم، لتغرر بهما في كل سانحة .. بداوة تشد بهما الى الوراء، واستقراطية تدق انفيهما الى فوق.

وبشوبين باليين تمكنا من ثقب الجدار ليدخلا منها الى الحصن، حيث جلسا، وبقيا جالسين، حتى (وقعة الجمل).

ولقد ترافقا كل عمرهما متساندين متنابذين كما ترافق ذئبان الى رطيدة .. فأما الطريدة أما الرفيق يسقط فيكون الطريدة!.

وهكذا كان يمني كل واحد منهما نفسه بالخلافة .. وسيان لديه، أكان يحمل لهما العدة اللازمة أم لا يحمل .. كأن قرشية كل واحد منهما لتحل الأعباء تكفي!.

ولم يزل هذا نوالهما حتى استأنس كل واحد منها بنقطة الضعف عند عثمان بن عفان، فأسلما نفسيهما الى المحاولة.

---

١ . الزبير بن العوام بن خيولد بن أسد الأسدي، أبو عبد الله، شهد بدر وما بعدها، روي عن النبي ﷺ قتل في معركة الجمل سنة ٣٦هـ.

ولكن الثورة التي رميا الى نارها بعض الوقود، لم تكن لتضع نصب عينيها شخصيتين من هذا العيار.

وسريعا ما انفتلت تلج على فتاها الأصيل لتطرح بين يديه زمامها .. كالأفعى الجريح تنقلب على جرحها تعضه ربما يبرأ، انقلبا على جرحيهما يعضناه معاً في مكة، حيث تمكنا من التغرير بـ(أم المؤمنين) .. فهمت تلف ساعديهما!

ومن وراء الأفق، حيث تنام الشام على قلق، جاءتهما شعرة معاوية تتلاين في ملمسها لتزفر الباقة المجمعة بأمل المبايعة والوصول بأحدهما الى خدر الخلافة، ولتنفخ فيهم بطولة معكوسة.

ويخلق الله لكم مالا تعلمون.

ونجحت الردة الجديدة يقودها الجمل (عسكر) .. وسارت تغرر بألوف المسلمين حتى هبطت البصرة .. وفي يوم واحد لاقت حتفها!

معركة جانبية

من المؤكد ان اعمال الفتوحات التي توسعت مع الوقت اكسبت القواد العرب الخبرة في القتال، من حيث اصبحوا بعدّون من المع رجالات الحرب في ذلك العصر.

فخالد بن الوليد الذي خسر (معركة مؤتة) ـ أولى محاولاته على الروم قرب بحر الميت ـ استفاد من هزيمته تلك ليستفيد أكثر فأكثر في دحر قوى الردة على ابي بكر، ثلم لم يعدي ليذوق طعم الخيبة لا في الحيرة التي انتزعها من (آل ساسان) ولا في حصاره المشهور على دمشق التي اقتحمها طاردا منها الروم ليضربهم الضربة القاضية في يوم اليرموك.

اه هذه الخبرة الحربية التي وفرها الفتح الإسلامي لرجاله وقواده، والتي جعلت خالد بن الوليد في مصاف القواد .. هي نفسها التي اكتسبها معاوية وشرحبيل وابن العاص في قفزاتهن .. ان الى مصر وافريقيا، أو الى ارمينية و اذربيجان .. وهي نفسها اليوم يستعملها ومعاوية وعمرو بن العاص.

وبدلا من ان يستمرا يضيفان اليها الحنكة تلو الحنكة في دفع الفتوحات الى الأمام وتثبيتها على أساس متين من الوزن والاستقرار، سحباها من ساحة الفتح ليستعملاها، بكل دواهيها، على الجبهة التي قررا فتحها على الخليفة الجديد، بحجة الثأر لعثمان.

وفتح الجبة في الجزيرة نفسها كان من احكم الخطط واصوبها، لأن نقل القتال الى ارض العدو له افضلية النتائج، إذ ان ارض العدو هي التي تكابد الخسائر.

وهكذا تمكن معاوية من ضرب اسفينه في ارض الجزيرة، مستخدما طلحة والزبي، ممنيا احدهما بالخلافة، مترقبا من وراء ذلك ارهاق الطرفين لعله بعد ذلك يجد الفرصة الأكثر ملائمة لأعلان انتفاض آخر يوصله الى غايته الأخرة التي لم يلمح إليها بعد حتى الآن.

في الوقت عينه، لا يكون قد فرط بشيء من قواه التي يوفرها لوقت لا شك ففي انه سيحتاجها فيه.

ولقد نجح في كل ما رمى إليه، فإن طلحة والزبير ـ وهما من أجل الصحابة ـ تمكنا بمعاونة (عائشة) أم المؤمنين من تأليف الجبهة المقصودة وسارا يقود حشودهم (عسكر) ـ اسم جمل أم المؤمنين ـ الى حيث اصطدموا بحشود الإمام علي قرب البصرة، حيث فشل خصام الخليفة، وقتل قائدا المعركة طلحة والزبير، واسرت عائشة أم المؤمنين، وارجعت الى بيتها ـ وهي نادمة وآسفة ـ بكل احترام.

يوم الجمل

قيل: ان معركة الجمل انتهت بيوم واحد، ولذلك نعتوها باقصر معركة في التاريخ راح ضحيتها اكثر من خمسة عشر ألفا ... أكبر عدد يمكن ان تستهلكه معركة في يوم واحد .. أي في اقل مدة يمكن ان تحسب بالثواني لاستيعاب مثل هذه المجزرة التي عدت بالألوف.

ولكن (معركة الجمل) تأبى ان تتلبس نعتا هزيلا كهذا النعت يحصرها في (يوم واحد) وهي لا تزال تفتش، حتى اليوم، عن كلمات اوسع واشمل تتمكن من ان تناسبها لتبرز فيها مستكملة شروط وصفها وتحديدها..

وكيف تجد ذلك وهي معركة كانت تكملة لمعارك عديدة سبقتها، وهي لا تزال مستمرة بعد اربعة عشر قرنا حتى اليوم .. دون ان تدري الى متى سيستمر مفعولها التخريبي على طول الرقعة المسماة بـ(دنيا الإسلام).

فهي نفسها اصبحت تجهل ـ تقريبا ـ تاريخ مولدها، وتجهل ايضاً الموعد الذي ستلفظ فيه انفاسها .. ولم يعد بإمكانها ضبط العدد الكبير من ضحاياها، لأن العدد سقط تحت خف الجمل ليس هو إلا أصغر عدد أمكنها أنْ تحصيه، من حيث اختلط عليها احصاء الذين سقطوا من قبل، وداخت عن اصحاء الذين سقطوا من بعد .. وسوف تضيع عن اصحاءالذين سيسقطون في المستقبل الحامل كل انفاث سمومها.

ولكنها تفخر بكونها بدء التاريخ .. لأن سبقها قد اسقط من الحساب اذا غمرته الجاهلية بعدم المسؤولية.

فهنيئاً لمعركة الجمل تلقل نفيها بـ(أم المشاكل).

حق البكارة

ولكن معركة صفين تتقدم بكثير من الاعتراض على اختها، إذ سابقتها الى حق البكارة.

فهي تدعي أنها ولدت قبلها في الساحة، وإنها هي التي دغدغتها ومرتها على تحريك قدميها، وهي التي كانت تحنو عليها بكثير من العطف قبل ان تتجرأ على الوقوف وحدها، وهي التي وفرت لها السبيل لأن تمشي وهي تراقبها بفرح الناقة يحبو تحت انفها فصيلها .. حتى إذا ما سارت الى آخر البلدان نسب إليها اكتشافه واحراز قصب السبق.

والحقيقة: ان معركة صفين صادقة في ادعائها .. إذ لولاها لما كانت (بنت الجمل) لتجرأ على المحاولة القاسية.

والفضل يعود الى صفين في كل ما يسمى بشق الطريق واللعب بين المخاطر.

وان حق البكارة يعود لها ... فهي البكر بالمولد، وهي الأساس بالتدريب، وهي المعلمة الفاهمة بكل فنون الميدان، وهي التي ضرستها الأيام فاكسبتها قوة الجلد والصبر على اقتحام المخاطر، وهي التي اضحت خبيرة بأمور الساحة، ما استدق منها وما انفرج وما أعوج من خطوطها وما استقام .. وهي الفعل، التي دفعت اختها الصغيرة الى السحة المكشوفة، وكانت من بعيد تسندها وتدغدغ خطواتها.

ولكن المشاهد ابى إلا ان يسلم الطفل الجرئ جائزته الأولى، إن لم يكن عن جدارة فعن تحبب على الأقل.

أما معركة صفين فلن نغمط حقها، إذ سوف تلبث الاخت الكبرى لمعركة الجمل، حتى انها سوف تبقى مستحصلة على حق الأمومة.

فهي (أخت) و (أم) في وقت واحد!

وإن معركة الجمل لن تخسر فضيلة الإقرار بالجميل.

فهي تصرح: إن صفين اختي وأمي في وقت واحد .. أمي التي ماتت ـ وأنا طفلة ـ اثر مرض عضال لم يشفها منه نطس[1] الأطباء الذين تداولوا على تمريضها تحت ستائر الكعبة، فتحطمت ضلوع (هبل) ولم تتمكن من شفائها، وكذلك فقئت أعين (اللات) و (العزى) و (مناة) دون ان تصل الى اكتشاف الدواء، وعجزت كذلك زيانية (بدر) و (أحد) و(خيبر) عن اقتلاع الحرشجة التي كانت عالقة في خلق الأم التي وهنت .. وأخيرا لفظت هي آخر أنفاسها.

كان ذلك تصرح به (معركة الجمل)، وتدرك ان اختها (صفين) هي التي تعهدتها بالتربية حتى بلغت رشدها .. وهي اليوم ـ أي بنت الجمل ـ إذ تتزوج من استقراطي، فإنها لن تستأثر بثروة هذا الزوج الثري الذي مات في ليله عرسه، فلأختها الكبرى منته النصيب الكبير.

---

١ . النطس بالفتح ككتف وعضد: العالم بالأمور والحاذق بها.. والنطس، بضمتين: الأطباء الحذاق المدققون (تاج العروس، الزبيدي: ١٣/٩).

تعقيب

من المؤلم حقاً ان توصف (معركة الجمل) و (معركة صفين) بشيء من التهكم الحزين.

ولكنها فورة الألم على الأمل المصدوم.

اين هي تلك الروعة التي كانت ترافق العرب على طول الجبهات المفتوحة تتظافر فيها على هاماتهم أكاليل الغار؟

واين هم القواد من العد المدحور يتكفكفون من حصن الى حصن يجررون أذيال الانخذال؟

اين (هرقل)؟ .. اين (رستم)؟ .. اين (المقوقس). .. اين (سرجيوس) و (نيودروس) و (يزدجرد الثالث)؟ .. أين (آل ساسان)؟ .. اين ابطال الروم؟..

هل سمح لكل هؤلاء ان يستعيدوا النفس الواجف ويلموا الشمل المشتت بعد ان شاهدوا الزاحف الفاتح ينكفئ الى خاصرتيه يغوص فيهما برجة وحسامه؟

وأية قوة ستكون فيما بعد للعرب لمجابهة كان الأحداث التي تستألب عليهم عند رجوع المد؟

وكيف سيقابلونها بكف مبتورة وسيف مغلول؟

وستتألب عليهم تلك الأحداث، وسيدفعون لها الجزية صاغرين .. وهي جزية يفرضها عليهم تنكبهم عن مضمون رسالتهم، يفرضها عليهم تضليل الفتح عن اهدافه .. إذ أنهم لو وعوا اهداف الفتوحات لكانوا أول ما عمدوا الى

فتح الجاهل في نفوسهم، يكنسون منها قذارة التعصب القبلي وما يوحي من شهوات تضلل النفس والعقل وتمرغهما بأنتن الوحول.

وما كانت الرسالة إلا فتحا مبينا في عملية انتصار العقل على الجهل، وفتح كوى الخير على النفس، وابدال التسامح بالحق، والمحبة بالبغض، واضاءة الدنيا بالدين.

وما كانت معركتا (الجمل) و (صفين) لتجيبا الرسالة بشيء من موحياتها.

فاليمنية والقيسية هما نفسهما اللتان لا تزالان في الميدان، وهما نفسهما لا تزالان حاملتين روحية الجاهلية من عرب الجنوب وعرب الشمال، ولا تزالان منتمتين الى قحطان وعدنان .. وهما اللتان لا تزالان الخط الذي ينقسم عليه المتنافسون في ظل الرسالة على اقتسام الدنيا والتنعم بخيراتها.

ولقد استنجد معاوية باليمانية حتى أوصلته الى عرش الشام، وسيستنجد أبو مسلم الخراساني[1] بقبيلة (الأزد) اليمانية لدك العرش الأموي وتسليمه الى العباسيين، من حيث لم يتمكن الخليفة الأموي (مروان) من الوقوف في وجه الزحف العباسي، لأنه سيكون منهمكا بالخلافات القبلية بين القيسية واليمنية بالذات .. ليس في الأرض الأم حسب، بل حتى في الأندلس التي يستقبل إليها من الفتح القيسي وستكون الروح القبيلة الغذاء النفسي للفظائع التي سطرها التاريخ.

---

١ . أبو مسلم الخراساني: اختلفوا في نسبه اختلافا كثيرا فقال بعضهم هو من اصفهان وقال بعضهم من خراسان وقيل ان من العرب وادعى هو انه من سليط بن علي بن عبد الله بن عباس، ونسبه ابو دلامة الى الأكراد، وهو الذي قضى على دولة بني أمية. (هامش البداية والنهاية، ابن كثير: ٣٧٣/٩).

القبلية الهوجاء التي جاءت الرسالة تحرقها، تطمرها، تمحو آثارها .. ليصفو الجو لمجتمع صحيح مبني على عقيدة وإيمان، على عقل وصواب، على نظافة وعدالة، على محبة وإخاء.

ولكن يومي (الجمل) و(صفين) لم يكن لهما غير عيني جمل همه قضم العشب من واحة ضخراء .. وسيان لديه: ينضب دجلة ويردى، أم يغور الفرات!!

صفين في بضع فقرات

على ضفة الفرات الغربية تقوم (صفين) شمال (الرقة).

بعد انذارات عديدة، ومحاولات فاشلة قام بها الرسل بين الخليفة الجديد معاوية لمنع هذا الاشتباك، تقرر الزحف لقمع العصيان.

التقى الجيشان المعبئان في صفين.

اسبوعان من الوقت مرا في مناوشات خفيفة، كان القصد منها استدراج معاوية للكف عن القتال فتسلم جوانب المسلمين.

لم تنجح المحاولة.

منع معاوية جيش علي عن ورود الماء.

تمكن جيش الخليفة من الشرب بالقوة، ولم يبادر الخصم بالمثل.

شهامة قدمت على سبيل استدرار العاطفة، لم تنجح.

التحم الجيشان في قتال أليم، وكادت تدور الدائرة على جيش الشام.

استنجد معاوية بعمرو بن العاص لتفتيق الحيلة.

جادت الحيلة على ابن العاص، فنصح برفع المصاحف، وطلب التحكيم.

بعد مداولات عديدة، وتحت ضغط الأنصار، لاسيّما[1] هؤلاء الذين سمو فيما بعد بـ(الخوارج)، وفي سبيل حقن الدماء، قبل التحكيم .. بل أجبر الإمام علي قبوله.

عمرو بن العاص عن معاوية..

---

١ . (خاصة) في الأصل كانت، والصحيح ما اثبتناه.

أبو موسى الأشعري عن علي.

تمت المهزلة التاريخية بخديعة الحكم الأشعري .. من حيث عزل ابن ابي طالب عن الخلافة!!

كانت الحصيلة عشرات الألوف من القتلى.

استئناف القتال.

تصدع الوحدة الإسلامية..

ظهور الخوارج..

تجميد الفتوحات..

اغتيال اكبر رجل كان بإمكانه صيانة الأمة وارساؤها على اصول من المناقب والفضائل تتجمل بها لو فعلت، وحين تفعل، الى ابعد الدهر.

ملحق

إذا كان من حق الثعلب يفتخر بدهائه، فأي دخل لذنبه بهذا الافتخار؟!

ولكن الذيل يدعى: ان الرأس الذي يحتاك بالحيل لم يذهب مرة واحدة في مغامراته دون ان يصطحبه لذلك .. فهو رفيقه في كل خطوة حققت له فن الرواغ.

إذا كان الأمر كذلك، فلمعركة (النهروان) هذا الحق بالإدعاء .. فهي ذيل طويل لمعركة صفين دون جدال.

ولكن ان تكن قد انبترت بضربة واحدة، فإنها لن تمر دون ان تتبعثر من حوالها علامات التعجب والتفجع، فوق ما تركت من ذيول لا تزال تتجرر

حتى اليوم، منطوية على فلسفات يشتق بعضها من بعض كما تشتق السفسطات منن المماحكات.

غير ان الخوارج في كل ما تشعبوا إليه، من الأزارقة، الى النجدات الى الأباضية، الى الصفوية .. إلى كل فرقهم التي بلغت العشرين، في غلوهم أو في اعتدالهم، في ديمقراطيتهم أو في ارستقراطيتهم .. فإنهم يستحقون شيئا من الإجلال على كثير من الشفقة، لأنهم كانوا ينشدون الحق وان اخطاؤه .. كما قال عنهم الإمام علي قبل موته: (لا تقاتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه)، أو كما قال عنهم عمر بن عبد العزيز في ما بعد: (إني قد علمت أنكلم لم تخرجوا مخرجكم هذا الطلب دنيا او متاع، لكنكم اردتم الآخرة فاخطأتم سبيلها).

إن معركة صفين تتذيل بمعركة النهروان .. ويكفيها بؤسا كونها، فوق ما فسخت العالم الإسلامي في فخر وحدته وباكورة أمجاده، تسببت في حقن صدر ذلك الخارجي بسموم الحقد، فشرب سيفه به، وأقدم على قتل أعظم رجل عرفه تاريخ العرب بعد النبي ﷺ.

خاصرتا ابي موسى الأشعري[1]

من المؤكد بأنك لم تكن من ذلك العجين الذي إذا خبز تشهته الموائد، ولا عودك كان من ذياك النبت الذي إذا حرق صفا نوره وطاف دخانه، ولم يكن لمعانك من النوع الجرئ الذي لا يخاف من ان يعرض ذاته على المحك الذي تتجلى عليه صفوة المعادن.

ولقد تسلمت زمام الكوفة فالتوى فيها عودك كما يلتوي العكاز في يد الكفيف.

واين تقع للضرير من دليل غرير؟

لذلك، نبذتك الكوفة حين انتدبتك عصا تتوكأ عليها، فلم تجد فيك أكثر من عصل.

أما أنت، فلبثت تتعصر على خاصرتيك تنفخهما بشيء من العلم المفقة، حتى ظن عودك الأملد.

---

١ . ابو موسى الاشعري اسمه عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب بن عامر ابن بكر بن عامر بن وائل بن ناجية بن الجماهر بن الاشعر، وهو ثبت بن ادد بن زيد ابن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يعرب بن قحطان، وفي نسبه هذا بعض الاختلاف . قدم مكة وحالف سعيد بن العاص بن أمية أبا أحيحة ثم أسلم بمكة . ولاه عمر البصرة حين عزل عنها المغيرة وبقي عليها حتى خلافة عثمان إذ عزله عنها : ثم طلب أهل الكوفة من عثمان أن يوليه عليهم فولاه عليهم حتى عزله علي بن أبي طالب حين خذل الناس عن نصرته، ثم عينه للتحكيم بطلب من أهل العراق (الخوارج). ولما مكر به ابن العاص انتقل إلى مكة وبقي فيها حتى توفي بها سنة ٤٢ أو ٤٤ أو ٥٠ أو ٥٢ على مختلف الروايات ودفن في منطقة الثوية قرب الكوفة) (عبدالله بن سبا - السيد مرتضى العسكري: ١/ ٢١٦).

ولم تخف على علي بن ابي طالب خوافيك .. فهو الذي أبقاك على الكوفة يجلو بها جوهرك، وهو الذي عنها رماك بعد ان استعجم عودك.

ولكن الأقدار التي تحبل بكل المساخر، لم يطيب لها إلا ان تطرحك على الخط الذي ستلتقي عليه كل القوافل.

فيا ويل خاصرتيك المنفوختين بالعلم الهاء!.

كم ستتلقى من الوطأ الثقيل مع السرى ومع الادلاج ذهاباً وايباباً على كل هذا الخط الطويل؟!

ذيول

لم تكد تنتهي معركة النهروان حتى رجع القتال الى ما كان عليه بين علي ومعاوية .. تارة يتلبس الجبهات الحربية القاسية، وطورا يتقلص الى مناوشات ترتدي طابع التحابيل والتراوغ وزروع اعمال الفوضى والتخريب في سبيل اشاعة الرعب وقض المضاجع[1].

أما الشعب الذي كانت تمثل على اعصابه كل هذه الأنواع من المهازل، فكان عرضة لقلق نفسي يترجع به بين الغضبة لكرامته واستئناف القتال، وبين الاستكانة من قتال يجعله الخاسر على كل حال.

واصبحت الدوامة هي نفسها..

اليمني هناك على طول جبهة الشام، والقيسي هنا على طول خط الكوفة.

وبين اليمني والقيسي حبال متصلة من كل شتيت.

القبائل المتفرقة، والمشدود بعضها ببعض أما بعامل الزيجة والقربى وأما بعامل المصلحة والأثرة، ولاترقب، مرهف مع أية جبهة من الاثنين تميل كفة النصر..

وهكذا حسب التقديرات والترجيحات، كان يحصل الانتقال الشعبي للالتحاق بالمعكسر الذي يتأمن معه اشباع الرغائب وتسمين المطالب!

---

١ . يصف الإمام علي هذه المرحلة فيقول: (.. حتى شنت عليكم الغارات، وملكت عليكم الاوطان، وهذا أخو غامد قد وردت خيله الانبار، وقد قتل حسان بن حسان البكري، وأزال خيلكم عن مسالحها، ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والاخرى المعاهدة، فينتزع حجلها وقلائدها ورعثها ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام. ثم انصرفوا وافرين..) (شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ٢ / ٧٤).

ولم تكن لتنتهي المناوشات .. فلقد اصبحت حالة راهنة .. لذلك عقدت بين الشقين المتنابذين هدنة رضخ لها الطرفان، تكرس فيها التقسيم الإداري حقنا للدماء، وللملمة لسمعة أخذت تصفر كما وجنة المريض على فراشه السقيم.

الهدنة

هي هدنة أم هي تعب من سياسة نشرت كل فشلها على كل أجواء العالم العربي بها فيه الجزيرة والشام واليمن ومصر؟

أليس هو الفشل يؤدي بمعاوية الى تجميد الفتح وقبول دفع الجزية لـ(كونستانس الثاني) عاهل الروم؟

أليس هو الفشل يحوج ابن ابي طالب الى ان يعيد النظر في اعمال الفتوحات على الخط الشرقي ليرد انتفاضة الفرس بقيادة ابنة كسرى التي هبت تحاول استرجاع أمجاد أبيها متبرمة من الفتح الغادر الذي قدم الرسالة على كف ثم أخذ يلملم بالكف الثانية كل السبايا والأسلاب والغنائم، ولقد تمكن خليد بن فارس، عامل علي على خراسان، من اسر الأميرة المنتفضة في (نيشابور) وسوقها مخفورة الى ما بين يدي الخليفة .. ولكن ابن ابي طالب الذي لم يكن لتروق له كل الأنماط التي سيقت بها الفتوحات منذ بدأت الفتوحات، لم يعامل الأميرة الأسيرة بتلك المعاملة التي كانت تجرى على اسرى الحرب، ولقد عرض عليها ان تختار الرجل الذي تريد فيزوجها منه، ولكنها رفضت إلا الرجل الذي يملك في الدولة حق الصدارة.

وانف علي، هو الكهلاالجليل، من ان يقبل بالزواج الفاقد عناصر الإنسجام، لتكون في ما بعد الحرية المطلقة للأسيرة.

مثال صغير قدمه علي بن أبي طالب على كيفية سوق الفتوحات نحو أهداف سامية، لا يليق ان تدنسها مطامع الكسب، ولا ان تغير جوهرها غايات الغنم أو لذاذات التمتع المتدني.

حتى أحط الميول البهيمية تثيرها عماوات النزعات الجنسية.

فالزواجح الذي كان بحد ذاته، في تلك الأيام، نوما من الكسب السياسي لربط القبائل بأواصر القربى في سبيل تخفيف التناحر القبلي.. لم يتمكن من تأدية الغاية المنشودة، وبقي يعرض الفتح الى انحطاط النزعات وحرقة في سعير الشهوات، ليلهيه عن مجاري الفكر العالي والانصراف عن حرز المكاسب الروحية.

وابن ابي طالب، المتشبع من جلالات الفكر، والمرهف الحس بكل لواعج الروح، لم يكن ليرضى بالدنيا تجر على الفتح خطوطها الملطخة بالمهجة الجنسية وبالفكرة الوحشية.

وسواء اتمكن من فرض ذلك بقوة الحكم أم عجز عن فرضه، فإن المهم لديه اصبح، بعد ثقل الأحداث وروعتها في تجسيم النماذج وفي حصرها ضمن الحروف الكبيرة والقدوات النافرة، تحمل تساجيلها مقرونة باسمه وباسم الدعوة الكبيرة الى كل الأجيال التس تتناقل الرسالة لصبها في قوالب مناهجها.

ولقد اصبح هذا شهوره ـ ومعاوية يتخذ الشام متراسه ـ بأن الجزيرة التي سجلت فضل بث الدعوة الكبيرة، لم تتمكن مطلقاً من اقتناص روعتها إلا كما تقتنص الطلقة صداها المرجع، ولن يكون الكسب المادي الذي جاء على الحواشي إلا كما يكون الهطل من ديمة مر بها السحاب ثم طواها.

فلتكن الهدنة .. وليكن معها الرضوخ للواقع النفسي الثقافي الذي لم يتمكن من فرض توحدي كيانات العرب منذ اللحظة الأولى التي أحسوا بها بلذة طعم هذا التوحيد وليشعروا بخيبة التفرقة التي تقدم اطباقها الأنانيات المهيضة ولينكبوا ما شاءت لهم نزعاتهم المريضة ان يتكبوا عن كل المثل التي

جاءت تنظف دربهم من العوسج ، وليحبو وحده هذا الطفل ، وليسقط وحده كذلك ، وليتكرر حبوه وسقوطه على طول الطريق المفتوح أمام قدميه .. فإن كل كدمة في ركبتيه ستذكره بضلاله عن جادة المسلك.

١٩ رمضان

في هذا اليوم بالذات ضرب عبد الرحمن بن ملجم موعده مع البطولات ..

فلقد عزم على أنْ يسن سيفه ويطيبه بقبضة من السموم ليقتل به علي بن ابي طالب.

ولقد شددت اعاصبه (قطام) المرأة الجميلة المغرية.

وقطام هذه، خاض كل الحروب أبوها وأخوها .. ولقد نقلا في معركة النهروان، ذهبا يقابلان ربهما، تاركين ظلا كثيفا من الضغائن لا تزال حتى اليوم، تنسل تحت عتمة النفوس المريضة بوباء الحقد والمكابرة.

أما الابنة المفجوعة، فهي لن تنام بين ذراعي العاشق المتيم إلا بعد ان يمهرها برأس ابن ابي طالب!!

وهكذا تربع التاسع عشر من رمضان في صدر التاريخ، من حيث تخشعت لذكراه صفحات التاريخ.

معابر

نهج البلاغة

قالوا : ان اليد التي امتدت الى (نهج البلاغة) هي يد طويلة كانت اطول من ثلاثة قرون، ولقد امتدت تتلاعب بالحروف، تصوغها كما يشاء فن الاقحام.

فإذا كان الأمر كذلك، فإن للمقحم أطول باع في مجال الفن .. إذ طالب غوصا يؤهله لأن يندمج فيه تمام الاندماج، وكان بارعا في فن الإخراج وفن الأداء، وفن التقليد، وفن التمثيل .. فظهر، وهو يقلد، بمظهر الأصيل الأصيل، فذاب النزيل في الأصيل، وضاع القصد من الدخيل.

واي شيء انزل على (نهج البلاغة) لم يكن تصويراً صادقاً لتلك النفسية التي نزلت في جسد علي بن ابي طالب كما يتنزل نور الشمس في الكأس الشفيف؟

واي عمل انجزه ابن ابي طالب في حياته لم يكن تعبيرا متناهي الصدق عن تلك النزعات السامية التي كانت تتأجج بها روحه الصافية .. ففاضت في كل تعبير من تعابيره، وفي كل اشارة من اشاراته، وفي كل جملة من كتابه؟

وماذا جاء في (نهج البلاغة) يدغدغ الشك فيما جاء في نهج البلاغة؟

وهل الكتاب كان غير تقويم للرجل الكبير في نهجه الطويل، الذي زرع عليه الإنسان قيمة تتبلور بالعقل الصحيح تسمو بالفضيلة، وجعل الفضائل تنمو وتدور على محور واحد هو محور التقوى والإيمان بالله؟

ومتى، وفي اية لحظة من لحظات عمره، لم يعبر عن هذا النهج الصريح؟

افي اعلانه الرسالة وايمانه بها ولقد نذر نفسه للدعوة لها والجهاد في سبيلها، أم في تطبيقها دستورا كاملا لكل مجاري أفكاره واقواله واعماله من حيث كان زهده وتقواه وشجاعته وبطولته؟

فقد كان الإقحام في (نهج البلاغة) تكريما لتعابير تحمل مثل هذه المعاني لم يسكبها جنان المنسوبة الى ضمن حروف نبتت من شق قلمه، فإن ذلك لم يضير نهج البلاغة بشيء .. لأن الكلام المقحم جاء صادقا في نحت نفسه قالبا لائقا بالفكر الأصيل، ولأن البلاغة في مفهومها الحقيقي، ليست مطلقا في قوة اللفظ والنحت بقدر ما هي تنزيل لسمو المعاني في قوالب متينة السبك والحبك، وان هذه الأخيرة تبقى ابدا قوالب جوفاء ما لم تستتم فيها تلك المفاتن.

و(نهج البلاغة)، سواء أكان[1] صقل حروفه على يد ابن ابي طالب ام كان على يد مقحم فنان، فإنه يبقى دائما تعبيرا عميق البلاغة عن نفسية رجل واحد سمي بـ(علي بن ابي طالب).

---

١ ـ إن من أقوى ما يجلو غيوم الشكوك والأوهام عن افق هذه المجموعة التي حوت بين الدفة خطب الإمام وكتبه وكلماته وحول نزاهة الشريف الرضي عن اضافة شيء فيها غير مأثور لهو هذا الذي نبديه الآن فأنا نحصي عليك عديدا من المؤلفين الاثبات الذين رووا خطب أمير المؤمنين ﷺ ورسائله في كتبهم من قبل ان يولد الرضي وقبل ان يخلق (ما هو نهج البلاغة، السيد هبة الدين الشهرستاني، تعليق عبد الستار الحسني: ٩٥).

دهاة العرب

قيل : ان دهاة العرب اربعة.

وقسموا الدهاء عليهم..

فكان حق الأولية لمعاوية بن ابي سفيان، إذ سلموه الروية..

وخصوا عمرو بن العاص بالبديهة، نظراً لكونه سيداً من افتى باختلاق الحلول عند اشتداد المصاعب وبروز المفاجئات..

أما المغيرة بن شعبة، فلقد خلعوا عليه قسم المعضلات.

وتركوا لزياد بن أبيه القسم الأخير لكل صغيرة وكبيرة.

والملاحظ يرى : ان الدهاء، بهذا التقسيم، كان من نصيب بني أمية وفي شخص معاوية ومن لف في فلكه، من حيث لم يبرز له اثر فيما قبل هذا التاريخ ... وكأنه بفعل هذه الحيازة لم يبق من حيث الأجيال التي تتلوا ان تدعي حق الانتساب إليه.

ويحار الملاحظ ايضا في امر زياد بن أبيه[1]، في أي وقت كفكفت اليه الخلعة السنية؟.. هل عندما كان ميله وهواه مع علي بن ابي طالب أم عندما اعترف معاوية بالأخوة المنسية وضم الى صدره الأخ أخاه وسلمه زمام البصرة الثائرة والكوفة المتمردة؟

---

١. زياد هو دعي ابا سفيان، الذي سمته عائشة زياد بن ابيه أمه سمية عاهرة ذات علم تعرف به وطأها أبو سفيان وهو سكران فعلقت منه بزياد هذا ولدته على فراش زوجها عبيد فادعاه ابو سفيان سرا (الهاشميات والعلويات، قصائد الكميت وابن ابي الحديد: ١٢٩.

ولن يتوقف الملاحظ ايضا عن ابداء الدهشة والحيرة عندما يرى العصر مشطوراً الى شطرين متناحرين .. كيف اذا شطرا واحدا كان نصيبه كل الدهاء، من حيث لم يبق للشطر الآخر شيئا منه يتحلى به؟

ثم ان الدهاء الذي قصدوه هو غير الدهاء الذي يعرفه الواقع العلمي والرأي الفلسفي.

والحقيقة، ان الدهاء درجة عالية من درجات الذكاء، يتصرف به العقل في لباقة الإخراج لكل القضايا المعقدة التي تعترض في سير الحياة في تطلبها الحلول والمعالجات.

وهو إذ يكون محكا لقوة العقل وعمق مداه، يكون بالوقت نفسه، في كيفية تصرفه تعبيرا عن قوى النفي ومد ى الصفاء في جوهرها.

ولن يكون له امر جليل ان لم يكن وليد تزاوج بين العقل السليم والنفس الكريمة.

إلا انه في مفهومه الذي ابرزوه مع ابطاله الأربعة، لم يكن إلا سلاحا يلجأ إليه أهل الدنيا في الوصول الى اغراضهم، ولا يحتاجه كثيرا أولئك الذين تنقبض نفوسهم على الزهد بها، وهو سلاح تتاركب ضلوعه على المكر والخداع اكثر مما تتألف على الصدق والصراحة.

لذلك، فإنه أكثر استعمالاً، وانفذ مجالاً، واطوع وسيلة، عند ارباب المنافع والغايات منه عند المستخفين بالدنيا ومباهجها وبريقها الخداع.

وليس معنى ذلك ان اهل الفئة الأخيرة من الناس ليس لديهم عقل يصلح مسرحا لهذا التلاعب الملون بالمواهب، ولكنهم يربئون بأنفسهم عن ان يلجأوا الى الأساليب التي تتلون باي صنف من اصناف الختل والخداع.

وفوق ذلك، فإنهم ليسوا بحاجة الى تلك الأساليب من التمويه والتراوغ لأنهم يعيشون الدنيا مقتورة، ويرجون الآخرة عفة وصدقا وحسن مال.

وهذا هو بالواقع الصريح .. كل الذي عاد فقسم الجبهة العربية بعد وحدتها بفترة قصيرة من الزمن الى شطرين متنا حرين: شط رالدنيا وشطر الزهد بها.

وليس يفهم مطلقا ان هولاء الزاهدين كانوا يرفضون الدنا ولا يعيرونها أي اهتمام ولكنهم كانوا يرمون من التشديد في امتهانها الى التخفيف من الأقبال عليها اقبال الجائع النهم، حتى لا يكون التهافت المجنون سبيلا لاضاعة جوهر الإنسان عن مثله الجميلة التي تكون العفة ابهى معانيها، من حيث يتردى المجتمع الإنساني في انحطاط خلقي سببا في تخلفه عن كسب كل مقومات المجتمعات الحية المتحضرة.

ولذلك، كان الدهاء سلاح أهل الدنيا في المعركة القائمة بين ابن ابي طالب في جبهة وبين ابن ابي سفيان في جبهة ثانية.

ولقد لبى معاوية الدهاء، وكان بين يديه اداة لينة.

وبالحقيقة، فإنه استحق الروية، أولى وابرز صفات الدهاء، واعمقها غوراً، واوزنها حيلة للعقل .. ولكنه تصرف بها تصرف أهل الدنيا، ولم يتصرف بها تصرف غير المنخدعين بمباهجها وبريق أوهامها.

وليست الروية، بمعناها الحقيقي، الا التبصر بالأمور والتعمق في عواقبها، وأخذها بأبعد منظار يمكن ان تنظر به.

وهنا يظهر الفرق البعيد بين روية يستعملها ابن التقوى وروية يستعملها ابن الدنيا..

فهذه تنظر الى الأرض بعين الأرض ولا ترى شيا ابعد من الأرض أما تلك فإنها تنظر الى الأرض كقاعدة تقفز منها الى محجة بعيدة تهزا بالمسافات وتتهكم على الحدود، لأنها ترى الوجود من جزئياته الى شموله، وترى ان اجتياز الدر بالطويل ان يكون الا بكل خطوة سليمة.

ومعاوية، بعد ان تروى فعل .. وعلي بعد ان تروى فعل.

وصحت روية معاوية فسيطر على حقبة من الزمن، وصحت روية على فامتلك الزمن.

ولقد استعمل معاوية الروية في الفتوحات فلبته الروية وبهرته الفتوحات.

ولقد انطوى على التمرس بها منذ ان نزلت كلمة النبي في اذنه: (يا معاوية! إذا ملكت فأحسن)[1].

واصبح الملك هدفا بعيدا من اهدافه، وسيصل اليه يوما بكل ما ستؤتيه له الروية من منافذ ومداخل ومخارج، بدون تأثم ولا استنكار.

وما ان تم له فتح الشام، حتى راح يؤسس فيها لنفسه.

ولقد صمم على اعتمادها الركيزة لمسقبله، وراح ينتظر الصدف والمفاجئات.

ولقد دلته الروية على صدق المسعى لتنفيذ مخططه..

وكان الكرم أول دروبه يشقها الى قلوب انصاره .. وكثرة هم الذين لم يحرموا من هذا العطف المادي يطوقهم به ويقودهم فيه الى جنابه.

ولقد قال ميمون بن مهران[1]: (ان معاوية كان أول من وضع شرف العطاء الفين).

---

١ . المعجم الأوسط، الطبراني: ٣٤٤/٥.

ولكن الخلافة كانت، بحكم الطبع، لمن بها أولى.

ولم يكن لمعاوية اليها سبيل والمهاجرون والشيوخ وأهل الصحابة والأقربون هم المقدمون والمفضلون.

ولكن معاوية، المؤمن بسخاء المناسبات وعجائب المفاجئات، لم يقطع خيط الأمل .. لاسيما وهو المشهور بشعرته اللينة اللدنة.

ولما صرع عمر بن الخطاب، تنفس الصعداء ليساند بكل قواه عثمان بن عفان في الوصول الى الخلافة، فتقوى شوكته، ويصلب عوده.

وعثمان، شيخ لن تطول به فسحة العمر .. وهذا امل جديد موصولة خيوطه بالخلافة بنهاية رجل من الخلافة.

أما عمر بن العاص، فإنه ترك لأعمال الفتح .. ركب المصاعب واقتحم المخاطر حتى حقق فتح مصر واستولى عليها، ليتحفز منها لبلوغ هدف لم تخف طويته على معاوية.

ولما كان عزل عثمان لعمرو عن مصر واستبداله باخ عثمان بالرضاعة (عبد الله بن ابي سرح)، لم تقم ابدا قيامة معاوية على هذا التبديل والتشكيل .. فهو ضمن المخطط المرسوم في مخليته لتخفيف المنافسين.

أما الثورة على عثمان بن عفان التي ادت الى مقتله، فانها لم تات عليه بالمفاجئة المزعجة، وان يكن قد تصنع الظهور بالحزن العميق.

---

١ . بن مهران الرقي أبو أيوب، من أهل الكوفة وعالم أهل الحجاز وقاضي الجزيرة، وكان لامرأة فأعتقته، روى عن عائشة، وأبي هريرة، وروى عنه أبو بشر وخصيف وجعفر بن برقان وحجاج بن أرطاة، مات سنة ١١٧ هجرية (الخلاف، الشيخ الطوسي: ١/٦٣٠)

أما استقباله (قميص عثمان) وتعليقه اياه في الشام في سبيل تحريك العواطف، واستعماله شرحبيل بن الصمط[١] لنقل تأثيرات الجريمة الى كل أهل الشام للمناداة بطلب اخذ الثار .. فإن ذلك كان من ضمن مخطط تطبيق الخطة المرسومة في سبيل الوصول الى العرش المنشود.

وكثيرة هي الخطط التي انتهجتها له هاتيك الروية على طول الطريق الذي ادى به الى عرش الشام . كلها كانت محكمة التطبيق ومحكمة التنفيذ .. من فتح اىلجبة على خصمه في الحجاز بقيادة طلحة والزبير، الى افتعال حوادث تخريبية ضمن الخلافة بقيادة الضحاك بن قيس[٢]، الى معركة صفين ورفع المصاحب، الى خدعة التحكيم، الى مراقبة معركة النهروان، والاطمئنان الى حسن نتائجها في خدمة مصالحه ونجاح مخططاته، الى ضرب اسفينه المسموم بقضية قيس بن سعد بن عبادة والي مصر[٣]، ذلك الرجل الذي كان يمثل عليا بنظافة الكف وحسن الإدارة.

---

١ . شرحبيل بن الصمد بن الأسود بن جبلة الكندي ويكنى ابا يزيد ذكره بعض المتأخرين ورغم انه صحابي وذكر انه مختلف في صحبته فاستعمله عمر في المدائن واستعمله معاوية على حمص مدة عشرين سنة كتاب معاوية الى شرحبيل بن السمط يسأله القدوم عليه وهيأ له رجالاً يخبرونه ان عليا قتل عثمان منهم يزيد بن اسد البجلي، وبشر بن ارطأة، وأبو الأعور السلمي، فقدم عليه، توفي سنة ٣٦ على يد حبيب بن سلمه في رواية (تاريخ مدينة مدشق: ٢٢/٤٤٨).

٢ . لم يبرح معاوية مستصغرا كل كبيرة في توطيد سلطانه .. ودأب على سفك دماء المسلمين الشيعة، واستباحة أموالهم واعراضهم، وقطع اصولهم، بقتل ذراريهم واطفالهم، ولم يستثن النساء، فوجه قواده الغارات على المناطق التي يسيطر عليها الإمام علي ﷺ ووجه النعمان بن قيس الفهري في جيش آخر وأمرهم ان يسيروا في البلاد فيقتلوا كل من وجدوه من شيعة علي بن ابي طالب ﷺ واصحابه وان يغيروا على سائر عماله ويقتلوا اصحابه (الغدير، الشيخ الأميني: ١١/١٦).

٣ . قيس بن سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن ابي خزيمة بن ابي خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج، وهو صحابي عظيم كان يعد من اشراف العرب وامرائها ودهاتها وفرسانها وأجوادها وخطبائها وزهادها وفضلائها من

ويبذ معاوية بالدهاء العاقل المتروي ، مما أدى الى ابعاد الرجل عن ولايته ليحل محله ابن ابي بكر، فيعمل على قهر أهل (خربتا) في مصر، واثقال وطأة الفوضى في البلد المفتوح .. حتى يتمكن عمرو بن العاص من قتل الرجل وقطع رأسه وارساله الى بيت عثمان بن عفان، ليرقص حرم الخليفة القتيل حول الوريد المقطوع رقصة الابتهاج بأخذ الثار.

وتتلملم المأساة بمقتل الإمام المكافح علي بن ابي طالب بضربة سيف ذلك الأحمق الغادر .. وينفرج الجو أمام المبايعة الجديدة .. ويتوصل معاوية الى الملك.

سلسلة طويلة من التضحيات والمحاولات، بخ فيها معاوية كل ما فتقته له الروية بدهاء قل نظيره في التاريخ، مستعملاً حوله قبضة من الرجال دربهم وحنكهم بمثل هذا الدهاء الفذ.

فإذا عمرو بن العاص يلبي استاذه بكل نجابة بتلك البديهة الحاضرة لمواجهة المشاكل وتقديم الأرتجال في الحلول .. فراح يجرر أذيال النصر في نهاية معركة صفين، كأنه طاووي له كل الفضل على الوان ذيله الطويل.

ولم يأنف من مقابلة زميله في التحكيم ـ ابي موسى الأشعري ـ بتلك الخيانة التي لم تتعرف الى حرف من حروف المروءة والوفاء، الى تنصيب نفسه

عمد الدين واركان المذهب وهو سيد الأنصار وابن سيدها وكان شجاعا جوادا سيدا لم يزل قيس سيدا في الجاهلية والإسلام وأبوه وجده وجد جده لم يزل قديم الشرف وكان والده أحد النبهاء الاثني عشر مع رسول الله ﷺ في بعض الغزوات واستعمله على الصدقة وكان من ذوي الرأي من الناس وقد ولاه اميرالمؤمنين مصر سنة ٣٦ وقد بايعه الناس في مصر إلا قرية منها يقال لها (خربتا) قد اعطى اهلها قتل عثمان وبها رجل من بني كنانة يقال يزيد بن الحارث الذي بعض الى قيس الأرض ارضك ولكن اقرنا حالها حتى ننظر الى ما يصير امر الناس، وقد دعاه امير المؤمنين علي ﷺ وشهد واقعة الجمل في جمادى الآخرة سنة ٣٦هـ وبعدها ولاه أمير المؤمنين اذربيجان وقاتل الخوارج مع علي، وقد ساند الإمام الحسن بكل قوة توفي في المدينة آخر خلافة معاوية سنة ٥٩هـ. (الغدير، الشيخ الأميني: ٦٦/٢).

قيما على المطالبة بدم عثمان .. من حيث لم يتورع عن قتل ابن ابي بكر وتلوين حادثة قطع الرأس بفضاعة الجريمة.

وراح المغيرة بن شعبة يحل المعضلات، تارة بتقديم النصح لابن ابي طالب باقرار معاوية عشية مقتل عثمان على امارته في الشام حتى تهدأ الحالة ثم يعزله إذا اقتضى الأمر، ثم بتغيير رأيه مع الصباح فاقراره بصواب عزل المتمرد عن كرسيه وفقا لعلمية التطهير، ثم لينتقل الى مكة ليساهم في ترتيب لمعركة الجمل والبحث في كيفية صالحة لمقارعة المسلمين بعضهم ببعض، ثم لينسحب منسلا الى الشام حيث يتابع تقديم النصلح لمعاوية وتدبير المؤامرات حول اعمال التحكيم.

وبقي في الساحة الشرقية زياد بن ابيه، يلملم اطراف المملكة ليرزمها الى طاعة أخيه بذلك البأس وتلك الحنكة اللتين جعلتاه يلم بكل شاردة وواردة.

ذلك هو موجز الحكاية الطويلة التي رافق كل أطوارها ومثل كل فصولها معاوية بن ابي سفيان، ملهب الفتوحات على الجبهة الرومانية، ومؤسس الدولة الأموية، وواضع أول حجر في زاوية تركيز الانقسام بين الكوفة ودمشق .. مستعاينا باليمنيين على القيسيين، مستجيرا بذلك الدهاء الذي دام يلبيه طوال تسعة وثمانين حولاً.

أما الجبهة الثانية، التي وقفت تقارع وعلى رأسها الخليفة الجديد، فإنها اذخت تتلقى الصدمات بذلك الصدر الواسع.

وماذا تراه يفعل علي بن ابي طالب؟..

ايقارع الدهاء بالدهاء؟..

وبأي نوع من الدهاء يقارع؟..

ومن المؤكد أنه ليس يلجأ الى ذلك الدهاء الذي يعيش بين الأواسن والعوافن، ولقد قال: (ولله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر .. ولولا كراهية الغدر لكنت أدهى الناس، والله ما استغل بالمكيدة ولا استغمز بالشديدة)[1].

ولكن الدهاء الذي هو لديه كان من النوع الصراح، لأنه كان وليد تلك الروية المتباعدة الآفاق.

وأولا، وأخيراً .. لماذا تألب عليه أهل الدنيا لو لم يكن لهم ذلك الخصم العنيد .. ولقد هددهم ليعود الجور الى اوطانه ويرجع الباطل الى نصابه: (لم تكن بيعتكم ايا فلته، وليس أمري وأمركم واحاً .. إني أريدك لله وانتم تريدونني من ظالمه، ولا قودن الظالم بخزامته، حتى اورده نهل الحق وان كان كارها)[2]؟..

وكان من الطبيعي ان يلجأ أهل الدنيا الى الدفاع بتلك البطولة المعكوسة، وكان من البديهي ان يقابلهم علي بن ابي طالب بتلك البطولة الايجابية، وكان من المؤكد ربحه على كل الجبهات، لأنه كان يناضل بسيف الحق، وسيف الحق لا يمكن ان ينقصف.

وهنا يبرز دهاء ابن ابي طالب .. وهنا تتجلى منه الرلاوية والدهاء.

كان دهاء العقل النير، والروية كانت روية العقل المبصر.

---

١ . نهج البلاغة، خطب الإمام علي ﷺ: ١٨٠/٢.

٢ . شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد: ١١/٩ و ٢٤٥/١١، ميزان الحكمة، محمد الريشهري: ١٤٧/١.

ومن هنا كان تقديره البعيد في ان الربح لن يكون إلا للحق في آخر الحلبة التي لن تكون فسحة العمر مداها، ولا حتى فسحة العصر .. بل ان الأجيال، برمتها ستكون الميدان الواسع لجولة الحق الكبير.

أما الجولة التي هي بين يديه، فإنه لن يستعمل في صلاح الربح القصير .. وإلا فأي معنى يكون للرجل الذي يقدم الرسالة قدوة ومثالا ولن يساوم على الحق والخير والجمال .. وإلا فكيف يستبدل بالكثير اليسير وبالجليل الضئيل، ولن يقبل بنصيحة المغيرة بن شعرة (اقرر معاوية على عمله وافرر العمار على اعمالهم، حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعة الجند، استبدلت وتركت) .. لأنه إنما جاء الحكم لينظف، والموت أهون عليه من التنكر لمبادئه.

ولقد رفض الحكم مقيدا على يد عبد الرحمن بن عوف، ولن يتشبث به اليوم مربوطا بمساومة.

أما ذلك الداهية الذي يدعي انه أهل لحل المعضلات، فإنه ربما يقدم حلا لمعضلة الساعة، وليس مطلقا حلا لمعظلة الخلافة بحدودها الكبيرة التي يجب ان تتناول الرعية بالحق والعدالة لا ان تتناولهم بالإرهاق والأنانيات.

والأمة بحاجة كلية الى بناء قويم، حتى لا تضيع بين الركام والرغام.

ولن يلجا ابدا الى الغدر والخديعة حتى يربح عرشا، ولو اقتضى ذلك تنكبه عن الخلافة.

لذلك، كان دهاء ابن ابي طالب، برفضه النصيحة، من النوع الجليل الذي يرضى المتاعب في سبيل تحقيق المبادئ.

وكذلك لم يكن رفع المصاحف في صفين ليخدعه اكثر مما كان ليجل قدره، لأنه هو نفسه، منذ ثلاثين عاما لا يزال، يحصن الأمة ويهيئها لمثل هذه

الجلوة من التحكيم .. وهو اليوم، مع قبوله الخديعة، أول من يلبى باسناد التحكيم الى الصفحة الكريمة.

وهو اعلم انسان بما جاء في الآي الكريم، وهو القائل: (سلوني عن كتاب الله) .. فوالله ما من اية إلا وأنا أعلم ابليل نزلت أم بنهار، أم سهل أم في جبل!)[1].

وستذوب الخدعة مع الخادع، وستبقى الوثيقة مع الصفحة الجليلة تنبض باحترام المخدوع للكتاب الكريم، من حيث تتقلص بديهة الخادع الى عقله المتقزم، وتتسامى روية المخدوع الى سدرة المنتهى.

وكان البون شاسعا بين ابن العاص يفاوض المقوقس في مصر على يد الأسود (عبادة بن الصامت) إذ يقدمه بهذا القول: (هذا الأسود سيدنا وخيرنا والمقدم علينا) .. وبين ابن العاص يستعمل كل دهائه في سبيل الحصول على خراج مصر، باعتبار الفتح في نظره بقرة حلوبا!

وكان الفرق بعيدا بين عمرو بن العاص يبني المسجد في الفسطاط وبين عمرو بن العاص يحمل المصحف في صفين.

فهنالك كان الكتاب صفحة، وهنا استحال الكتاب بين يديه الى ضجيج المكر والبهتان.

فاين هي البديهة تلبى العقل؟

واين هو الدهاء يعيش ساعة وينتحر؟

وهكذا كان الدهاء يدور على محورين في الصراع الناشب بين ابن ابي طالب وابن ابي سفيان .. دهاء ينشر قميص عثمان ملفوفا بالمصاحف، ودهاء

---

١ . الغدير، الشيخ الأميني: ١٩٣/٦.

ينشر المصاحف ملفوفة ببردة النبي .. دهاء يستريح على فراش من الخز والديباج ، ودهاء يكتفي بفراش من سعوف النخيل .. دهاء يحشر الوجود في ثنايا مطارفه ، ودهاء يوسع الوجود على مباهج مشارفه.

وكان الفرق بين دهاء ودهاء : ان واحدا منهما لا يزال يقفز بين الأجيال يتلقط به الإنسانن لتحقيق قيمة الإنسان.

الى معاوية بن ابي سفيان

ايها المخلوق المهيب!..

وحتى القلم لا يسعه إلا ان ينفلق فلقتين: فلقة معك، وفلقة عليك.

وكيف لا وأنت الذي شطرتها الى لوحتين، فراحت التثنية شعارا على الجبهتين، ولما تلقى بعد شقة المتفرقين ولا لحمة المنفصلين؟

ثم يا معاوية، وانت الكبير الكبير والأريب والأريب .. أي شيء كان لك خيرا مما اضحى اليك؟

فإذا كنت تسمح باستدراج الحوادث، فهي صاغرة بين يديك..

فلنبدأ بالتقييم على عامودين.

كنت في جاهلية تتخشع لحجارة الأصنام، وأصبحت في دين يضرع الأرض بك الى السماء، كنت في عصر مغلوق على ذاته يمتص حضارة مشوية، وانفتحت بدينك على آفاق لقحت حضاراتها بنور جديد.

كانت تشد أودك عصبية صغيرة تندفع بها في غارات ضيقة لم يكن مداها أكثر من تأمين العيش، واصبحت تسند ازرك في أوسع الفتوحات عصبية، ذابت فيها كل قبائل الجزيرة في سبيل نقل الفكر والروح الى مدى الانطلاق.

كنت في مكة ورواقك الأطناب تحميك من لفح الهجيرة، واصبحت على وسعة الشظآن فوق القلاح والحصون والمواكب.

كنت صغيراً ـ عفوك! ـ واصبحت كبيراً بفضل الرسالة.

ليس من الممكن ان تجهل ذلك، فهو بعض امجادك .. وهكذا كانت لك روحة الفتح.

فإذا كان الفتح عملية تهدف الى تطويف الفكر على آفاقه وتقييم الأعمال بتيارات الروح والمبادئ، فهذا هو الذي دفعت الى تنفيذه في امتشاقك لحسام، ويشق دربك الى حيث كنت تحمل رسالة الفكر والروح.

ولقد استقبلتك الشام هاديا لا غازيا، واعتبرت زيوت مشعلك من النوع المكرر والمطيب .. كما أنها وجدت فيك النسيب الحبيب.

كل ما فيك يشع بالقربى .. من الدم، الى الفكر، الى الروح .. من بادية الى بادية، من جوار الى جوار، من قادم جديد الى ناول قديم، من موحد الى موحد.

بتلك الحفاوة استقبلتك الشام على يد الأسقف منصور بن سرجوس[1]، وعلى يد حفيده القديس يوحنا.

ولو كنت غازيا آتيا لما استبدلت بك غازيا سواك .. فهي أنما وسعت لك مع حدود القربى لأنك جئت بمشعل النجاة لتنخيها من ليل الغزاة.

إذن، إنما جئت نسيبا وقريبا، ولم تجئ فاتحا غريباً .. وجئت مشعلاً ونبراسا أكثر بكثير مما جئت حساما ومتراسا.

وهنا كانت قيمة الفتح بين يديك، تشع من مصفحك على شفرة حسامكن ولم تشع من رأس سنانك على ضفة قرانك .. وجئت تصل وما جئت تفصل.

---

١. منصور بن سرجوس بن منصور الروحي كاتب معاوية وأبنه يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان وقد ذكره الرازي في تسمية كتاب امراء دمشق وذكر أنه كان نصرانيا فاسلم .. (تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ٢٩/١٦١). وجاء في تاريخ الطبري ٢/٢٠٥، سرجوس بن منصور الرومي كاتب معاوية وصاحب سره وكتب بعده ليزيد وكان يزيد ينادم على شرب الخمر سرجون النصراني مولاه وهو الذي اشار على يزيد ان يولي الكوفة ابن زياد لما بلغه خبر مسلم بن عقيل (معالم المدرستين، السيد مرتضى العسكري: ٢/٥٠).

ولقد تم على يديك ما أرادت الرسالة ان يتم، وكان المجد لك ملتحما بأمجاد بني قومك، ولم يكن الفرق بينك واليا وبين عمر بن الخطاب خليفة لينتقص من قيمتك قيد أنملة، فكنت وابن الخطاب في باحة المجد والجهاد قطبين تربطان الشام والمدينة بحبل وثيق الاتصال ولم يكن الحبل الذي يربط الجزيرة بالكوفة إلا ليتسعير متانته من حبلك مشدود الفتائل بكل مسلم مجاهد باعصاب دينه فوق اعصاب قبيلته، ثم انك اتصفت بالدهاء فكنت المدلول اليه بحسن الروية.

ولا شك في انك بهذه الميزات الكبيرة تمكنت من تأسيس عرش للشام بزَّ عروش الروم في ابان مجدهم، وان ذلك لم يكن لك امجاده وأنت خليفة بقدر ما كانت لك وأنت مجاهد عادي.

ولم يكن ليتم لك بقوة بني كلب وحدهم لو لم يكن بنو قيس يمدون ايضا يد المصافحة، ولم يكن حتى لا بنو كلب ولابنو قريش بالمحققين لو لم يذوبوا جميعا بمصهر جديد.

والمصهر الجديد هو الذي اكسب السيف رونقه، واكسب الجهاد روحه، اكسب الأهداف عقادها، واكسب النهج فلسفته.

واي نهج فلا فلسفة تستقيم خطوطه، وتعمر اهدافه، وتستقر جوانبه؟

والدنيا نفسه، متى يثبت لها ارجاء؟ ومتى يصفو لها وراء؟.. إلا بقدر ما تستقي من منابع الفضائل، وتنهل من موارد الجمال.

وهذه أو تلك هي الروح التي شعت من الرسالة الجديدة التي كانت مصهرا جديدا للجزيرة الجديدة، ليدنفع بها الفتح الجديد.

وكنت تعلم، يا معاوية بفيض رويتك: ان الجزيرة إذ توحدت حققت المعجزة .. وكنت تعلم كذلك أنها لم تتوحد أبدا في أي يوم من أيامها مثلما توحدت اليوم.

ولم يكن ليخفى عليك سر توحيدها.

وبالرغم من ذلك، ركبت المركب الخشن، لتحقق لنبي أمية نصرا على بني هاشم .. فبعدت عن النصر الأكيد[1].

ونصر بني أمية ونصر بني هاشم كانا نصرك الصحيح حين كنت تعري الشام من أخلاط الغرباء، وحين كان أخوانك بنظفون العراق من الأعاجم.

والشام والعراق هما جناحان الطليقان في دنياك الكبيرة.

فاي شيء كان ضائرا لك لو تمد يدك لابن ابي طالب لتجمع الكفين للصالح الموحد؟

وكنت تعلم على اليقين ان ابن عمك نظيف الكف، لأنه نظيف القلب والعقل والروح.

---

١ . إن احقاد معاوية وبني أمية هي بالأساس على الإسلام وبين الإسلام وقد روى مطرق بن المغيرة قال: وفدت مع أبي على معاوية فكان ابي يتحدث عنده ثم ينصرف إليه وهو يذكر معاوية وعقله ويعجب بما يرى منه وأقبل ذات ليلة وهو غظبان فأمسك عن العشاء فقلت له ما لي أراك مهتما منذ الليلة قال: يا بني جئتك من أخبث الناس قلت وما ذاك: قال: خلوت بمعاوية وقلت له إن قد بلغت مناي يا أمير المؤمنين فلو اظهرت عدلا وبسطت خير فانك قد كبرت ولو نظرت الى اخوتك من بني هاشم فوصلت ارحامهم فو الله ما عندهم اليوم شيء تخافه فثار معاوية واندفع يقول هيهات هيهات ملك هو يتيم ملك خو تيم فعدل وفعل فوالله ما عدا ان هلك فهلك ذكره إلا ان يقول قائل أبو بكر ثم ملك أخو بني عدي فاجتهد وشمر عشر سنين فو الله ما عدا أن هلك فهلك ذكره إلا ان يقول قائل عمر ثم ملك فهلك رجل لم يكن أحد في مثل نسبه وفعل ما فعل وعمل به ما عمل فو الله ما عدا ان هلك فهلك ذكره وذكر ما فعل به وإن أخا بني هاشم يصاح به في كل يوم خمس مرات اشهد ان محمد رسول الله فاي عمل يبقى بعد هذا لا أم لك لا والله إلادفنا دفنا (حياة الإمام الحسين الشيخ باقر شريف القرشي: ١٥٢/٢).

وما كنت تجهل مطلقا أنه القطب الكبير الذي دار عليه محور الرسالة وأنت تشق بها كل درويك، وأنه الأساس المتين لكل ما نشأ من حصونك وأن له كل حق الجهاد وكل حق الصدارة، وإليه يعود فضل النهج والإخراج وبه تحصر القربى، وعليه تدل الوصايات .. لأنه العفيف النزيه، والعالم الكبير، والحجة الغائرة الى كل جذور المنطق .. وأنه الذوق السليم، والقائد الحكيم، والبطل العنيد.

أي شيء كان أحسن لك من ان تجمع صدرك الى روعه، ورايك الى حجاه .. فتشرب دنياك بدينه، وتصقل دهاك بجرمه .. اذن، لكانت لك الدنيا صحيحة الجوانب متينة القوالب.

اذن أي نفع من الدنيا يتملص منها سمو الشرائع وتتعرى من ثوب الفضائل؟

ولو قدر لك ان ترى كل الذي حصل، من بعد ان تركت الدنيا، لكنت أول الآسفين وابلغ النادمين.

فلقد التهب خط المجازر بحروب أهلية على طول الرقعة الممتدة من خليج العرب حتى البحر الميت، وهب أكثر من واحد يطالبون بالخلافة، ليسقط أخيرا صريعا في ساحة الوغى، وحوله عشرات الألوف، كلهم من أرومة القحطانيين والعدنانيين .. تارة في (الحرة) وطوراً في (البصرة) وحينا في (مكة والكعبة) وحينا في (الكوفة).

وهكذا كانت الفتنة تنتقل دوارة من الشام الى العراق، أو من الشام الى مصر، أو الى مصر والعراق والشام في آن واحد.

ولم يكن اسخى منها مجازر قطعت فيها الرؤوس بالألوف، بأنواع كثيرة التشكيل من الاضطهاد والتنكيل، تتلون بشتى الأساليب .. منها الغدر، ومنها الغيلة، ومنها التسميم.

ولقد كان الحجاج بن يوسف من ابرع هؤلاء وأطولهم باعا، فلم يبق في العراق ولم يذر .. ليتقلص أخيرا مجد الجزيرة، وتنكمش على ذاتها، ويطفر ابناؤها مشتتين، هربا من الظلم والجور والاضطهاد .. ليزيد الحقد في القلوب، ولتنطوي الأغلال في النفوس، من قبيلة الى قبيلة، ومن جبهة الى جبهة، ومن جيل الى جيل.

ولم تنته سلسلة الاغتيالات..

ولم تتوقف على عثمان بن عفان، أو علي بن ابي طالب، أو الحسن بن علي .. بل بقيت مستمرة الى الحسين بن علي، الى عبد الله بن الزبير، الى مروان بن الحكم، الى الوليد بن يزيد، الى مروان بن محمد..

وهكذا، بعد تسعة عقود، ضيعت دمشق روعة عرشك الكبير ونعومة ظلك النظير .. ولم يبق لديها ما يذكرها بعصرك إلا المسجد الواسع الفخم تأوى أليه مطمئنة.

وهكذا، يا معاوية، تنتقل الدنا مشرقة مع الشروق وكالحة مع الغروب، ليبقى وجه ربك الكريم من قبل ومن بعد.

الى مثل هذه المآذن كان يدعوك ابن ابي طالب، استخفافا بالدنيا واسجماما لروح.

فضائل يتحتم على المجتمع، حتى يتمكن في ظلها من التنعم بالدنيا بعيدا عن اشباح المخاوف، بعيدا عن الأحقاد والضغائن، بعيدا عن المراوغ والمزاوغ.

ولم يكن ذلك ليتم لمجتمعات العرب في حضن بداوة لا تقيم وزنا للمزايا والصفات، فراحت تتلهى بالحزازات والعصبيات.

ولم يأخذ من الفترة التي انتصرت فيها على عصبياتها وحققت فيها اعز فتوحاتها عبرة كافية تجعلها تتعلق بأسباب انحطاطها.

ان هذا النوع من التربية الصحيحة من كان مسؤولاً عن توفيره للمجتمع غير قواده وحكامه.

ولكن الأساليب التي عالج الحكام بها رعاياهم، لم تكن لتأتلف وهذه الغاية من الأداء السليم، لأن التنافس على الرئاسة واحتلال المناصب في سبيل التنعم الوسيع بالدينا لم يكن من شأنه أن يحقق نجاحه الآني إلا باستجداء العصبيات القبلية عن طريق الإغراء بالخيرات الدافقة من الفتوحات.

وأفسد الفتح، وافسد الحكام، وأفسد المجتمع.

وكان اللجوء الى العنق اقرب الطرق لتحقيق استمرار السيطرة والتنعم بها.

وهكذا كانت الدواسة تدور على نفسها لتقرض بنفسها.

فبعد عفوتك الأخيرة، قام عبد الله بن الزبير[1] يستحث الحسين بن علي للمطالبة بحقه في الولاية، وتنكب عن مؤازرته حتى يخلو له الجو.

---

١. عبد الله بن الزبير بن العوام: هو الاخر من رواة الحديث عند أهل السنة، وهو من رجال الصحيحين، ونقل عنه البخاري في صحيحه عشرة أحاديث، وكان من الخوارج والنواصب الألداء الذين نصبوا العداء والبغض للأمام علي ﷺ، وقد تصدى للأمامة في الصلاة في يوم الجمل رغم حضور أبيه الزبير وطلحة. وتنص بعض النصوص على أن عبد الله هو الذي حرض أباه الزبير على أن يعادي عليا ﷺ. قال الأمام علي ﷺ: ما زال الزبير منا أهل البيت حتى شب ابنه عبد الله. وقد نص بعضها الاخر على أنه ﷺ حينما التقى بالزبير قبل واقعة الجمل قال له: قد كنا نعدك من بني عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء - عبد الله - ففرق بيننا وبينك. وفي يوم الجمل لما انتهى جيش عائشة إلى ماء الحوأب ومعهم عائشة نبحتها كلاب الحوأب. فقالت لمحمد بن طلحة: أي ماء هذا؟ قال: هذا ماء الحوأب. فقالت: ما أراني إلا راجعة. قال: ولم؟ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول لنسائه: كأني

وما كان من ابنك يزيد لا التنكيل بالحسين، وقطع رأسه، وتقديمه هدية حلوة الى اخت الحسين نفسها، لتعود به الى كربلاء، ولتصبح للشيعةصيحة جديدة لم تزل تدوى حتى اليوم مطالبة بثارات الحسين، ليفتنها فرصة حبلى بالأحقاد عبد الله بن الزبير المؤازر الطامع بالخلافة .. وقد حققها لنفسه مدة تسع سنوات، وحقق معها (صفينا) ثانياً على كل قبائل العرب.

أما مروان بن الحكم، فتلك كانت فرصته المرتقبة .. فاستلم الخلافة باسم الدوحة المروانية بعد موت حفيدك معاوية الثاني، وظل يحض باليمنيين على القيسيين، حتى قتلته عاتكة أم خالد تحت الشوادك اشنع قتلة.

أما الحجاج بن يوسف[1]، فلقد توجه الى الكوفة ليقول: (إني لأرى رؤوسا قد اينعت وحان قطافها، وأني لصاحبها، وكأني انظر الى الدماء بين العمائم واللحى)[1].

بإحداكن قد نبحتها كلاب الحوأب، وإياك أن تكوني أنت يا حميراء - عائشة - . فقال لها محمد بن طلحة: تقدمي رحمك الله وردعي هذا القول - أي لا تكوني مفرقة الجمع - وأتى عبد الله بن الزبير فحلف لها بالله لقد خلفتيه أول الليل وأتاها ببينة زور من الأعراب - خمسين رجلا - فشهدوا بذلك. فزعموا أنها أول شهادة زور شهد بها في الاسلام والذي قتل ذا الثدية هو أمير المؤمنين ﷺ، فعلى هذا فعلي ﷺ خير الامة جميعا بعد رسول الله ﷺ باقرار عائشة، روى الواقدي وابن الكلبي وغيرهما من رواة السير والمؤرخين، أنه قد أدى عداء ابن الزبير لعلي ﷺ إلى حد أنه ما كان يترك فرصة إلا واغتنمها حتى ينال من الأمام على ﷺ ويشفي غيظه، وأنه مكث أيام خلافته أربعين جمعة لم يصل فيها على الرسول الكريم ﷺ حتى أن اعترض عليه بعض الناس وانتقدوه لتركه الصلاة على محمد ﷺ. فقال ابن الزبير في جوابهم: إني لا يمنعني من ذكر النبي ﷺ إلا إنه كان له عشيرة لا اريد أن يرفعوا رؤوسهم لذكر النبي ﷺ وإني لا اريد أن تشمخ رجال من عشيرته ﷺ بآنافها (أضواء على الصحيحين، الشيخ محمد صادق النجمي: ١٠٥).

١. الحجاج بن يوسف بن الحكم بن عقيل الثقفي عامل عبدالملك بن مروان على العراق وخراسان. ذكر المسعودي خبر امه الفارعة وولادتها الحجاج مشوها.. وكان الحجاج يخبر عن نفسه ان اكثر لذاته سفك الدماء وارتكاب الامور لا يقدم عليها غيره، وخبر امة مشهور في تمنيها الى نصر بن الحجاج بالرغم من أنها تحت المغيرة بن شعبة وقد ذكر القصة أبو الفرج الجوزي وكان للحجاج في القتل وسفك الدماء والعقوبات غرائب لم يسمع بمثلها. ثم قال: إنه

ولقد احصيت الرؤوس المقطوعة على عهده، فبلغ مجموعها مئة وعشرين ألفاً.

كل هذه المجازر رافقت كل أطوار الخلافة الأموية من بعدك، وعشش فيها من البغض والحقد والكيد ما عشش.

ولم تنشأ خلالها أية محاولة فيها، من العطف والحب والتسامح، ما يمحو شيئا من لآثارها ويخفف وطأة من اثقالها.

وكانت جميعها تنوخ بثقلها على جميع المسلمين.

وعلى طول هذه الحقبة من الزمن، التي لم تتجاوز السبعين عاما، ظلت الأحقاد تنمو وتتجمع مدورة من فينة الى فينة ومن خلافة الى خلافة، تغتمد بها الصدور وتنحفز بها الخواطر .. حتى استغلها فرصة بفرصة (السفاح العباسي) فكان التنكيل على يديه ثأراً بثأر وتمثيلا بتمثيل .. فإذا الذي كان مدا اصبح جزرا، والذي كان جزرا اصبح أمدا.

وهكذا ترى ـ يا بن أمية ـ ان الحقبة التي خفق عليها قميص عثمان قد ضرجت العصر كله بدماء مئات الألوف ومن كل قبائل العرب.

اراد التشبيه بزياد بن ابيه في ذلك وقد بنى الحجاج مدينة واسط سنة ٨٦ وسماها واسط لأنها بين البصرة والكوفة وقد توفي الحجاج سنة ٩٥. بواسط في العراق وكان تأمره على الناس عشرين سنة واحصي من قتله مائة ألف وعشرون الفا مات وفي حبسه خمسون الف رجل وثلاثون الف امرأة منهن ستة عشر ألف مجردة وكان يحبس النساء والرجال في موضع واحد ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من الشمس في الصيف ولا من المطر والبرد في الشتاء. وفي تاريخ ابن الجوزي كان سجنه حائطاً محوطاً لا سقف له (الكنى والألقاب، عباس القمي: ٢٥٨).

١ . تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ١/١٢٧.

وجمدت الفتوحات تجميدا مخزيا، من حيث اصبحت الجزية تدفع بدل ان تؤخذ، وأصبح كرسي الخلافة دورا بين المدينة والكوفة، وبين الكوفة والشام، وبين الشام وبغداد.

وظلت القبلية نفسها تتناحر وتنتقل مستعرة من جبهة الى جبهة ومن عصر الى عصر.

وبقي الخلفاء على نمطهم في العيش والبذخ، واستغلال افياء المسلمين وصرفها على اهوائهم وملذاتهم الضارية الى حد الخلاعة والمجون.

واستمر الشعب راسباً في انحطاطه المستمر البعيد عن نواحي التفكير الصحيح والثقافة المستحلبة من جور ال حب والخير والجمال، ولم يستتب للاقتصاد الموجه الحقيقي اية بادرة تجعل الجزيرة تتركز على شيء من الاستقرار، من حيث كانت واجبا ـ أولا وآخراً ـ نحت الدولة نحتا دقيقا يحصر كل جهودها في تمثيل الإنسان في الجزيرة واراجه الإخراج المثقف، حتى يصبح مكنة فاعلة قبل طرحه في الميدان الصاخب الذي رمي اليه بعجره وبجره.

وكانت البادرة الأولى ضعيفة جدا من ناحية هذا المعنى الأصيل.

ورحت ـ يا بن أمية ـ بقميص عثمان ترجح به كفة الدنيا الى صدرك فناء بها صدرك كما ناءت بها صدور اهل عصرك .. وتركت العصر يتخبط بمده وبجزره، ليبقى قدوة لما بعده من العصور.

ابن ملجم

لست أول الخارجين عن الخط .. ولن تكون اخرهم..

ولست أول الحاملين اعباء الجريمة .. ولن تكون مطلقا في النهاية.

اتفههم وليس الدافع فيه لا بالأوهى ولا بالأسخف.

فكل هؤلاء الذين يقدمون على مثل هذا الاقتحام هم ثملك يحملون هذه العتمة في نفوسهم، وهذا المنطق الأبله في رؤوسهم.

وليست القذارت التي تتمرغ فيها بضلوعك، والتي تنكب عليها بيافوخك، بأقل نجاسة وأخف تنانة من تلك التي يتمرغ بها الخنازير في اصطفافهم حول المناتن.

واي شيء يقال فيك، يا حامل الجريمة، أكثر مما يقال في مجرم!

وماذا يهمك من النعوت ينكال عليك ابشعها وأنت الذي تجردت من كل خلجة تتأثر بها كرامة حي؟

غير ان الكلام فيك، الذي لا يفتش عن ان يتنقى من عواهنه، لا يقصد ان يهاجمك اكثر مما يقصد ان يهاجم الجريمة التي ترنحت على يديك، وهي جريمة العصر، امتصصتها سما ذعافا سكبته على رأس حسامك، فكنت المخرج الأوحد تجمعت فيك مطامير الحقد على بله.

ولقد قالوا: ان امرأة موتورة اغرتك بجمالها ومنتك بدفع نفسها ثمنا لك اذ تحقق في سبيلها البطولة المقصودة.

فاي جمال هذا تحسسته في عتمة نفسك فاقتنصتك حرارة لفحاته؟!

ولكنه جمال الخفافيش التي لا يمكنها ان ترى إلا في عتمات الكهوف.

ولقد تواقحوا فسموك (صنديداً) .. إذ تمكنت من صرع بطلم تشهد له الجزيرة مثيلا في تاريخها، لا الغابر ولا الحاضر.

واي بطولة هذه تشحذ سيفها على مشحذين: مشحذ السم، ومشحذ الغيلة؟

والغيلة ذاتها كانت بجبن رفيقاتها التي سبقت لم تنجح، والسم وحده الذي فعل.

ولقد تغابوا ونسبوا اليك صفة المنقذ[1]، اذ قصدت ان تخلص الأمة من مسببي ويلاتها ومثيري حروبها.

ويلك! وويل من تغابى مثلك!!

عمر طويل من الجهاد في سبيل رفع المظالم عن كاهل الأمة وكاهلك، في سبيل تحرير جيلك، وفي سبيل دفع القدوة الى كل الأجيال التي تتلو عصرك، في سبيل صيانة كرامة كل إنسان بجهل انسانيته مثلك، في سبيل نفض الجزيرة ـ جزيرتك ـ وترميمها لتصبح مستحقة للاصطفاف بين المجتمعات المتحضرة.

ماذا تدعي يا هذا؟.. وماذا يدعي كل الذين خلفك؟.. وكل هذا الذي مر من جهاد طويل، غمر به ابن ابي طالب كل عمره بالأتعاب والأوصاب بالفقر والحرمان، بالسهر الطويل والحرص النبيل.

---

١ . حتى قال شاعرهم الخارجي البغيض عمران بن حطان في رثاء أشقى الأشقياء عبد الرحمن بن ملجم.

يا ضربة من شقي ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

إني لأذكره يوما فأحسبه ... أوفى البرية عند الله ميزانا

فرد عليه الطبري قائلاً:

يا ضربة من شقي ما أراد بها ... إلا ليهدم من ذي العرش بنيانا

إني لأذكره يوماً فألعنه ... أيها والعن عمران بن حطانا

في سبيل من كان؟

هل كان في سبيل إبادة الأمة بحروب أهلية، أم (هل)[1] في سبيل تطهير الأمة من رواسب الجهل والانحطاط؟

اتراه كان مجنونا يحاول ان يختطف الأرض ليحطمها بين قوافل النجوم أم تراه كان عاقلا يستنزل السماوات ليفرش بنعيمها جنبات الأرض؟

اتراه استحل خيرات الفتوحات يجمعها الى قصورة تنعما ولذاذات، أم تراه راح يغني الفتوحات بكنوزه المدفتونة، يدفقها من قلبه ومن عقله، ثروان لا تعرف الأرض لها فناء؟

أتراه جاء يهدم أم جاء يبني؟ أترا ه جاء يسلب، أم تراه جاء يعطي؟

والرسالة التي عليه كان قوامها وإليه انتهى زمامها؟ .. أتراه خفر الذمام وخان الأمانة؟

اتراه حملها بسيفه وبيانه كما تحمل الريح محامل الغيث الى كل صادية من صحاريك؟

ألم تره تحت ضربة سيفك الغادر على طريق المسجد تحني رأسه جلالات جلالات، تحت قميص مرقوع ، ومدرعة قد انجزت في ساحات الجهاد، تكفكفت قدميه نعل مخصوفة؟

ألم تسمع ابن عباس يسأله عن هذه النعل .. (دخلت على أمير المؤمنين) بـ(ذي قار) وهو يخصف نعله، فقال لي: ما قيمة هذه النعل؟، فقلت لا قيمة لها، فقال: والله لهي أحب من أمرتكم، إلا أن أقيم حقا أو أدفع باطلاً)[2].

---

١ . لا توجد في الأصل، وضعت لاستقامة الجملة نحوياً.

٢ . بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ٧٦/٣٢.

ألم تسمعه يقول ذلك؟

أم تره بتلك الظاهر المثقلة بالأجل والأبر؟

ولكنك لم تر إليه إلا بالمنظار الذي وضع على عينيك الكفيفتين .. وكان ذلك من تراث عصرك.

ثم ان عصرك كان أكثر اجراما منك، بحيث انه عجز عن اختضان الرجل الضخم، وتغافل عن وجوب رفعه الى السدة المنيعة، حتى لا يجوز لقزم من امثالك ان يتمكن من النظر الى صفحة نعله المخصوفة؟

وكان ذلك بمثابة استهتار العصر برجاله الأفذاذ، من حيث حسبت عليه الجريمة في ميزان التقييم، تخلفا عن ا دراك القيم، وتنكبا عن ضبط المثالب، وإن عصرا جائعا الى الرجال، كعصر الجاهلية بالذات، تمطره السماء بعلي بن ابي طالب غيثا مدرارا ثم ينبذه ليعود فيتعلق بالسراب .. لعصر أقل ما يقال فيه أنه عمي لا تزال تأخذه سنة الدياجير.

أما الرجل الذي خر صريعا أمام مسجد الكوفة، فإن ضربة السيف لم تنل من مقتله، لأن الذين يعالجون الفكر مثله في ابراجها العالية يصبحون في المأمن الحريز من أي ترابي على شكل ابن ملجم.

ولكن الضربة التي هوت على رأس هذا العبقري، رغما عن أنها لم تصب منه إلا التافه[1] من كيانه، فإنها لا تزال تعتبر طعنة في صميم الكرامة الإنسانية، ووصمة على عصر يتنازل عن حقه، تاركاً للأجيال شرف تقييم الرجل الذي اهملت تقديره .. من حيث اصبح ابن ابي طالب أوسع واحة يهفو إليها عطش الإنسان، إذ يلهث به تجواله عبر العصور.

---

١ . التافه: من تفه (بكسر الفاء) القليل معجم لغة الفقهاء، محمد قلعجي:

الغروب المشرق

الى اين يستطيع ان يطوف بك الفكر وقد تخليت عن كل القيود التي كانت تشد بك من تلك المطاوف التي كانت تهتز تحت مقارع قبضتيك؟

وكيف أصبحت تنظر إليك الدنيا بعد ان نبذت إليها كل ما كان لك منها كما ينبذ الليل أمام الفجر آخر ذيل من ذيول عتماته.

وكيف بدأت تنظر إليك ساحات الجهاد بعد ان تركت لها السيف الصقيل والرمح الأسيل؟

لعمري ! ان التاسع عشر من رمضان لم يكن اليوم الأوحد الذي فيه رزمت حقائبك وشددت رحلك للسفر الطويل.

فلقد تهيأت لاعتلاء المطية البهية منذ اليوم الأول الذي به تكحلت عيناك بذلك الفيض الذي من (غار حراء)، وفقت عليك غموره..

ومنذ ذلك اليوم والدنيا تطأطئ رأسها بين يديك، وتلقي بكل جبروتها تحت نعليك.

ومنذ تلك اللحظة، أصبحت خطواتك تتجه نحو الأقاصي لا تستوقفها الأعاصير، ولا تلهيها رغوات الزبد؟

الدنيا التي قابلتها بخشونة كفك، وصدفت عنها بشمم أنفك، ورميت إليها بطي كشحك .. هي اليوم التي ترنو اليك، كأنها أدركت انك أنعم وشي لبرودها، وانك أطرى سحابة مرت تلطف النشفة في أجوائها.

وأنك كنت أعقل معدل في صماماتها .. تارة يطبق عليها الشح فتستند به على اختناق، وطورا يغور بها البطر فتحبل به على انفتاق.

وأنت كنت أجرأ من مد الى خدها المبرج يدا فهتك عنه الإزار، ودخل خدرها المنمق فمزق عنه الستار .. فإذا بالوجه السافر تفضح الشمس مساحته، وبالخدر المدلل المغطى بالسجف الوثيرة يتعرى عن كل مفاتنه الوبيئة.

وهكذا اخضعت الدمية الكبيرة وسلختها من أغلفة الأوهام لتلبسها الثوب البسيط المعفف، وسحقت عن أجفافها سقم المراود، وعرضتها للنور تستجمع منه مفاتن الكحل؟

وإن الدنيا هذه إذ تخسر تحت عينيك بريقها الوابق، تكتسب بين راحتيك وهجها الدافق .. فإذا هي دروب آمنة الجوانب، يتمشى عليها العابرون على اتزان .. يحدوهم الشوق العفيف، والأمل اللطيف، والمسعى النظيف .. في سبيل الوصول إلى غفوة قريرة، لم تنغصها لا دلجة الطمع ولا لمز الجشع، ولم تهتكها تخاريب الفجور أو تجاويف الغرور، ولم تؤرقها دبابيس المظالم، وليس الفقر فيها بمنئ عن الفضائل، وليس الغنى منها بمغنى عن الشمائل.

وهكذا صنت حدود الدنيا إذ كثفت حدودها، واسبغت عليها الكنوز من حيث بعثرت كنوزها.

لذلك، فإنها اصبحت ترجع إليك في كل سانحة تشعر فيها بأنه قد غصَّ بها الطريق وفي دستورك كان لها ذلك المرجع الوثيق، ودستورك كان ذلك الإلمام الفسيح بكل أمور الحياة، ومشاكلها ولواعجها، فلم تعالج شأنا من شؤونها إلا سبرت منه الأغوار وسلطت عليه الأنوار.

أخذت الرسالة، فإذا هي من نور ربك الكبير هداية ما فاتك منها قبس جمعت إليها حجاك، فشع بها منك الحجا، .. وضممتها الى قواك .. فإذا

صدرك منها كظهر المجن فرحت تغرف وتفرغ، دون أن يوهيك الغرف أو يوهنك التوزيع .. كأنك أليم، ما ملت من مدك الشطآن.

ولم تأخذ كبيرة إلا عالجتها بكبر، ولن تتناول صغيرة إلا اعرتها كل الفكر .. فكأنك كنت على البعد وعلى القرب كالنور، جواد البصيرة جواب النظر

وتهافت حول حياضك الفضائل مترابطة كما تترابط ببعضها البعض خطوط القوافل، فإذا بها مشدودة الرصف، منسقة القوالب، موزونة الإيقاع، سلسلة المدارج؟

فكنت الجائد الجواد من حيث كنت الزاهد الزهاد..

وعجنت الدنيا بماء الزهر وخبزتها، فإذا موائد الجود تتفتح على حقيقة السخاء .. حتى إذا تناولت الرغيف المقدد تأكله بحبة ملح، كانت لك فيه كل العوافي .. ورغيفك كان كفافك، لأنه كان من الزهد عجينه.. ولن تحسد غيرك على رغيف، لأنه من جود زهدك كان طينه.

وزهدت بالدنيا، لأنك لم تر لها ظلا مقيماً ولا عزاً مستديماً.

ورأيت أن دروبها ليست غير معابر، ورأيت ان الإنسان فيها حثيثا حثيثا إلى الموت سائر، وأنه إلى احضان ربه صائر.

ورأيت ان الفضائل خير حلية تجمع الإنسان في دنياه، يسلكها بتقواه ويتركها بنجواه .. راحة في الحياة وبلغة للممات.

ورأيت ان المثالب بنت المتاعب، تفسد المطالب، تحتضن الأحقاد، وتقض المضاجع .. ولن يكون للإنسان فيها حقيقة مأرب، بل هل ملجأ العقل الواهي، ومسلك الطامع المغرور، والجائع النهم .. هدف صغير، وشأو حقير، لن تبني

انسانا يعي حقيقة الوجود، بل بقى لها مصدرا قلق في سباق أليم، ينهكه التزاحم، ويدهمه التحايل والتراوغ.

فمددت باعك الطولي تفرض العفة في المسلك، والصدق في المنطق، والصراحة في الرأي، والحق في الفصل، والعدل في التنفيذ .. فإذا بك تمد الخوان تغنيه الفضائل، وتزينه الشمائل، وتطيبه التقوى، ويشهيه الإيمان.

وعجينك هو العجين المطهر، لم تمتد إليه يد البغي بأصبع .. وكان المأكل منه نعم المأكل .. فيه الغذاء وفيه العزاء، فيه الرضوخ وفيه الرضا، فيه الحب وفيه السماح، وفيه السعي على اباء، وفيه الفكر على نبالة، وفيه يقظة الوجدان، وفيه روعة الإنسان.

هذا ما تركته للدنيا ..

هذا ما تركته للدنيا من حقيقة الدنيا..

فلا عجب تجوع الدنيا من صوانيك كلما غصت بموائدها، أو تتعطش إلى مساقيك كلما غرقت في مناهلها.

والدنيا إنما سغبها في تخمتها، وإنما صداها بفيض غمرها.

أما ان اطباقك كيف لا تتخم ومشاريك كيف لا تغرق، فلأنك الذواق إذ قدمت فن المأكل وفن المشرب.

وهكذا لا تزال الدنيا بأجيالها تعرف الطيب من افاويهك، يا أيها الوجه الكريم من سنا ربك.

المصادر

١. الأعلام: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٧٩م.

٢. أعيان الشيعة: محسن الأمين، حققه وأخرجه حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات بيروت طبعة ١٤٠٣هـ.

٣. افحام الأعداء والخصوم: السيد ناصر حسين الموسوي الهندي، اصدار وتقديم الدكتور محمد هادي الأميني، الناشر مكتبة نينوى الحديثة طهران.

٤. الأمالي: الشيخ الصدوق، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية مؤسسة البعثة الطبعة الأولى ١٤١٧هـ، نشر مؤسسة البعثة.

٥. بحار الأنوار: محمد باقر المجلسي، الطبعة الثانية المصححة، ١٤٠٣هـ طبع ونشر مؤسسة الوفاء بيروت.

٦. البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق علي شيري، الطبعة الأول ١٤٠٨هـ طبع ونشر دار احياء التراث العربي.

٧. تاج العروس: محمد مرتضى الزبيدي، الناشر المكتبة الحياة، بيروت.

٨. تاريخ اليعقوبي: أحمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، مطبعة دار صادر بيروت، الناشر مؤسسة ونشر فرهنك، أهل البيت.

٩. تاريخ مدينة بغداد: الخطيب البغدادي، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ، طبع ونشر دار الكتب العلمية بيروت.

١٠. تاريخ مدينة دمشق: ابن عساكر، تحقيق علي شيري طبعة ١٤١٥هـ، الناشر دار الفكر.

١١. حياة الإمام الحسين: الشيخ باقر شريف القرشي، طبع مطبعة الآداب، ط ١٣٩٤هـ، الناشر الأدب النجف الأشرف.

١٢. الخلاف: الشيخ الطوسي، تحقيق: السيد علي الخراساني، السيد جواد الشهرستاني، محمد مهدي نجف، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

١٣. دار المدرستين: السيد مرتضى العسكري، سنة الطبعة ١٤١٠هـ الناشر مؤسسة النعمان بيروت.

١٤. زوجات النبي: سعيد ايوب، المطبعة دار الهادي ١٩٩٧م الناشر دار الهادي.

١٥. السقيفة وفدك: أبي بكر محمد بن عبد العزيز الجوهري البصري البغدادي، تحقيق محمد هادي الأميني، طبع ونشر الكتبي بيروت، الطبعة الثانية، ١٣١٤هـ.

١٦. صحيح البخاري: محمد بن اسماعيل البخاري، طبع ونشر دار الكتب بيروت، الطبعة طبعت بالأوفست عن طبعة دار الطباعة العامرة في استانبول ١٤٠١هـ.

١٧. الغدير: عبد الحسين الأميني، طبع ونشر دار الكتب العربية بيروت، طبعة ١٢٧١هـ.

١٨. فضائل الصحابة: أحمد بن شعيب النسائي، طبع ونشر دار الكتب بيروت لبنان.

١٩. المعجم الأوسط: سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني تحقيق ابراهيم الحسيني، طبع ونشر دار الحرمين.

٢٠. ميزان الحكمة: محمد الريشهري، تحقيق دار الحديث الطبعة الأولى، طبع ونشر دار الحديث.

٢١. الناصريات: الشريف المرتضى، تحقيق مركز البحوث والدراسات العلمية الطبعة ١٤١٧هـ الناشر رابطة الثقافة والعلاقات الاسلامية طهران.

٢٢. النصائح الكافية على من يتولى معاوية: محمد بن عقيل بن عبد الله بن عمر بن يحيى العلوي الطبعة الأولى ١٤١٢هـ الناشر دار الثقافة قم المقدسة.

٢٣. الكنى والألقاب: عباس القمي، تحقيق مؤسسة النشر الإسلامي الطبعة الأولى ١٤٢٥ الناشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

٢٤. مقاتل الطالبيين: ابي الفرج الأصفهاني، تحقيق كاظم المظفر، الطبعة الثانية الناشر مؤسسة دار الكتب بيروت.

٢٥. فهرست ابن النديم: محمد بن اسحاق، تحقيق رضا تجدد.

٢٦. الحضارات: لبيب عبد الستار، الطبعة ١٦ المطبعة دار المشرق.

٢٧. لسان الميزان: شهاب الدين ابي الفضل احمد بن علي بن حجر العسقلاني، الطبعة الثاني ١٢٩٠هـ، الناشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت.

٢٨. شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم المطبعة منشورات مكتبة اية الله العظمى المرعشي النجفي، الناشر دار احياء الفكر العربي.

٢٩. نهج البلاغة: خطب الإمام علي، تحقيق: الشيخ محمد عبد، الناشر والمطبعة دار المعرفة بيروت.

٣٠. الإرشاد: الشيخ المفيد، تحقيق مؤسسة آل البيت لتحقيق التراث نشر وطبع دار المفيد.

٣١. غريب الحديث: القاسم بن سلام العلوي ابو عبيد تحقيق محمد عبد المعيد خان، الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية الهند، الناشر دار الكتاب العربي بيروت.

٣٢. ما هو نهج البلاغة: السيد هبة الدين الشهرستاني، تعليق عبد الستار الحسني.

٣٣. عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى: السيد مرتضى العسكري، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ، الناشر نشر التوحيد.

٣٤. تاريخ الطبري: ابن جرير الطبري، تحقيق نخبة من العلماء الأجلاء الناشرمؤسسة الأعلمي بيروت.

٣٥. أحاديث أم المؤمنين عائشة، السيد مرتضى العسكري، مطبعة النهضة، الطبعة الأولى.

٣٦. مستدرك الحاكم: محمد بن محمد الحاكم النيسابوري، تحقيق الدكتور يوسف المرعشي الناشر دار المعرفة بيروت ١٤٠٦هـ.

٣٧. مناقب آل أبي طالب: ابن شهر اشوب، التحقيق لجنة من اساتذة النجف الأشرف الطبعة ١٣٧٦، المطبعة محمد كاظم الحيدري مطبعة الحيدرية النجف الأشرف.

٣٨. السيرة النبوية: تحقيق مصطفى عبد الواحد، الطبعة الأولى ١٣٩٦، الناشر دار المعرفة بيروت.

٣٩. القاموس المحيط: الفيرزو آبدي.

٤٠. الجواهر السنية في الأحاديث القدسية: الحر العاملي، طبع ونشر مكتبة المفيد قم.

٤١. ينابيع المودة لذوي القربى: الشيخ سليمان بن ابراهيم القندوزي الحنفي، تحقيق سيد علي جمال شرف الحسيني الطبعة الأولى ١٤١٦، طبع ونشر دار الأسوة.

٤٢. العمدة: ابن البطريق الأسدي الحلي: تحقيق جامعة المدرسين قم المطبعة، مطبعة جامعة المدرسين قم، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، الناشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين قم.

٤٣. تفسير نور الثقلين: الشيخ عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي، الطبعة الرابعة ١٤١٢هـ، تحقيق السيد هاشم الرسولي المحلاتي المطبعة مؤسسة اسماعيليان.

٤٤. شرح مئة كلمة: كمال الدين ميثم بن علي البحراني، تحقيق مير جلال الحسيني المحدث، الناشر جماعة المدرسين في الحموزة العلمية.

٤٥. عيون المواعظ الحكم: علي بن محمد الليثي الواسطي.

٤٦. شرح الأخبار: القاضي البنعمان المغربي، تحقيق السيد محمد الحسيني الجلالي، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ، المطبعة مطبعة مؤسسة النشر الإسلامي، الناشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم.

٤٧. شرح أصول الكافي: مولى محمد صالح المازندراني.

٤٨. الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، جورج جرداق، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ، دار مكتبة صعصعة، جدة، حفص، مملكة البحرين.

٤٩. مجمع البحرين: العالم المحدث الفقيه الشيخ فخر الدين الطريحي، تحقيق احمد الحسيني الطبعة الأولى ١٣٨١ دار الثقافة النجف.

٥٠. الكامل في التاريخ: ابا الحسين علي بن الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين، تحقيق ابي الفداء عبد الله القاضي، الطبعة الرابعة ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

٥١. مروج الذهب ومعادن الجوهر: ابي الحسن علي بن الحسين المسعودي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة بيروت.

٥٢. الإمام علي اسد الإسلام وقديسه، روكس بن زائد العزيزي، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ دار الكتاب العربي بيروت.

٥٣. خصائص الوحي المبين، الحافظ ابن البطريق شمس الدر يحيى بن الحسن الأسدي الربعي الحلي، تحقيق الشيخ مالك المحمودي، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ، الناشر دار القرآن الكريم قم المقدسة.

٥٤. العقد الفريد: ابي عمر احمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي شرحه وضبطه ورتب فهارسه ابراهيم الابياري، قدم له د. عمر عبد السلام تدمري، الناشر دار الكتاب العربي بيروت.

٥٥. معجم الأدباء: ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الطبعة الأخيرة، مطبوعات دار المأمون.

٥٦. الحسين ابوالشهداء: عباس محمود العقاد المجموعة الكاملة المجلد الثاني العبقريات الإسلامية، دار الكتاب اللبناني بيروت.

٥٧. صحيح بن حبان: بن حبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، الطبعة الثانية الناشر مؤسسة الرسالة.

٥٨. مناقب أهل البيت: المولى حيدر الشيرواني، تحقيق الشيخ محمد الحسون سنة الطبع ١٤١٤هـ، مطبعة منشورات الإسلامية.

٥٩. مناقب آل أبي طالب، ابن شهر اشوب، تحقيق لجنة من استاذة النجف الأشرف سنة الطبع ١٣٦٧هـ المطبعة الحيدرية النجف الأشرف الناشر المكتبة الحيدرية النجف الأشرف.

الفهرست

- مقدمة القسم ٥
- تمهيد ٨
- كلمة رئيس اللجنة ١٩
- المقدمات ٢١
- كلمة المؤلف ٦٥
- الإهداء ٦٦
- فاتحة ٦٧
- مناجاة ٦٩
- مدخل ٧٢
- ركائز ٧٦
- الجزيرة العربية ٧٧
- ولادة النبي ٨٢
- علي بن أبي طالب في اطار تاريخي ٨٦
- شخصية الإنسان ٩٤
- شخصية ابن ابي طالب ٩٨
- الى ارض الجزيرة ١٠٠
- مولد الرسالة ١٠٢
- قيمة الرسالة ١٠٥
- واقع الأحداث ١٠٧
- دور ابن ابي طالب ١٠٩
- تأثير الرسالة ١١١
- زيارة الموت ـ موت النبي ١١٣

- موت فاطمة ١١٦
- مجال الصدمات ١١٧
- الإسلام دين جديد ١١٩
- معركة أحد ١٢١
- وقعة الخندق ١٢٤
- خطيئة عبد الرحمن بن عوف ١٣٢
- بن عكسين . فراغ يمتلئ ١٣٥
- ملأ يفرغ ١٤٣
- متقل عثمان ١٤٧
- أول ثورة في تاريخ ال جزيرة ١٤٩
- الساحة المكشوفة ١٥٥
- بين التردد والقبول ١٥٨
- العدة الكاملة ١٦١
- الراية الجديدة ١٧١
- القميص الطائر ١٨١
- الواقع المؤلم ١٨٤
- افق الكوفة وافق الشام ١٩٣
- الكتلة الأولى الشام ١٩٦
- الكتلة الثانية الكوفة ١٩٩
- عائشة ٢٠١
- طلحة والزبير في سطور ٢٠٤
- معركة جانبية ٢٠٦
- يوم الجمل ٢٠٨
- حق البكارة ٢٠٩

- تعقيب ٢١١
- صفين في بضع فقرات ٢١٤
- ملحق ٢١٥
- خاصرتا ابي موسى الأشعري ٢١٧
- ذيول ٢١٩
- الهدنة ٢٢١
- ١٩ رمضان ٢٢٤
- معابر نهج البلاغة ٢٢٥
- دهاة العرب ٢٢٧
- الى معاوية بن ابي سفيان. ٢٣٩
- ابن ملجم ٢٤٩
- الغروب المشرق ٢٥٣

قسم الشؤون الفكرية والثقافية

www.imamail-a.com
www.haydarya.com